# القفل العجيب

آر أوستن فريمان

# القفل العجيب

تأليف

آر أوستن فريمان

ترجمة

إبراهيم سند أحمد

مراجعة

هاني فتحي سليمان

هنداوي

# القفل العجيب

آر أوستن فريمان

# The Puzzle Lock

R. Austin Freeman

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٠ ٢٢٣٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٥
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
*The Puzzle Lock*/R. Austin Freeman; this work is in the public domain.

# المحتويات


١- القفل العجيب ٧
٢- الستر‌ة الخضراء المزركشة ٢٩
٣- خاتم نبوخذ نصر ٥٣
٤- فيليس أنسلي على حافة الإعدام ٧٣
٥- ناشر الأوبئة ٩٩
٦- ريكس في برنابي ١٢١
٧- لغز في كثبان رملية ١٤٣
٨- شبح في برلينج كورت ١٦٣
٩- الزائر الغامض ١٩١

الفصل الأول

# القفل العجيب

لا أتذكر أيُّ مناسبة تلك التي دعتْني إلى تناوُل العشاء مع ثورندايك في مطعم جيامبوريني في تلك الليلة تحديدًا التي لم تنمحِ بعدُ من ذاكرتي. مما لا شك فيه أن بعض الأعمال المنجَزة كانت قد استدعت حضورَ هذا الاحتفال المتواضع على ما يبدو. على أية حال، دخلنا إلى المطعم وجلسنا على طاولة اختارها ثورندايك في مكان منعزل بعضَ الشيء، جلسنا أمام نافذة كبيرة تتدفق من خلالها أشعةُ الشمس في شهر يونيو. حضرت الترتيبات الأولية وهي زجاجة من نبيذ البارساك، وكنا مترددين بين مجموعة من أطباق المقبلات نصف المطهوة، وعندئذٍ دخل رجل وجلس على طاولة أمام طاولتنا، من الواضح أنها كانت محجوزةً له؛ لأنه سار إليها مباشرةً وسحب الكرسيَّ الوحيد الذي كان موضوعًا بزاوية تجاه الطاولة.

تملَّكني الاهتمامُ بمراقبة أسلوبه المنمق؛ فقد كان واضحًا أن الرجل يتناول عشاءه باهتمام. ومن أسلوب النادل والطاولة المحجوزة بكرسي واحد، خمَّنتُ أنه عميل منتظم أيضًا، ولكن الرجل نفسه أثار فضولي؛ فقد كان رجلًا غير عادي وكان مظهره ينمُّ عن شخصية ربما تشوبها مسحةٌ من الغرابة. بدا عليه أنه يقارب الستين من عمره، وله جسم صغير ونحيل، ووجه تكسوه التجاعيد ومتقلب التعابير وغريب الأطوار، وتعلو رأسَه خصلاتٌ من الشعر الأبيض المنتصب. ومن جيب صدريته تبرز أطرافُ قلم حبر وقلم رصاص وكشاف كهربائي صغير يُشبه ذلك الذي يستخدمه الجراحون؛ رأيت عدسة كودينجتون مكبرة محاطة بإطار فضي معلقة في سلسلة الساعة، ويرتدي في إصبعه الأوسط بيده اليسرى أكبرَ خاتم رأيتُه في حياتي.

قال ثورندايك وهو يتابع نظراتي: «حسنًا، ما تقول في الرجل؟»

أجبته: «لا أعرف حقًّا، تُوحي عدسةُ كودينجتون المكبِّرة أنه من أنصار المذهب الطبيعي أو عالم في مجال ما، ولكن هذا الخاتم الكبير يستبعد هذا التخمين. لعله يعمل في جَمْع

الأشياء القديمة أو القِطَع النقدية أو حتى الطوابع البريدية. إنه يتعامل مع الأشياء الصغيرة من نوع ما.»

في تلك اللحظة، دخل رجل وهو يمشي بخُطًى واسعة باتجاه طاولة صديقنا ومدَّ يده للمصافحة وصافحه الرجل الآخر ولكن ليس بحماس كبير حسبما رأيت. أحضر الوافد الجديد كرسيًّا ووضعه بجانب الطاولة وجلس وأمسك القائمة، وفي ذلك الوقت أخذ الآخر ينظر مستنكرًا. خمَّنت أنه كان يفضِّل تناول العشاء وحده، وأنه لم تَرُق له شخصية الرجل الذي دخل لتوِّه؛ إذ كان ذا مظهر مبهرج وصارخ ولافت للأنظار.

ومن هذين الرجلين، انجذبت عيناي إلى رجل طويل القامة توقَّف بقرب الباب ووقف يتفحص الردهة وكأنه يبحث عن شخص ما. وقعت عيناه فجأةً على طاولة فارغة ذات مقعد واحد، توجَّه الرجل إليها مباشرةً وجلس وأخذ يقرأ قائمة الطعام متوجسًا والنادل يقف ينتظر أوامره. استرقتُ النظر إليه بشيء من الازدراء. يأخذ المرء عنفوان الشباب بعين الاعتبار، ولكن عندما يتحلى رجل في منتصف العمر بمظهر يجمع بين الشعر الكثيف الدهان المفروق من المنتصف، وشارب مدهون بكمية كبيرة من الكريم المثبت بحيث يُثير الاستغراب من كثافة لونه الأسود، ونظارة محدبة بعين واحدة من النوع الفخم يبدو أنها لمجرد الزينة، فهذا يدفع المرء إلى أن ينظر إليه بقدر ضئيل من القبول. لم أُعِر مظهرَه الغريب انتباهًا، ولكني كنت مهتمًّا بوجبة العشاء ولم أنتبه لشيء آخر مع العشاء لبعض الوقت إلى أن سمعتُ ثورندايك يُصدر ضحكةً مكتومة خفيفة.

بينما يضع كأسه، علَّق بقوله: «ليس سيئًا.»

وافقتُه الرأي: «لا بأس إطلاقًا بالنسبة إلى نبيذٍ من المطعم.»

قال: «لم أقصد النبيذ، ولكني أقصد صديقنا بادجر.»

قلت متعجبًا: «المفتش! إنه ليس هنا، أليس كذلك؟ فأنا لا أراه.»

قال: «يسرُّني أن أسمعك تقول ذلك يا جيرفيس. بذل الرجل جهدًا أفضل مما توقعت، ولكن بإمكانه التعامل مع متعلقاته بطريقة أفضل قليلًا. فهذه المرة الثانية التي تقع فيها نظارته في الحساء.»

بينما أتتبع نظراته، لاحظت أن الرجل ذا الشارب المدهون بالكريم المثبت يمسح نظارته خِلسةً؛ وبفضل الانقشاع المؤقت لغيمة العبوس من إحدى عينيه، تمكنتُ من ملاحظة أوجه التشابه مع الملامح المعتادة لضابط المباحث.

قلت: «إذا كنت تقول إن هذا هو بادجر، فأنا أخمِّن أنه هو. إنه يشبه صديقنا قليلًا، ولكن ما كنت لأتعرَّف عليه.»

قال ثورندايك: «لا أعرف إن كان هناك ما يجعلني أتعرف عليه، ولكني تعرفت عليه من بعض سقطات الحركات اللاإرادية. تعرف طريقته في التمسيد على مؤخرة رأسه وفتح فمه والحك في ذقنه من الجانب. رأيته يفعل ذلك لتوِّه. فقد نسي مظهر الملوك الذي يظهر به حتى نسي ذقنه، ثم التوقف المفاجئ في حركته جذب الانتباه كثيرًا. فما كان عليه أن ينسى أنها لحية مزيفة.»

قلت: «لا أعرف ما اللعبة التي يحيكها. يُوحي تنكُّرُه بأنه في مهمة تحرٍّ عن شخص ما ربما يعرفه، ولكن من الواضح أنه لم يعثر على أحد حتى الآن. على أية حال، يبدو أنه لا يراقب شخصًا بعينه.»

قال ثورندايك: «لا، ولكن يبدو أنه يوجد أشخاص يتحاشى النظر إليهم. هذان الرجلان الجالسان على الطاولة التي أمامنا يقعان في مجال رؤيته مباشرةً، ولكنه لم يركز نظرَه معهما ولو مرة واحدة منذ أن جلس على الرغم أني لاحظته يرمقهما بنظرة سريعة قبل أن يختار طاولته. لا أعرف هل رآنا أم لا. ربما لم يرَنا لأن ضوء النافذة شديد السطوع من خلفنا كما أن انتباهه مشغول بشيء آخر.»

نظرتُ إلى الرجلين ثم إلى المحقق وعلمتُ أن صديقي على حق. كان يوجد على طاولة المفتش نبات سرخس بحجم كبير موضوع في إناء زينة، بعد ذلك حرَّكه بحيث يصبح بينه وبين الغريبين؛ ومن ثَم لا بد أنه أصبح غير مرئي جزئيًّا لهما. في الحقيقة، يمكنني أن أرى الآن أنه بالفعل يسترق النظر إليهما من وقت لآخر عبر حافة بطاقة قائمة المأكولات. وحينما أوشكا على الانتهاء من وجبتَيْهما، أنهى وجبته بسرعةٍ وأشار إلى النادل ليُحضر له الفاتورة.

قال ثورندايك بعدما دفع حسابنا: «يمكننا الانتظار نحن أيضًا ونراهم وهم يغادرون. دائمًا ما يُثير بادجر اهتمامي. إنه شديد الذكاء ولكنَّ حظَّه سيئٌ بدرجة صادمة.»

لم ننتظر طويلًا. نهض الرجلان عن طاولتهما ومشيَا على مهلٍ باتجاه الباب، وتوقفَا لإشعال السجائر قبل الخروج. ثم نهض بادجر وأولاهما ظهرَه وجعل وجهه باتجاه المِرآة المقابلة لهما؛ وبينما خرج الرجلان، تناول قبعته وعصاه وتَبِعهما. نظر ثورندايك إليَّ نظرةَ تساؤل.

سألني ثورندايك قائلًا: «هل ندخل في مغامرات هذه المطاردة؟» ومع موافقتي لرأيه، انطلقنا في أثر المفتش.

بينما نتبع بادجر على مسافة قريبة، كنا من وقتٍ لآخر نرصد الرجلين اللذين يراقبهما المفتش من أمامه؛ إذ تسببت تصرفاتُهما في إرباك المفتش، حيث كانَا يتوقَّفان فجأةً لتوضيح

بعض النقاط التي يتناقشان فيها، واضطر المحقق أن يبعد بمسافة أكبر من المسافة الآمنة؛ وذلك نظرًا لازدحام الرصيف. وفي إحدى هذه المناقشات عندما كان الرجل الأكبر يقول بنفسه بعضَ النكات المضحكة، نظر كلاهما إلى الخلف فجأة، وكان صاحب النكتة يشير إلى شيءٍ ما في الجهة المقابلة من الطريق. التفت العديد من الأشخاص ليروا الشيء الذي يشير إليه وبالطبع اضطر المفتش إلى الالتفاف أيضًا كي لا يُكشَف أمره. وفي هذه اللحظة، دخل الرجلان إلى مدخل وعندما التفت المفتش مرة أخرى لم يجدهما.

بمجرد أن فقد بادجر أثرَهما، بدأ في الركض وتوجه على الفور إلى المدخل الكبير لمبنى سيلستشيال بنك تشامبرز، وبدأ في البحث الحثيث عنهما. ثم بدا أنه رأى طريدتَه ومن ثَم اندفع إليهما ونحن أسرعنا الخُطى وتبعناه. وفي منتصف الردهة الطويلة رأيناه يقف عند باب مصعد ويضغط على زر الاستدعاء والعجلة تبدو عليه.

قال ثورندايك ضاحكًا في نفسه ونحن نتجاوزه دون أن يلاحظنا: «بادجر البائس! حظه المعتاد! لن يجد طريدته الآن إلا بصعوبة في هذا المبنى الضخم. قد نذهب أيضًا إلى مدخل شارع بلينهايم.»

تابعنا طريقنا عبر الممر المتعرج واقتربنا من المدخل وحينها لاحظنا رجلَين ينزلان من على الدرج المؤدي إلى الصحن.

قلت: «يا للعجب! إنهما هنا! هل نعود ونخبر بادجر؟»

تردَّد ثورندايك، ولكن بعد فوات الأوان. وصلت سيارة أجرة وكان السائق يأخذ أجرته. أسرع الشاب، وهو يشير للسائق، وأمسك مَقْبِض الباب؛ وعندما دخل صاحبه إلى الكابينة، أعطى العنوان للسائق ودخل إلى السيارة بسرعةٍ وأغلق الباب. عندما انطلقت سيارة الأجرة، سحب ثورندايك دفتر ملاحظاته وكتب رقم السيارة. استدرنا وعُدْنا أدراجنا، ولكن عندما وصلنا إلى باب المصعد، وجدنا أن المحقق اختفى. من المؤكد أنه صعِد إلى الطوابق العليا، وكأنه حلَّق مع ألحان توم بولينج الساحرة.

ثورندايك: «يجب أن نترك الأمر يا جيرفيس. سأرسل له رقم سيارة الأجرة من دون تحديد هوية المرسل، وهذا جلُّ ما يمكننا فعله، ولكني آسف على بادجر.»

بذلك نحينا الحادث جانبًا عن تفكيرنا، وعلى الأقل، فإنني أزعم بالفعل أني رأيت الرجل الأخير من هذين الغريبين. لم أكن أظن أنني سألتقي بهما مرة أخرى قريبًا تحت أي ظرف!

بعد أسبوع، زارنا صديقُنا القديم وهو المشرف ميلر من إدارة التحقيقات الجنائية. السنوات التي مضت أسست بيننا تبادل الثقة والاحترام، وكان ضابط التحقيقات المخضرم والأمين زائرًا مرحَّبًا به على الدوام.

قال ميلر وهو يقطع طرف سيجاره الذي لا يفارق يده: «أتيت للتوِّ لأخبركما عن قضية غريبة وقعت تحت أيدينا. أعلم أنكما تهتمان دائمًا بالقضايا الغريبة.»

ابتسم ثورنڈايك ابتسامةً لطيفة. سمع ثورنڈايك مثل هذه الديباجة من قبل، وعلم — كما أعلم أنا — أنه عندما يصبح ميلر واضحًا، يمكننا أن نستنتج بثقة أن حديث ميلر سطحي.

تابع المشرف: «إنها قضية من نوع خاص للغاية من طرق الاحتيال. إنها عصابة في حقيقة الأمر، ولكننا نضع أعيننا على زعيم هذه العصابة على وجه الخصوص.»

ثورنڈايك: «إذن، هل الاحتيال هو عمله المعتاد؟»

ميلر: «لا أستطيع أن أجزم بذلك. الحقيقة أننا لم نرَ الرجل حتى نتأكد منه.»

ثورنڈايك بابتسامةٍ مصطنعة: «فهمت. تقصد أنك وضعت عينك على مكانٍ ليس موجودًا فيه.»

اعترف ميلر: «في الوقت الحالي، هذه هي الحقيقة بعينها. فقدنا أثر الرجل الذي نشتبه به، ولكننا نأمل أن نمسك به مرة أخرى عاجلًا. إننا نريد الوصول إليه هو ومن معه في أقرب وقت. من المحتمل أن تكون عصابة صغيرة جدًّا ولكنهم ثعالب ماكرة؛ إنهم يتمتعون بذكاءٍ كبيرٍ مما يُبقيهم طلقاء. وسيستغرق الإمساك بهم وقتًا؛ فهم لديهم شخص يُدير هذا الأمر بقدرٍ كبير من الدهاء أكثر من المحتالين العاديين.»

سألت: «ما تخصصهم؟»

أجاب ميلر: «السطو، سرقة الحلي والسبائك، ولكنهم يركزون على الحلي، ومن السمات المميزة في جرائمهم أن المسروقات تختفي تمامًا في كل مرة. ولم نتمكَّن من تعقُّبِ أيٍّ من هذه الحلي. وهذا ما لفت انتباهنا لهم. وبعد كل سرقة، نبحث في جميع أرجاء المدينة ولكن من دون أن نجد لهم أثرًا. وكأن الأرض انشقَّت وابتلعت المسروقات. وهذا أمرٌ مثير للغرابة. إذا لم ترَ أفراد العصابة مطلقًا ولا تستطيع أن تتعقَّب المسروقات، فإلى أين تذهب؟ فأنت ليس لديك طرفُ خيط تبدأ منه.»

قلت: «ولكن أعتقد أنك أمسكتَ طرف خيط.»

«نعم، لم أحصل على معلومات كثيرة، ولكنْ بدا الأمر جديرًا بالمتابعة. سافر أحد رجالنا إلى كولشيستر مع رجل معين، وعندما عاد بعد يومين، رأى هذا الرجل نفسه على

الرصيف في كولشيستر ورآه يخرج من محطة ليفربول ستريت. في هذه الفترة، وقعت جريمة سرقة حلي في كولشيستر. ثم وقعت جريمة سرقة في ساوثامبتون، وعلى الفور ذهب رجلنا إلى ووترلو ورأى جميع القطارات التي دخلت إلى المدينة. وللمفاجأة في اليوم الثاني، ظهر رياضي كولشيستر عند الحاجز؛ وبالتالي تمكَّن رجلنا الذي طلب من سيارة أجرة أن تنتظره أن يتبعه حتى منزله وحصل على بعض المعلومات الشخصية عنه. إنه رجل يدعى شيموندس، كما أنه يعمل لدى شركة وساطة بالخارج، ولكن يبدو أن لا أحد يعرف الكثير عنه كما أنه لا يقضي وقتًا طويلًا في المكتب.

بعد ذلك، تولَّى بادجر مهمة مراقبته وتَبِعه مثل ظلِّه لمدة يوم أو يومين، ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن، فقدَ بادجر أثرَ الرجل؛ حيث تَبِعه بادجر إلى مطعم، ثم رآه من خلال الباب الزجاجي وهو يصعد إلى رجل كبير في السن يجلس إلى طاولة وتصافحَا. ثم جذب مقعدًا إلى الطاولة بنفسه؛ ومن ثَم دخل بادجر وجلس بالقرب منهما في مكان يستطيع رؤيتهما منه. خرج الرجلان معًا وتبعهما بادجر ولكنه فقدَ أثرهما في مبنى سيلستشيال بنك تشامبرز. فقدْ صَعِدا في المصعد قبل أن يتمكن من الوصول إلى الباب وكانت هذه آخرَ مرة رآهما فيها، ولكننا تأكَّدْنا من أنهما غادرَا المبنى في سيارة أجرة وأوصلتهما هذه السيارة إلى شارع جريت تيرنستايل.»

علَّق ثورندايك: «إنها فكرة ذكية أن تتبعت سيارة الأجرة.»

ميلر: «يجب أن تُبقيَ عينك على خط سير طريدتك، ولكننا وصلنا إلى الدوامة الحقيقية. فمنذ ذلك الوقت، لم تقع عينُ أحدٍ على هذين الرجلين منذ أن دخلَا إلى شارع جريت تيرنستايل وكأن الأرض انشقَّت وابتلعتهم.»

قلتُ: «عرفتَ مَن يكون الرجل الآخر، أليس كذلك؟»

«بلى، مدير المطعم يعرفه؛ إنه رجل يُدعَى لاتريل. إننا أيضًا نعرفه لأن لديه تأمينًا ضد السطو بمبلغ ضخم، وعندما يخرج من المدينة يُخطر شركتَه والشركة بدورها ترتب معنا لحراسة منشآته.»

سألت: «مَن هو لاتريل؟»

«حسنًا، إنه رجل ساذَج، وأنا أتفق مع كون هذه شخصيتَه على الأقل في التجارة. إنه يستمتع بأن يكون تاجرًا في الحلي والتُّحَف، ولكنه سيشتري أيَّ شيء؛ الأثاث، الصور، السبائك، وأيَّ شيء له مظهر جذاب. يقول التجار الذين يعرفونه إن هذه هوايته. فتروق له المشاركة في المزايدات، لكنه كان مكروهًا بين المشاركين في المزاد؛ فهم لا يمكنهم أن يتوقعوا

ما سيفعله. لا بد أن لديه مصادرَه الخاصة لتحقيق دخلِه؛ لأنه على الرغم من عدم إنفاقه الكثيرَ من المال، فهو لا يكسب الكثير من المال. إنه ليس رجلَ مبيعات. يبدو أنه يحب الشراء فقط، لكنَّ شخصيته تحمل الكثير من السمات الغريبة. والجناح الذي استأجره في فندق «ثافيس إن» أشبه بالمتحف البريطاني لو عمَّته الفوضى. فلديه أجهزة إنذار كهربائية تبدأ من عند الباب وحتى غرفة نومه كما توجد غرفةٌ منيعة في مكتبه مجهزة بقُفْلٍ يفتح بأحجية بدلًا من المفاتيح.»

علقتُ قائلًا: «لا تتوفَّر درجةٌ كبيرة من الأمان فيما يبدو.»

ميلر: «إنه كذلك، يحتوي هذا القُفْل على خمسة عشر حرفًا هجائيًّا. وبناءً على قول أحد رجالنا، هذا القُفْل يحتوي على ما يقرب من أربعين مليار تغيير. لا أحدَ سيحاول حلَّ هذه الأحجية، ولا توجد مفاتيح يُخشى فقدُها، ولكن ما يُقلقنا هو هذه الغرفة المنيعة والمهرج الكبير نفسه. الله أعلم بمقدار الأشياء القيمة داخل هذه الغرفة. ما يُخيفنا هو أن شيموندس ربما ابتكر طريقة مع الرجل الكبير من أجل أن يختفيَ عن الأنظار وينتظرَ أن ينقض على هذه الغرفة المنيعة.»

قلت: «ولكنك قلت إن لاتريل يخرج من المدينة في بعض الأحيان.»

«نعم، ولكنه دائمًا ما يُخطر شركة التأمين وقتها ويُحكم غلق الغرفة المنيعة بشريط حول مَقْبِض الباب وقُفْلٍ كبير على عِضَادة الباب. وهذه المرة لم يُخطر الشركة ولم يُغلق الباب. هناك قفل على عِضَادة الباب — متروك من المرة الأخيرة على ما أتوقع — ولم يتبقَّ سوى الأطراف المقطوعة من الشريط. ذهبت إلى الحارس كي يُتيحَ لي رؤية المكان في هذا الصباح، وبالمناسبة يا دكتور، حذوتُ حذوك؛ فدائمًا ما أحمل قطعة من قوالب الشمع في جيبي كما أحمل الآن علبةً صغيرة من الطبشور الفرنسي. هذه الأشياء مفيدة جدًّا أيضًا. وبما أنني كنتُ أحملها معي هذا الصباح، طبعت الخاتم عليها. فقد أحتاجها لاحقًا من أجل التحقق.»

أخرج من جيبه صندوقًا صغيرًا من القصدير وبحذرٍ أخرج منه شيئًا ملفوفًا في منديل ورقي. وعندما أُزيل المنديل بلطف، انكشفت كتلةٌ من الشمع المقولب وكان أحدُ جوانبه بتصميم مسطح وبه غَور.

قال ميلر وهو يعطي الشمع لثورندايك: «إنه قالب جيد للغاية، كما أنني دهنت القفل بالطبشور الفرنسي حتى لا يلتصقَ الشمع به.»

فحص زميلي كتلة الشمع باستخدام العدسة وناولها هي والعدسة لي وسأل: «هل التُقطت صورة فوتوغرافية لهذا يا ميلر؟»

أتاه الردُّ: «لا، ولكن ينبغي تصويرها قبل أن تتلف.»

ثورندايك: «بالتأكيد يجب ذلك إذا كنت تُقدِّرها. هل أتصل ببولتون لتصويرها الآن؟»

قَبِل المُراقب العرض بامتنانٍ وبالتالي أخذ ثورندايك كتلةَ الشمع الصغيرة إلى المختبر وتركها للمساعد ليتولى أمرها. عندما عاد، قال ميلر: «إنها قضية محيرة. والآن، اختفى شيموندس عن الأنظار، ولا يوجد مكان نذهب إليه أو شيءٌ نفعله سوى الانتظار حتى يحدث شيء ما، كأن تحدثَ عملية سطو أو محاولة لدخول الغرفة المنيعة.»

ثورندايك: «هل هو واضح أن الغرفة المنيعة لم تُفتح؟»

ردَّ ميلر: «لا، ليس واضحًا. وهذا جزء من المشكلة. اختفى لاتريل ومن المحتمل أنه مات. وإذا كان ميتًا، فمن المحتمل أن يكون شيموندس أصبح تحت رحمته. بالطبع لا يوجد مفتاح للغرفة المنيعة، وهذه من ميزات الأقفال التي تعمل بأحجية، ولكن لا نستبعد أن لاتريل ربما احتفظ بورقة مكتوب عليها حلُّ الأحجية وحملها معه. سيكون الاعتماد الكامل على الذاكرة ضربًا من المخاطرة. وربما يحمل مفاتيح المكتب معه. وأيُّ شخص معه المفاتيح وحلُّ الأحجية لا يصعب عليه التسلُّل إلى الغرفة في ساعات العمل. منشآت لاتريل فارغة، ولكن هناك مَن يدخل ويخرج طوال اليوم أثناء التنقُّل إلى المكاتب الأخرى. ولا يستطيع رجلُنا مراقبةَ كلِّ الداخلين. وأعتقد أنك لا تستطيع تقديمَ أيِّ اقتراح يا دكتور؟»

أجابه ثورندايك: «للأسف لا أستطيع؛ فالقضية باتت على ألسنة الكثيرين. ولا يوجد شيء يُدين شيموندس سوى اشتباه عارٍ من الأدلة. ولا يُعرف اختفاؤه إلا بمعنى غيابه عن الأنظار وهذا هو الوضع بالنسبة إلى لاتريل على الرغم من وجود عنصر غير عادي في هذه القضية. ومع ذلك، يصعب الحصول على أمر تفتيشٍ بناءً على الوقائع المعروفة في الوقت الحالي.»

ميلر: «لا، بالتأكيد لن يمنحونا الإذن كي نفتحَ الغرفة المنيعة ولن تُجديَ الإجراءات الأخرى نفعًا.»

ها هو بولتون قد ظهر وأحضر قطعة الشمع في صندوق صغير أنيق مثل الصناديق التي يستخدمها أصحاب محلات الحلي.

قال بولتون: «حصلتُ على صورتين فوتوغرافيَّتَين سالبتَين مُكبَّرتَين؛ ستكونان واضحتَين وجيدتَين. كم عدد الصور التي ينبغي أن أطبَعها للسيد ميلر؟»

قال المراقب: «يا إلهي، سيقوم أحدٌ ما بالمهمة يا سيد بولتون. وإذا احتجت إلى المزيد، فسأطلب منك.» أخذ الصندوق ووضعه في جيبه ونهض كي يغادر. «سأُخبرك يا دكتور

بمجريات القضية وربما لا تُمانع إسناد القضية لشخص آخر في هذه الفترة. فربما يحدث شيءٌ لك.»

وعد ثورندايك أن يفكر في القضية، وعندما رأينا المشرف ينزل من على الدرج، تَبِعنا بولتون إلى المعمل في الطابق العلوي، وهناك أخذ كلٌّ منا صورة من الصورتين السالبتين وفحصها بتعريضها للضوء. تعرفتُ على القُفْل من شكله — كان على شكلٍ بيضاوي مدبَّب أو شكل قارب — وقارنتُه بالخاتم الذي رأيتُه في إصبع السيد لاتريل. والآن، بعد تكبير الصورة إلى ثلاثة أضعاف، يمكنني أن أرى التفاصيل بوضوح. كان التصميم مميزًا وغريبًا ولا يهتمُّ بالاتساق. شُغلت المساحتان المثلثتان في الطرفين بتذكار «ممنتو موري» (وهو تذكار بحتمية الموت) وساعة رملية على الجوانب وكان الجزء المركزي ممتلئًا بنقش طويل بحروف رومانية كبيرة لم أفهم منها شيئًا في البداية.

سألتُ: «هل تظن أن هذه شفرة سرية؟»

ثورندايك: «لا، أعتقد أن الكلمات مرصوصة بجانب بعضها لشغل المساحة ليس إلا. هذا ما فهمته.»

أمسك الصورة السلبية في يده اليسرى وكتب بيده اليمنى بقلم رصاص على قطعة ورق الأربعة سطور التالية من الشعر الهزلي:

Eheu alas how fast the dam fugaces
Labuntur anni especially in the cases
Of poor old blokes like you and me Posthumus
Who only wait for vermes to consume us.

قلت متعجبًا: «هذه عينة وقع عليها الاختيار؛ أعتبرُها واحدة من دعابات لاتريل المرحة والقديمة، ولكن الدعابة بالكاد تستحق جهدَ النقش على الخاتم.»

ثورندايك معترفًا: «بالتأكيد إنها دعابة لطيفة، ولكن قد تنطوي على شيء أكثر مما تراه العين.»

نظر إلى النقش متأملًا وبدا أنه قرأه مرة أو مرتين. ثم استبدل الصورة السالبة في رفِّ التجفيف، والتقط الورقة، ووضعها في دفتر الملاحظات.

قلت: «لا أعرف تمامًا لماذا أحضر ميلر هذه القضية لنا أو ما الذي يريد منك التفكير فيه. في الحقيقة، لا أرى أن هناك قضيةً على الإطلاق.»

ثورندايك معترفًا: «إنها قضية غامضة للغاية. قطع ميلر شوطًا كبيرًا في التخمين، وبادجر أيضًا؛ وبالتالي قد نستنتج بسهولة أنهما وصلَا إلى نقطة محيرة. ومع ذلك، هناك شيء يجب التفكير فيه.»

«مثل ماذا؟»

«حسنًا يا جيرفيس، أنت رأيت الرجلين، ورأيت كيف كان تصرفهما؛ وسمعت قصة ميلر ورأيت خاتم السيد لاتريل. ضع كلَّ هذه المعلومات مع بعضها وستكون لديك مادة لوضع تكهنات مثيرة للاهتمام على أقل تقدير. وربما يتعدى الأمر مجرد التخمين.»

لم أتابع الموضوع لأنني أعرف أنه عندما يستخدم ثورندايك كلمة «تكهنات»، فلا شيءَ سيحفزه لتبنِّي رأيٍ معين، ولكن في وقتٍ لاحق، ومع الأخذ في الاعتبار الاهتمام الذي بدا أنه يُوليه لأبيات الشعر التي كتبها تلميذ السيد لاتريل، طبعتُ الصورة السالبة ودرستُ السطور التافهة دراسة شاملة، ولكن إذا كانت تنطوي على أيِّ معنًى خفيٍّ — وأعتقد أنه لا يوجد سببٌ يدعم أن لها معانيَ خفية — فسيظل هذا المعنى خفيًّا؛ وكان الاستنتاج الوحيد الذي توصلتُ إليه هو أن رجلًا في سنِّ لاتريل ربما لديه معرفة أفضل من كتابة هذا الهراء.

لم يترك المشرف الأمر في حالة تشويق لفترة طويلة؛ ومن ثَم زارنا بعد ثلاثة أيام. وأعاد فتح الموضوع باعتذارٍ بسيط.

قال: «إنني خجلٌ من إزعاجكما هكذا، ولكني لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير في هذه القضية. لديَّ إحساس بأنه يجب أن نتحرك. وعلى أية حال، نسختُ النقوش التي على الخاتم ولكني لم أستطع أن أفهمها، على الرغم من عدم وجود رابط بين النقوش والخاتم. يا ترى ما معنى كلمة fugaces؟ أفترض أن كلمة vermes تعني الديدان، على الرغم من أنني لا أفهم لماذا كتبها بتلك الطريقة.»

ثورندايك: «من الواضح أن الأبيات عبارة عن محاكاة لقصيدة لاتينية؛ واحدة من قصائد هوراس التي مطلعها:

Eheu fugaces, Postume, Postume, Labuntur anni.

التي تعني حرفيًّا، يا أسفَا على هذه السنين ما أسرعها.»

ميلر: «على أية حال، أي شخص يعرف هذا؛ أي شخص في منتصف العمر. لا داعيَ أن نعرضها باللاتينية إذ لا جدوى من ذلك. لنرجع إلى القضية، حصلتُ على إذنٍ بتفتيش مباني لاتريل، وليس لقلب أغراض المنشآت رأسًا على عقب، الإذن لمجرد البحث كما تعرف.

أجريتُ مكالمة وأنا في طريقي إلى هنا كي أُخبرَ الحارس بأنني سآتي لاحقًا. فكَّرتُ أنه ربما تودُّ المجيءَ معي. أتمنى أن تأتيَ معي يا دكتور. فأنت تتمتع بموهبة ملاحظة الأشياء التي قد يغفل عنها الآخرون.»

رمق ميلر ثورندايك نظرةَ أسًى وبينما هو يفكر في العرض، قال: «لقد ذكر الحارس أحداثًا غريبة أخرى. يبدو أنه لا ينفك عن مراقبة عدادات الكهرباء في المبنى ولاحظ تسريبًا في التيار بمنزل السيد لاتريل، ولكنه تسريبٌ بسيط؛ حوالي ثلاثين واط في الساعة، ولكنه لا يستطيع الاعتماد عليه بأيِّ طريقة. وأخذ يمرُّ في المبنى ليرى هل هناك مصابيح متروكة قيد التشغيل في أيِّ غرفة من غُرَف المبنى أم لا، ولكنَّ جميع المفاتيح قيد إيقاف التشغيل في كل مكان، ولا يمكن أن يكون هذا بسبب انقطاعٍ للتيار الكهربائي. الأمر مضحك، أليس كذلك؟»

بالتأكيد كان الأمرُ غريبًا، ولكن لم يبدُ لي أنَّ هناك ما يفسِّر تعبيرَ الاهتمام الذي ظهر فجأة على وجه ثورندايك، ولكن من الواضح أنه ذو أهمية خاصة لديه حيث إنه طرح سؤالًا: «متى ستُجري التحريات؟»

أجابه ميلر وسأل متودِّدًا: «أنا ذاهب إلى هناك الآن، فهل ستتمكن من المجيء معي؟»

وقف ثورندايك وقال: «حسنًا، لنذهب معًا الآن. يمكنك أنت أيضًا أن تأتيَ معنا يا جيرفيس إذا لم تكن مشغولًا لمدة ساعة.»

وافقتُ على الفور لأن زميلي لم يستطِع أن يخفي اهتمامه بالتفتيش ما أوحى لي أن ثمة مسألةً ما تشغل تفكيره؛ ومن ثَم انطلقنا من فورنا ومررنا بميتري كورت وفيتر لين قاصدين مسكن التاجر المفقود، ذلك المسكن العتيق الطراز الواقع على مقربة من نهاية فندق «ثافيس إن».

قال ميلر حينما أتى الحارس بالمفاتيح: «أتيت إلى هنا مرة وأعتقد أنه من الأفضل أن نبدأ بمكان البحث المعتاد وهو المكاتب. يمكننا تفتيشُ الطوابق وغُرَف المعيشة فيما بعد.»

ومن ثَم دخلنا إلى المكتب الخارجي، وحيث إنه كان أشبهَ بغرفة انتظار، مررنا إلى المكتب الخاص وعلى ما يبدو أنه كان يُستخدم باعتباره غرفةَ جلوس أو حجرة دراسة. يتألف أثاثُ المكتب من مقعد مريح ومجموعة من أرفف الكتب وخزانة كتب أنيقة، وفي الجدار الأخير كان الباب الحديد الضخم للغرفة المنيعة. ومن هنا، وبما أن هذا المكان هو محطُّ اهتمامنا الرئيسي، فقد بذلنا ما بوسعنا وشرَح المراقب تفاصيل هذا المكان.

قال: «إنها فكرة جيدة حقًّا، هذا القفل المكون من الحروف. لا يوجد ثقب لمفتاح، ولا مفاتيح يُخشى فقدانها. انظروا إليه وخمِّنوا كلمة السر، كأنها مغارة علي بابا. يمكن أن تقضيَ عمرك لحلِّ اللغز من دون أيِّ تقدُّم.»

كان القُفْل الغامض مثبتًا في عِضَادة الباب الحديدي الصلب، وعلى الرغم من وجود فتحة بها صفٌّ مكوَّن من خمسة عشر حرف A، إلا أنه بدا وكأنه يبتسم متحدِّيًا السارق المحتمل. وضعتُ إصبعي على الحواف المصقولة لحرفٍ أو حرفين ولففتُ الأقراص، ولاحظتُ مدى سهولتها وسلاستها في اللف.

قال ميلر: «لا فائدة من تحسُّس تلك الحروف. سأُلقي نظرةً على دفتر حساباته لأعرف مَن هم عملاؤه؛ فحافظة الكتب غيرُ مقفلة، وقد تأكدت من ذلك في المرة الأخيرة التي حاولتُ فيها فتْحَها. من الأفضل لنا أن نترك هذا على الحال التي وجدناه عليها.»

أعاد الحروف التي حركتُها وذهب لاستكشاف حافظة الكتب؛ وبما أن القُفْل المكوَّن من الحروف بدا أنه لا يمثل شيئًا سوى لغز لا حلَّ له، تبعت ميلر وتركت ثورندايك يُمعن النظر بجدية في صفِّ الحروف التي لا معنى لها.

نظر إليه المراقب مرة أخرى بابتسامة لطيفة.

قال بصوت خفيض مبتسمًا: «سيحاول الدكتور حلَّ لغز الحروف. حسنًا إذن. فلا يوجد سوى أربعين مليار تغيير وهو لا يزال في مرحلة الشباب.»

بعد هذا التعليق المشجع، فتح الباب الزجاجي لحافظة الكتب ووصل إلى دفتر الحسابات ووضعه على ناحيةٍ منحدرة من المكتب.

قال ميلر وهو يفتح دفتر الحسابات على الفهرس: «رغم أن الاحتمال ضعيف، فقد يتمكن أحدُ هؤلاء العملاء من إعطائنا دليلًا عن الأماكن التي يمكن أن نبحث فيها عن السيد لاتريل، ومن المفيد معرفة مجال أعماله.»

مرَّر إصبعه على قائمة الأسماء وانتقل إلى حساب أحد العملاء عندما أذهلتْنا نقرةٌ عالية آتية من اتجاه الغرفة المنيعة. استدار كلانا ورأينا ثورندايك يُمسك مَقْبِض باب الغرفة المنيعة وأصابتنا دهشةٌ شديدة عندما رأينا أن الباب أصبح مفتوحًا بعضَ الشيء.

تعجَّب ميلر وهو يُغلق دفتر الحسابات وبدأ يتقدم إلى الأمام: «يا إلهي! لقد فتحه!» مشى نحو الباب ورمق نظرةً متلهفة على مؤشر القفل وانطلق ضاحكًا. قال متعجبًا: «اللعنة! ظلَّ الباب مفتوحًا طوال الوقت! لقد ظنَّ أن جميعنا لن يفكر في سحب المقبض! ولكن هذا لا يختلف أبدًا عن تفكير العجوز لاتريل في أن تكون هناك إجابة حمقاء كهذه لهذه الأحجية المباركة!»

نظرتُ إلى المؤشر واندهشتُ كثيرًا عندما لاحظتُ صفَّ حروف A الخمسة عشر الذي بدا واضحًا أنه يُشكِّل حلَّ لغز المفتاح. ربما كانت مزحة مسلية للغاية من السيد لاتريل، ولكن لم يبدُ القفل آمنًا بما يكفي. رمقنا ثورندايك بنظرة غامضة وهو لا يزال ممسكًا بمقبض الباب وممسكًا بالباب مفتوحًا بمقدار نصف بوصة.

قال: «هناك شيء يدفع الباب، هل أفتحه؟»

ردَّ ميلر: «ولنلقِ نظرة بالداخل أيضًا.» بناءً على ذلك، أطلق ثورندايك مَقْبِض الباب وتنحَّى جانبًا بسرعة. فتح الباب ببطء وسقطت جثة رجل في الغرفة وانقلبت على ظهرها.

لهث ميلر، وأسرع بالرجوع إلى الوراء وهو يحدق مرعوبًا ومذهولًا من المشهد الكئيب: «لطفًا يا رب! هذا ليس لاتريل.» ثم بدأ فجأة في التقدم إلى الأمام وتخطَّى الجثة وقال متعجبًا: «ويحي، إنه شيموندس. ألهذا السبب اختفى هو أيضًا؟ أتساءل كيف أصبح حال لاتريل.»

قال ثورندايك: «يوجد شخص آخر في الغرفة المنيعة.» نظرتُ من خلال المدخل ورأيتُ إضاءةً خافتة بدت أنها تأتي من تجويفٍ خفيٍّ ومنه رأيت قدمَين تظهران من الزاوية. انطلق ميلر في لحظة إلى المكان وتبعتُه. صُمِّمت الغرفة المنيعة على شكل حرف L، وكان الجانب الطويل منها مكوَّنًا من ممرٍّ ضيق بزوايا قائمة ويؤدي إلى الغرفة الرئيسة. وفي نهاية هذه الغرفة كان يوجد مصباح كهربائي صغير مضاء. كشف ضوءُ المصباح جثةَ رجل كبير مطروحة على أرض الممر. تعرَّفتُ على الشخص فورًا على الرغم من إعتام الضوء والتشوه الناجم عن جُرحٍ شوَّه جبهته.

تفوَّه ميلر بنبرةٍ مرتبكةٍ بسبب الصدمة التي انتابَتْه بفعل الاكتشاف المرعب من ناحيةٍ وبشاعة المنظر من ناحيةٍ أخرى؛ قال: «من الأفضل أن نُخرجَه من هنا ثم نقوم بتفتيش المكان، فهذه لم تكن مجرد عملية سطو. سوف نكشف حقيقة ما جرى.»

رفع جثة لاتريل بمساعدة مني وحملناها معًا ووضعناها على أرضية الغرفة في الطرف البعيد وسحبنا إليه جثة شيموندس أيضًا.

بعد إجراءِ فحصٍ بسيط للجثتَين، قلت: «لا يوجد لغزٌ حول كيفية قتلهما. من الواضح أن شيموندس أطلق رصاصة على الرجل الكبير من الخلف بمسدس بالقرب من مؤخرة الرأس؛ فجميع الشعر حول جُرحِ دخول الرصاصة وخروجها من الجبهة تعرَّض للسفع.»

وافقني ميلر: «نعم، هذا واضح تمامًا، ولكن اللغز هو لماذا لم يُخرج شيموندس نفسه من الغرفة. لا بد أنه كان يعرف أن الباب مفتوح، ولكن بدلًا من لفِّ المقبض، لا بد أنه وقف مثل المجنون يضرب الباب بقبضتَيه. انظر إلى يديه.»

ظلَّ ثورندايك يفحص القُفْل فحصًا دقيقًا من الداخل والخارج، قال: «اللغز الآخر هو كيف انغلق الباب. هذه مسألة غريبة للغاية.»

ميلر: «أوافق تمامًا، ولكن هذا ليس شيئًا ملحًّا الآن. فلا يزال هناك المزيد من الأمور الغريبة بالداخل. ربما يوجد جميع المسروقات من عملية سطو كولشيستر. يبدو أن لاتريل كان متورطًا فيها.»

دخل الغرفة المنيعة مرة أخرى على مضض وتبعتُه أنا وثورندايك. وعلى مقربة من زاوية الممر، توقَّف والتقط مسدسًا أوتوماتيكيًّا وكتابًا جلديًّا صغيرًا فتَحه ونظر فيه على ضوء المصباح. وفي أول وهلة تلفَّظ بكلمات متعجبًا وأغلق الكتاب على الفور.

وجَّه الكتاب إلينا وقال: «هل تعرفانِ ما هذا؟ إنه يضمُّ قائمةَ الأسماء وسجلَّ العناوين ودفتر أفراد العصابة. لقد وقعوا في أيدينا؛ وبدأت أُدرك أن لاتريل العجوز هو رئيس العصابة الذي أبحث عنه منذ وقت طويل. مرِّرْ عينَيك سريعًا على هذه الأرفف. هذه هي المسروقات كلها، لا ينقص منها شيء. يمكنني التعرُّف على المسروقات من القوائم التي أعددتُها.»

وقف ينظر شامتًا إلى الأرفف المحمَّلة بالحلي والسبائك والأشياء الثمينة. ثم برقت عيناه برؤية درج في الجدار الأخير أسفل المصباح مباشرة؛ درجٍ حديدي بمقبض كبير غير متناسب مع حجم الدرج وعليه عبارة يمكن قراءتُها بسهولة وهي «أحجار غير مركَّبة».

قال ميلر: «سنُلقي نظرة على هذا المخزون من الأحجار الكريمة غير المركبة.» وبذلك انطلق مسرعًا إلى الدرج وأمسك المقبض وسحبه بقوة. «شيء ظريف، إنه غير مُقفل، ولكن يبدو أن هناك شيئًا يسحبه مرة أخرى.»

ثبَّت قدمه على الجدار وأمسك المقبض مرة أخرى. قال ثورندايك: «انتظر يا ميلر.» ولكن بينما هو يتحدث، سحب المشرف الدرج بقوة ووجد فيه قدمَين؛ سمعنا نقرةً ذات صوت عالٍ، وبعد لحظات انغلق باب الغرفة المنيعة بقوة.

تعجَّب ميلر: «يا إلهي! ما هذا؟» ترك الدرج يعود إلى وضعه ومن ثَم انزلق على الفور بنقرة أخرى.

ردَّ ثورندايك: «لقد انغلق الباب. ترتيب بالغ الدهاء؛ مثل الآلية التي تعمل بها ساعات مكرر الدقائق. ينغلق الباب بسحب الدرج حتى النهاية وإطلاق الزنبرك. غاية الدهاء.»

نظر ميلر بوجه شاحب إلى زميلي وقال: «ولكننا حُبسنا بالداخل.»

يجب أن أعترف بأنني كنت عصبيًّا قليلًا وقلت: «لقد نسيتَ أن القفل تركناه على حاله الأول.»

انطلق المشرف في ضحك شبه هيستيري وقال: «يا لَغبائي! وما أسوأ شيموندس. ما زال بإمكاننا الخروج من هنا ...» ومن هنا انطلق بطول الممر وسمعتُه يتلمَّس طريقه إلى الباب، وبعدها سمعتُ لفة المقبض. وفجأة، غيَّم صمت مُطبق على الحجرة التي تُشبه القبر بصرخة ذعر.

«لن يتحرك الباب! لقد انغلق بسرعة!»

هُرعتُ في هذا الممر بقلبٍ يعتريه الخوف. حتى وأنا أجري، بزغ أمام عيني المنظر المروع للجثة التي جُرحت يداها والتي سقطت أمامنا عندما فتحنا باب هذا الفخِّ المروع. لقد علِق كما علقنا. يا ترى متى قد يأتي شخصٌ غريب ليكتشف جثثنا.

في الشفق القاتم بالقرب من الباب، وجدتُ ميلر يُمسك بالمقبض ويهزُّه كالمجنون. تبددت سيطرتُه على نفسه بالكامل. ولم يكن حالي أفضلَ منه. اندفعتُ بكامل قوتي نحو الباب وبي أملٌ ضعيف أن القُفْل ليس مغلقًا، ولكن الباب الحديدي الضخم لم يتحرك وكأنه جدارٌ مبنيٌّ من الحجارة. ومع ذلك، كنت أستجمع قواي لمحاولة ثانية عندما سمعتُ صوت ثورندايك على مقربة مني من الخلف.

«لا فائدة من ذلك يا جيرفيس. انغلق الباب، لكن ليس هناك ما يُقلق.»

وبينما هو يتحدَّث، ظهرت طاقة نور فجأةً من مصباح كهربائي صغير يحمله في جيبه دائمًا. وفي وسط دائرة الضوء، أصبح واضحًا أن هناك مؤشرًا آخر لأحجية القفل في عِضَادة الباب من الداخل. كان مظهره مطمئنًا من دون شيء، خاصة مع انبعاث صوت هادئ من ثورندايك، ومن الواضح أن الأمر بدا كذلك لميلر، ويمكن ملاحظة ذلك في نبرة صوته الطبيعية نوعًا ما:

«ولكن يبدو أنه لا يزال مفتوحًا. توجد الحروف AAAAAA نفسها التي رأيناها عندما دخلنا.»

الأمر صحيح تمامًا. فتحةُ قفلِ الحروف لا تزال تعرض مجموعة من حروف الـ A الخمسة عشر، تمامًا مثلما رأينا عندما كان الباب مفتوحًا. هل يمكن أن يكون هذا القُفْل مجردَ خدعة وأنه كانت هناك وسائل أخرى لفتح الباب؟ كنت على وشك طرح هذا السؤال على ثورندايك عندما وضع المصباح في يدي ونحَّاني جانبًا برفق وصعِد إلى المؤشر.

قال: «ثبِّت هذا الضوء يا جيرفيس.» ومن ثَم بدأ يتحسس الحواف المصقولة لأقراص الحروف، وبدأ — كما لاحظت — من جهة اليمين أو الجهة المعاكسة في الفتحة وانتهى إلى الجهة اليسرى. أخذنا نراقبه أنا وميلر باهتمام وفضول بالغَين وننظر لنرى بعض

الكلمات المكونة من خمسة عشر حرفًا في الفتحة. وبينما أنا في دهشة وحيرة، رأيت إصبع زميلي يحول صفَّ الحروف A إلى سلسلة متتالية من حرف M ولكن تبعها على الفور حرف L وبعض حروف X. عندما اكتمل الصف، بدا وكأنه تاريخ بعيد يعود لما قبل الطوفان مكتوب بالأرقام اللاتينية.

قال ثورندايك: «جرِّب فتح المَقْبِض الآن يا ميلر.»

لم يتوانَ المشرف وأمسك المقبض ولفَّه ودفع الباب بقوة. وعلى الفور انقشع خيطُ نورٍ من حافة الباب؛ وسمعنا صوت نقرة حادة وانفتح الباب جهة اليمين. اندفعنا، على الأقل أنا والمراقب، إلى الخارج على الفور. لهثتْ ألسنتُنا بالحمد لأننا وجدنا أنفسنا أحياء بالخارج، ولكن بمجرد خروجنا، رأينا رجلًا ذا وجه أبيض ومروع ينحني فوق الجثتين في الطرف الآخر من الغرفة. ظهورنا كان مفاجأةً وغير متوقع تمامًا — وذلك بسبب أن الصلابة الضخمة لباب الغرفة المنيعة جعلت حركتَنا غير مسموعة بالخارج — ووقف الرجل لمدة دقيقة أو دقيقتين من دون حَراك وهو يحدق فينا بعينَين واسعتين فاغرًا فاه. ثم قفز فجأةً واندفع نحو الباب وفتحه وانطلق بالخارج وكان ميلر في عقبه.

لم يبعد كثيرًا. كما أنني تبعتُ المراقب ورأيت رجلًا يحاول التملص من حضن رجل طويل على الرصيف وبمساعدة ميلر تمكن الرجلان من وضع الأصفاد في معصمَي الرجل الهارب ثم غادرَا ومعهما الأسير بحثًا عن سيارة أجرة.

وفي طريقنا إلى الغرفة مرة أخرى، قال ميلر: «أتوقع أن يكون هذا واحدًا منهم.» وبمجرد أن وقعت عينُه على باب الغرفة المنيعة، أخذ يمسح وجهه بمنديله. قال: «النظر إلى هذا الباب يُصيبني بالذعر، يا إلهي ما أبشع هذا الرعب! لم أتعرض لمثل هذا الذعر في حياتي. عندما سمعتُ الباب يُغلق، تذكَّرتُ كيف تعثَّر هذا الشيطان المسكين شيموندس — قاتله الله!» مسح ذقنه مرة أخرى وفي طريقه إلى باب الغرفة المنيعة، سأل: «على أية حال، ما هي كلمة السر بعد كل هذا؟» صعِد إلى المؤشر وبعد نظرة سريعة، استدار ونظر إليَّ متفاجئًا وقال متعجبًا: «يا لَدهشتي إذا لم تكن الحروف AAAA على حالها! ولكن الدكتور غيَّرها، أليس كذلك؟»

في هذه اللحظة، ظهر ثورندايك من الغرفة المنيعة وبدا أنه كان يُجري بعض الاستكشافات، واستدار إليه المراقبُ يطلب تفسيرًا.

قال: «إنه جهاز عبقري. في الحقيقة، تعتبر الغرفة المنيعة بكاملها مثالًا حيًّا على البراعة، هناك بعض السقطات ولكن الغرفة تمتاز بفاعلية أمان مثالية، وهذا ما تشهد

عليه جثةُ السيد شيموندس. مجموعة المفاتيح عبارة عن عدد تعبِّر عنه الأرقام اللاتينية، ولكن القفل يحتوي على آلية ارتداد تعمل بمجرد أن يُفتح الباب. هذه هي الطريقة التي عَلِق بها شيموندس. لا شك أنه تعمَّد تجنُّبَ مشاهدة لاتريل وهو يعيِّن كلمة السر للقفل — أو ربما لم يدعْه لاتريل يشاهده — ولكن عندما دخل مع ضحيته المقصودة، نظر إلى المؤشر ورأى صفَّ الحروف A وبالتالي افترض أن يكون هو المفتاح. وعندما أراد الخروج، بالطبع لم يفتح القفل.»

قلت: «من الغريب أنه لم يجرِّب بعض الكلمات الأخرى.»

ثورندايك: «ربما جرَّب، ولكن عندما أخفق، ربما أعاده إلى الحروف A، وهو ما رأيناه عندما انفتح الباب. هذه هي الآلية التي يعمل بها القفل.»

أغلق الباب وراقبتُه أنا والمراقب عن كثَب ثم أدار الإطارات المصقولة لأقراص الحروف حتى أظهر المؤشرُ صفًّا من الأرقام وهو MMMMMMMCCCLXXXV. أمسك المقبض وأداره ودفع الباب دفعًا خفيفًا وعندها بدأ الباب يفتح، ولكن بمجرد أن بدأ الباب يتحرك من مكانه، سمعنا صوتَ نقرة عالية وعادت جميعُ حروف المؤشر إلى الحرف A.

ميلر: «يا لها من مفاجأة! لا بد أنك مررت بساعات مروعة في هذا السجن البائس يا شيموندس. خذني إلى الداخل أنا أيضًا. رأيت الحروف A تلك والباب مفتوح، وظننت أنني عرفت كلَّ شيء عنه، ولكن ما لا أعرفه يا دكتور هو كيف تمكَّنت من حل اللغز. لا أستطيع أن أفهم كيف حللته. هل لي أن أسأل كيف حللت اللغز؟»

ثورندايك: «بالتأكيد، ولكن من الأفضل أن نؤجل الشرح. لديك جثتان يجب رفعهما وبعض الأمور الأخرى، كما أنه يجب أن نعود إلى بيوتنا. سأكتب حلَّ مفتاح القفل إذا كنت تريده، ثم لا بد أن تأتيَ لرؤيتنا كي نعلمَ أيُّ حظٍّ حالفك.»

كتب الأرقام على قصاصة ورق ثم غادرنا بعدما سلَّمها للمراقب.

في طريقنا إلى المنزل، قلت: «أجد نفسي واقعًا في الحيرة نفسها التي يقع فيها ميلر. بمعنى أنني لا أستطيع أن أفهم كيف حللتَ اللغز. من الواضح أنك لم تتمكن من فكِّ كلمة سرِّ القفل فحسب — من نقش الخاتم حسب اعتقادي — بل إنك عرفت أن لاتريل هو رئيس العصابة. لا أفهم على الأقل كيف توصلتَ إلى هذا.»

قال: «على الرغم من ذلك يا جيرفيس، كانت قضيةً غايةً في البساطة. وإذا راجعتها وجمَّعت عناصر الأدلة، فسترى أننا حصلنا على جميع الوقائع بالفعل. المشكلة لم تكن إلا في إعادة تنسيقها واستخلاص مدلولاتها. رأينا الرجل بصحبة رجلٍ آخر ومن الواضح أنه

من معارفه الحميمة. وُضع الرجلان تحت مراقبة محقق وبات واضحًا أنهما اكتشفَا أمره ومن ثَم تخلصَا منه بهدوء تام. بعد ذلك، علمنا من ميلر أن واحدًا من هذين الرجلين من المحتمل أن يكون عضوًا في مجموعة لصوص محترفين وأن الآخر رجلٌ ثريٌّ؛ إذ كان تاجرًا غريبَ الأطوار ويتاجر في العديد من الأشياء ولديه غرفة منيعة مغلقة بقفل يُفتح بأحجية. إنني مندهش من أن ميلر الذي عادةً ما يكون حادَّ الذكاء لم يسترعِ انتباهَه مدى ملاءمة لاتريل لدور رئيس العصابة الذي يبحث عنه. أصبح لدينا تاجرٌ يشتري ويبيع جميع الأشياء الغريبة القيِّمة، ولا بد أنه كان لديه سُبُل لا حصر لها للتخلص من الأحجار والسبائك والفضة، ويستخدم أيضًا قفلًا يفتح بأحجية. الآن، مَن يستخدم هذا القفل؟ بالتأكيد لا أحدَ يمكنه استخدام المفتاح بسهولة، ولكن بالنسبة إلى رئيس عصابة من اللصوص، قد يكون هذا القفل وسيلةَ أمان قيِّمة؛ لأن المفاتيح قد تُسرق منه في أية لحظة ويهرب بها اللص. بل على العكس من ذلك، لا يمكن سرقة كلمات سرية منه وربما كان امتلاكه لهذه الكلمات أمانًا له من القتل؛ وبالتالي ترى أن هذه الاحتمالات البسيطة تُشير إلى أن لاتريل هو رئيس العصابة.

والآن فكِّر في مسألة القفل. بدايةً رأينا أن لاتريل يرتدي في يده اليسرى خاتمًا كبيرًا وأنه يحمل عدسة مكبرة من نوع كودينجتون في سلسلة الساعة ومصباحًا كهربائيًّا صغيرًا في جيبه. هذه الدلائل تُخبرنا بالقليل جدًّا، ولكن عندما أخبرنا ميلر عن القفل وأرانا قطعة شمع منسوخة بالضغط على الخاتم وعندما رأينا أن هذا الخاتم يحمل نقشًا طويلًا بكتابة صغيرة الحجم، من هنا بدأت تتجلى العلاقة. وكما أشار ميلر وهو محقٌّ فيما أشار إليه، فلا يمكن لرجل — خاصةً إذا كان كبيرًا في السن — أن يثق في ذاكرته كي يتذكَّرَ شفرة المفتاح. سيحمل معه مذكرة يمكن أن يرجع إليها إذا خانته ذاكرتُه، ولكن ستُكتب هذه المذكرة بطريقة يصعب على أيِّ أحد قراءتُها، وإلا فلن تكون هناك جدوى من سرية القفل وأمانه. ربما كان المفتاح نوعًا من الشفرات السرية؛ وعندما رأينا هذا النقش وفكَّرنا فيه بالربط مع العدسة والمصباح، بدا أنه من المحتمل أن تكون كلمة السر موجودة في النقش؛ وزاد هذا الاحتمال عندما رأينا هذا الشعر الهزلي الذي لا معنى له ويتألف منه النقش. وكان الاقتراح أن هذه الأبيات نُقشت لغرض آخر مختلف عن معناها الحقيقي. وعليه، أوليت النقش تفكيرًا متأنِّيًا للغاية.

والآن، علمنا من ميلر أن أحجية القفل مكونة من خمسة عشر حرفًا. وربما يكون المفتاح كلمة واحدة طويلة مثل superlativeness أو عددًا من الكلمات القصيرة أو صيغة

كيميائية أو غير ذلك. أو ربما تتألف من شفرة سرية. لم أسمع مطلقًا عن استخدام الشفرات السرية في السجلات أو الرسائل السرية، ولكن كثيرًا ما جال بتفكيري لأنها يمكن أن تكون مناسبة للغاية. وكانت هذه حالة ملائمة بدرجة استثنائية.»

قلت: «شفرة سرية، أليست هذه الشفرات تُستخدم مع الميداليات؟»

أجابني بقوله: «غالبًا ما تُستخدم على الميداليات. في الواقع، الشفرة السرية عبارة عن نقش بعض الحروف التي يتألف منها تاريخ مرتبط بموضوع النقش. وغالبًا ما تُنقش حروف التاريخ بحجم أكبر من الحروف الأخرى تسهيلًا لقراءتها، ولكن بالطبع هذا ليس جوهريًّا. فالمبدأ في الشفرات السرية كالتالي: الحروف في الأبجدية الرومانية تنقسم إلى نوعين؛ الأول هو الحروف العادية البسيطة ولا شيء غير ذلك، والنوع الآخر يُستخدم للتعبير عن الأرقام والحروف معًا. حروف الأرقام هي M = ألف وD = خمسمائة وC = مائة وL = خمسين وX = عشرة وV = خمسة وI = واحد. وفي حلِّ الشفرة السرية، تأخذ جميع حروف الأرقام وتجمعها دون اعتداد بترتيبها. ومجموع الأعداد يعطيك التاريخ.

حسنًا، كما قلت، ما خمنته أنه قد يكون النقش له طبيعة الشفرة السرية، ولكن بما أن القفل يحتوي على حروف وليس أرقامًا، فالعدد — إذا كان موجودًا — لا بد أنه تم التعبير عنه بالحروف الرومانية ومن المفترض أنها تشكِّل عددًا من خمسة عشر حرفًا؛ ومن ثَم بات من السهل للغاية أن أضع فرضيتي تحت الاختبار، بدأتُ بالتعامُل مع النقش على أنه شفرة سرية؛ وكانت المفاجأة! فقد أدَّت إلى عدد مكوَّن من خمسة عشر حرفًا؛ وبالتالي أصبحت النتيجة شبه مؤكدة، ولا ينقصها سوى التجربة العملية.»

قلت: «لنرَ كيف حللت الشفرة.» وما إن دخلنا الغرفة وأغلقنا الباب، اشتريت كتلة كبيرة من ورق الملاحظات وقلم رصاص ووضعتهما على الطاولة وأحضرت مقعدين.

قلت: «لنبدأ الآن.»

قال: «حسنًا، سنبدأ بكتابة النقش بطريقة شفرة سرية مناسبة مع مضاعفة حجم الحروف العددية والتعامل مع الحروف U على أنها V والحروف W على أنها V مضاعفة حسب القواعد.»

ومن هنا كتب النقش بالحروف الرومانية الكبيرة بالشكل التالي:

eheV aLas hoVV fast the DaM fVgaCes LabVntVr annI espeCIaLLy
In the Cases of poor oLD bLokes LIke yoV anD Me posthVMVs
VVho onLy VVaIt for VerMes to ConsVMe Vs.

[**ملاحظة المؤلف**: استُبدلت الحروف الكبيرة المكتوبة بحجم صغير في النص الأصلي بحروف صغيرة.]

قال: «لنرسم عمودًا بكل سطر ونجمعه، ليصبح بالشكل التالي:

(1) V = 5, L = 50, VV = 10, D = 500, M = 1000, V = 5, C = 100—Total 1670.

(2) L = 50, V = 5, V = 5, I = 1, C = 100, I = 1, L = 50, L = 50, I = 1, C = 100 —Total 363.

(3) L = 50, D = 500, L = 50, L = 50, I = 1, V = 5, D = 500, M = 1000, V = 5, M = 1000, V = 5—Total 3166.

(4) VV = 10, L = 50, VV = 10, I = 1, V = 5, M = 1000, C = 100, V = 5, M = 1000, V = 5—Total 2186.»

أردف: «الآن، نأخذ المجاميع الأربعة ونجمعها مع بعضها، لتصبح:

1670 + 363 + 3166 + 2186 = 7385

وبذلك يكون الناتج الإجمالي سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسة وثمانين، ويمكن التعبير عن هذا الرقم بالحروف الرومانية بالشكل التالي: MMMMMMMCCCLXXXV. وبذلك أصبح لدينا عددٌ مكوَّن من خمسة عشر حرفًا، وهو العدد المطابق لعدد المساحات في مؤشر القفل الأحجية؛ وأكرر أن هذه الملاحظة اللافتة للنظر بالإضافة إلى، أو بالأحرى تجميعها إلى جانب الاحتمالات الأخرى، أكَّدت عمليًّا أن هذه الحروف هي حلُّ الشفرة؛ وبالتالي لم يتبقَّ سوى اختبارها بتجربة عملية.»

قلت: «على أية حال، لاحظتُ أنك تنبهت فجأة عندما ذكر ميلر عداد الكهرباء.»

ردَّ قائلًا: «هذا طبيعي، بدا أنه لا بد من وجود مصباح كهربائي صغير مضاء في مكان ما بالمبنى، والمكان الوحيد الذي لم يخضع للتفتيش هو الغرفة المنيعة، ولكن إذا كان هناك مصباح مضاء، فمن المؤكد أن شخصًا ما دخل إلى الغرفة المنيعة. وبما أن الشخص الوحيد المعروف أن بإمكانه الدخولَ إليها مفقودٌ، فبدا مُرجحًا أن يكون موجودًا في الغرفة، ولكن إذا كان في الغرفة، فمن المؤكد أنه ميت، وهناك احتمال كبير أن شخصًا آخر دخل معه الغرفة لأن صاحبه مفقود أيضًا واختفى كلاهما في الوقت نفسه، ولكن يجب أن أعترف بأن الدرج المزود بزنبرك كان بعيدًا عن توقعاتي، على الرغم أنني شككت في أمره بمجرد أن رأيت ميلر يسحبه. كان لاتريل نذلًا كبيرًا وذكيًّا؛ ربما استحق مصيرًا أفضل، ولكني أتوقع أن يوصل موته العصابة إلى أيدي الشرطة.»

وقعت الأحداث بالترتيب الذي لخصه ثورندايك. وبفضل دفتر الحسابات الصغير للسيد لاتريل بالإضافة إلى اعتراف الجاسوس الذي قُبض عليه في المبنى، تمكَّنتِ الشرطة من الانقضاض على العصابة المضطربة قبل أن تتسلَّلَ ذرةُ شكٍّ إلى قلوبهم؛ ومن ثَم باتوا قابعين في غُرَف منيعة من نوع آخر تمتاز بأبواب مقفلة بأجهزة فعالة مثل أحجية قفل السيد لاتريل، وإن كانت أقلَّ براعةً منه.

الفصل الثاني

# السترة الخضراء المزركشة

عادةً ما تأخذ زيارات صديقنا القديم السيد برودريب الشكلَ الظاهري لزيارة ودية، حتى عندما تتعلق بالعمل كليًّا، ولكن في هذه المرة، تخلَّى في زيارته عن الطابع الودي. دخل المحامي الكبير إلى مسكننا حاملًا حقيبةَ ملابس صغيرة (لاحظتُ أن الأحرف الأولى المطبوعة على الحقيبة، وهي R.M أثارت الفضولَ لدى ثورندايك على الفور إذ بدا واضحًا أنها لا تخصُّ السيد برودريب). وضع السيد برودريب الحقيبة على الطاولة، وصافح ثورندايك وأصبح واضحًا أنها زيارة عمل.

برودريب بطريقة مباشرة غير معتادة منه: «ها قد أتيت يا ثورندايك أطلب مشورتك في مسألة تُؤرقني نوعًا ما. هل تعرف ريجينالد ميريل؟»

ثورندايك: «معرفة طفيفة، أقابله من وقت لآخر في المحكمة، وبالطبع أعرف أنه مؤلفُ كتابٍ مهمٍّ عن مناجم حجر الصوان في حقبة ما قبل التاريخ.»

برودريب: «حسنًا، لقد اختفى الرجل. إنه مفقود. لا أحب استخدام هذا التعبير، ولكن عندما يغيب رجلٌ مسئول من الأماكن التي اعتاد الترددَ عليها، في وقت لا يُتوقَّع فيه غيابُه، ولا يقدِّم أيَّ تنويه عن غيابه، فأعتقد أنه يمكن أن نعتبرَه اختفى بالمعنى المنصوص عليه في القانون. وغيابه يستدعي إجراء تحريات فعالة.»

ثورندايك موافقًا: «بلا شك، وأعتقد أنك الشخص الذي يقع على عاتقه هذا الواجب.»

«وأنا كذلك؛ فأنا محاميه ومنفذ وصيته — على الأقل أعتقد ذلك. ولا أعرف أحدًا من أقرب الناس إليه سوى ابن أخته ووريثه إثيلبرت كريك، لكن يبدو أن كريك اختفى هو الآخر في الوقت الذي اختفى فيه ميريل تقريبًا. إنها قضيةٌ غير عادية.»

«على حدِّ قولك، فأنت تعتقد أنك منفِّذ وصية ميريل. هل اطَّلعت على تلك الوصية؟»

«نعم اطلعتُ عليها. أنا أحفظها في خزانتي، ولكن أخبرني ميريل أنه سيكتب وصية أخرى، وربما يكون كتبَها، ولكن إذا كان قد كتبَها، فغالبًا سيُعيِّنني منفذًا لوصيته؛ وبالتالي سأتولَّى هذا التكليف وأتصرَّف بناءً على ذلك.»

سأل ثورندايك: «هل من أسباب خاصة لكتابة وصية جديدة؟»

ردَّ برودريب: «نعم، حقق الرجل ثروة كبيرة، وكانت صحته جيدة من قبل. وبموجب الوصية القديمة، فستنتقل كلُّ تركته تقريبًا إلى كريك. يوجد جزء صغير من التركة سينتقل إلى رجل يُدعى صامويل هوردر، ولد ابن عمه؛ وهوردر هو الوريث البديل إذا مات كريك قبل ميريل. الآن، فهمت ميريل وأقول إنه بعد زيادة ثروته، رغب في منْح هوردر جزءًا أكبر وتوصلتُ إلى أنه اقترح تقسيم التركة بالتساوي تقريبًا بين الرجلين. كانت التركة كلها أكبر مما اعتقد أنه يلزم كريك. والآن، بعد أن أوضحنا المقدمات، سأسرد لك ظروف الاختفاء.

يوم الخامس الأربعاء الماضي، تلقيتُ خطابًا منه يقول إن لديه بعضَ التقارير الجاهزة كي أتسلمها في اليوم التالي، ولكنه لن يكون في مكتبه من الساعة ١٠:٣٠ صباحًا حتى الساعة ٦:٣٠، ويقترح أن أذهب إليه في المساء إذا أردتُ الحصول على الأوراق على وجه الخصوص. وما حدث أن مُساعدي، السيد بيج، اضطر أن يذهب إلى مكان قريب من جسر لندن صباح يوم الخميس، والغريب أنه رأى السيد ميريل يخرج من ورشة صيانة السفن في إدجينتون مع رجل يحمل حقيبةَ يدٍ كبيرة نوعًا ما. كانت الحقيبة فارغة بالطبع، ولكنَّ بيج رجلٌ سريع الملاحظة ولفت نظرَه رفيقُ ميريل حتى إنه لاحظ أن الرجل يرتدي سُتْرة راعٍ ذات نقوش مائلة إلى اللون الأخضر يرتديها سكَّانُ مقاطعة نورفوك وقبعة رمادية من نسيج التويد. لاحظ أيضًا الوقت عندما نظر إلى الساعة الكبيرة في الشارع بالقرب من إدجينتون وكانت الساعة ١١:٤٦ وأن ميريل نظر إلى الساعة وأن الرجلَين انطلقَا بسرعة باتجاه المحطة. وفي المساء، أرسلت بيج في زيارة إلى منزل ميريل في فِيجتري كورت للحصول على الأوراق. وصل إلى المسكن حوالي الساعة ٦:٣٠ ولكنه وجد الباب مغلقًا، وعلى الرغم من قرْع الباب على أمل أن يكون السيد ميريل بالداخل — فهو يعيش في مسكن بجوار مكتبه — لم يتلقَّ أي إجابة؛ ومن ثَم ذهب في جولة إلى المعبد وقرر العودة بعد قليل.

ذهب بيج بعيدًا حتى الأديرة وأخذ يتسكع هناك وينظر في نافذة متجرٍ لبيع الشعر المستعار وعندها رأى رجلًا يرتدي سُتْرة راعٍ ذات نقوش مائلة إلى اللون الأخضر وقبعة

رمادية من نسيج التويد يقترب من معبد بامب كورت. وبينما الرجل يقترب، اعتقد بيج أنه يعرفه؛ في الحقيقة، شعر أنه يعرفه حقًّا لدرجة أنه أوقف الرجل وسأله إن كان يعرف متى سيعود السيد ميريل إلى المنزل. ولكن الرجل نظر إليه في ذهول قائلًا: «ميريل؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.» وعليه اعتذر بيج وشرح أنه التبس عليه الأمر من نمط النقش على السُّتْرة ولونها.

بعد المشي لما يقرب من نصف ساعة، عاد بيج إلى مسكن ميريل، ولكن الباب كان مقفلًا ولم يردَّ عليه أحدٌ مع قرْع الباب بعصاه؛ وبالتالي كتب خطابًا وأسقطه في صندوق الخطابات وغادر. في الصباح التالي، أرسلتُه إلى المنزل مرة أخرى، ولكنه وجد المسكن لا يزال مغلقًا وهو مغلق منذ ذلك الحين، ولم يُرَ أو يُسمَع شيء عن ميريل مطلقًا.

في يوم السبت، ظننتُ أن كريك ربما لديه بعض الأخبار التي يعطيها لي عن عمِّه، اتصلتُ به على رقم مسكنه ولكن أصابني الذهول عندما علمت أنه مفقودٌ هو الآخر. غادر في وقت مبكر من صباح يوم الخميس، قائلًا إنه مضطر للذهاب في رحلة عمل إلى روتشستر، وربما لا يعود إلى المنزل لتناول العشاء، ولكنه لم يرجع إلى المنزل على الإطلاق. اتصلتُ مرة أخرى مساء يوم الأحد ولم يكن قد عاد بعدُ، وعندئذٍ قررت اتخاذ المزيد من الإجراءات الفعالة.

بعد ظهر اليوم وبعد الغداء مباشرةً، اتصلتُ بمكتب الاستعلامات وشرحت باختصار الظروف ومَن أكون، وطلبت من الموظف أن يُحضر نسخة من المفتاح — التي يحملها كي يعطيَها لعاملة غسل الملابس — وأن يصحبني إلى مسكن السيد ميريل لأعرف إن كان ميتًا بالداخل أو غائبًا عن الوعي. طمأنني الرجل وقال إن الأمر ليس كذلك لأنه يعطي المفتاح كلَّ صباح لعاملة غسل الملابس وأنها أرجعته إليه اليوم منذ أقل من ساعتين. وعلى الرغم من ذلك، أخذ المفتاح وبحث عن عاملة غسل الملابس وكان المسكن قريبًا من مكتب الاستعلامات، ولحسن الحظ وجدنا العاملة هناك وتبيَّن أنها امرأة مسنة غاية في الاحترام والفطنة، وذهبنَا معًا إلى مسكن السيد ميريل. فتح لنا موظف الاستعلامات وعندما تفحصنا المكان وتأكدنا أن السيد ميريل لم يكن موجودًا، سلَّم المفتاح إلى عاملة الغسيل السيدة باتلر وذهب هو.

عندما رحل، تحدثتُ إلى السيدة باتلر ومنها تكشَّفتْ بعضُ الوقائع المذهلة. يبدو أنه في يوم الخميس — اليوم الذي غاب فيه السيد ميريل طيلة النهار — انتهزَتِ الفرصة لعمل تنظيف شامل للمسكن وترتيب الردهة وإلقاء نظرة على الخزانات ذات الأدراج

وخزانة الملابس وغسل الملابس وتنظيفها بالفرشاة حرصًا على خلوها من العُثِّ. قالت: «عندما انتهيت، أصبح المكان نظيفًا كما يحب أن يراه.»

قلت: «وبعد كل هذا يا سيدة باتلر، لم يرَ المكان مطلقًا.»

قالت: «بل رآه؛ لا أعرف متى دخل إلى المسكن، ولكن عندما دخلت في الصباح التالي، وجدت أنه كان هنا بعدما غادرت.»

سألتُ: «كيف عرفتِ ذلك؟»

قالت: «تركتُ مكنسة السجاد واقفة ومستندة على باب خزانة الملابس. تذكرتُها بعدما غادرت وفكَّرتُ أن أعود وأنقلها ولكني كنت سلمت المفتاح إلى مكتب الاستعلامات، ولكن عندما دخلت في الصباح التالي لم أجدها في مكانها. بل وجدتها منقولة في الزاوية بالقرب من المدفأة. ثم نُقلت المِرآة. يمكنني أن أقول ذلك لأنني قبل أن أغادر، مشطت شعري أمامها، ولأنني قصيرة، اضطررت إلى إمالة المِرآة كي أرى وجهي فيها. والآن، المِرآة أُميلت كي تناسب رجلًا طويلًا وأنا لا أرى نفسي فيها. ثم رأيت صابون الحلاقة في مكان غير مكانه وعندما أعدته وجدته رطبًا. ولا تستمر رطوبته لمدة أربع وعشرين ساعة في هذا الوقت من العام.» هذا صحيح تمامًا كما تعلم يا ثورندايك.»

ثورندايك موافقًا: «تمامًا، هذه المرأة محللة ممتازة.»

تابع برودريب: «بناءً على هذا، تفحصَت المرأة صابون الحلاقة والإسفنجة ووجدَتْهما رطبَين بشكلٍ ملحوظ. باتت متأكدة نوعًا ما أن ميريل دخل المسكن في الليلة السابقة وأنه حلق لحيته؛ ولكن من باب التأكد، اقترحت أن تنظر في ملابسه وترى هل غيَّر أيًّا منها أم لا. فعلَت ذلك، وبدأت بالملابس المعلقة في خزانة الملابس وأخذت تُنزلها قطعة تلو الأخرى، وفجأة صرخت من الذهول وبدأت أنذهل أنا الآخر عندما ناولتني سُتْرة راعٍ ذات نقوش مائلة إلى اللون الأخضر يرتديها سكان مقاطعة نورفوك.

قالت: «هذه السُّتْرة لم تكن هنا عندما نظفت هذه الملابس بالفرشاة.» كان واضحًا من الأتربة التي كانت عليها أنها لم تنظَّف بالفرشاة. أضافت: «لم أرها مطلقًا على حدِّ علمي، وإلا أعتقد أنني كنت سأتذكرها.» سألتها هل هناك أيُّ معطف مفقود؟ فأجابت أنها نظفت سُتْرة رمادية من نسيج التويد ويبدو أنها اختفت.

كانت هذه المسألة غريبة. وإذا أمكن، يجب أولًا التأكد هل تلك السترة تخص السيد ميريل أم لا؟ وبالتالي اعتقدت أنك أفضل مني كي تحكم في هذه المسألة؛ ولذا استعرتُ حقيبة ملابسه ووضعت السترة فيها، ووضعت معها سُتْرة أخرى تخصُّه بالتأكيد للمقارنة بينهما. وإليك حقيبة الملابس والسترتَين بداخلها.»

قال ثورندايك: «إنها مسألة شائكة حقًّا ومن الأفضل أن يقرر فيها خياط. الفرق في المقاس قد لا يكون كبيرًا إذا كان يرتدي السترتَين كلتيهما شخصٌ واحد، ولكننا سنرى.» أخذ بعض أوراق الجرائد وفرشها على طاولة، وفتح حقيبة الملابس وأخرج السترتَين، ووضع إحداهما بجانب الأخرى ثم أخرج شريط قياس زنبركي وشرع في قياس قطعتي الملابس بطريقة منهجية، ودوَّن كلَّ زوج من القياسات على ورقة مقسمة إلى عمودين. أخذتُ أشاهده أنا والسيد برودريب مترقبَين وأخذنا نقارن بين مجموعتَي الأرقام اللتين يدوِّنهما؛ وسرعان ما أصبح واضحًا أنهما غيرُ متطابقَتَين على الأقل. وبعد مدة، وضع ثورندايك شريط القياس وأخذ الورقة ودرسها بعناية.

قال: «أعتقد أنه يمكننا استخلاص أن هاتين السترتين لا يلبسهما شخصٌ واحد. أوجه الاختلاف ليست كبيرة ولكنها ثابتة. على سبيل المثال، تتوافق طيات الكوع مع طول الأكمام. صاحب السُّترة الخضراء ذراعاه أطول وأضخم من ميريل، ولكن قياس الصدر أكبر بمقدار بوصتين تقريبًا وله كتفان مائلان أكثر بكثير. ارتدى الرجل سُتْرة ميريل بصعوبة.»

قال برودريب: «إذن السؤال التالي هو: هل أتى ميريل إلى المنزل بمعطف شخص آخر أم دخل شخص آخر إلى مسكن السيد ميريل؟ وبناءً على ما أخبرنا به بيج، بات الأمر واضحًا ولا بد أن غريبًا دخل إلى مسكن ميريل، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهناك أسئلة تطرح نفسها: ما هو الدافع الذي جعل هذا الشخص يغيِّر في ملابس ميريل ويحلق ذقنه؟ كيف دخل إلى مسكن ميريل؟ ماذا كان يفعل بالداخل؟ ما الذي حدث لميريل؟ وما المغزى من هذا كله؟»

ثورندايك: «الإجابات عن بعض هذه الأسئلة واضحة تمامًا. إذا افترضنا أن صاحب السترة الخضراء هو الرجل الذي رآه بيج على جسر لندن ثم في الأديرة، فسيتضح السبب وراء تغيير الملابس وضوحَ الشمس. بيج أخبر الرجل بأنه عَرَفه بهذه السترة المميزة بوصفه الرجل الذي شوهد معه ميريل حيًّا في آخر مرة. ومن الواضح أن السلامة تطلَّبَت ألَّا يتوانى في التخلص من هذه السترة التي يمكن أن تورطه. وفيما يخص الحلاقة: هل أعطاك بيج أيَّ وصف للرجل؟»

«نعم، كان رجلًا طويل القامة نوعًا ما، في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، له شارب أسود كبير ولحية كثة.»

ثورندايك: «جيد جدًّا، إذن يمكننا القول إن الرجل الذي دخل إلى مسكن ميريل كان له شارب ولحية ويرتدي سترة خضراء وأن الذي خرج كان حليقًا ويرتدي سترة رمادية،

ومن الممكن أن يكون بيج نفسه مرَّ به دون أن يلمحه مرة أخرى. هذا واضح تمامًا. وبالنسبة إلى طريقة دخوله إلى المسكن، فمن الواضح أنه دخل باستخدام مفتاح ميريل؛ وإذا كان قد فعل، فإنني أخشى من تخمين ما حدث لميريل، فهذا لا يخفى عليكم ولا نأمل إلا أن يكون هذا التخمين خاطئًا. وبالنسبة إلى ما كان يفعله الرجل في المسكن والمغزى من المسألة برمَّتِها، فالإجابة عن هذا السؤال أصعب. إذا كان الرجل معه مفتاح مسكن ميريل، فيمكننا افتراض أن معه باقي مفاتيح ميريل؛ وبالتالي بإمكانه الوصول بسهولة إلى أيِّ خزانات مقفلة في المسكن. وتُشير الملابسات إلى أنه دخل إلى المسكن بغرض الحصول على بعض الأشياء الثمينة من هذه الخزانات. هل وصل إلى علمك أن ميريل يحتفظ بأي ممتلكات ذات قيمة كبيرة في منشآته؟»

برودريب: «لا أعلم. ميريل لديه خزنة، ولكني لا أعلم ما الذي يحفظه بداخلها. أعتقد أن المستندات هي المحفوظات الأساسية. بالتأكيد لا يحتفظ بمبالغ كبيرة من المال فيها. الشيء الوحيد الذي له قيمة وأعرفه حقًّا هو الوصية الجديدة، ولن تكون ذات قيمة إلا في ظروف معينة.»

الاستنتاج المفاجئ والغامض من كلام السيد برودريب لم يمرَّ على ثورندايك وعليَّ دون أن يلفت انتباه كلينا. فمن الواضح أن المحامي الكبير الحذر تنبَّه فجأة، كما تنبهتُ، أنه إذا حدث أيُّ شيء لميريل، فهذه «الظروف المؤكدة» قد وقعت بالفعل؛ وبناءً على ما أخبرنا به، اتضح أنه بموجب الوصية الجديدة، يرث كريك نصف ثروة السيد ميريل، ولكنه يرث جميع ثروته تقريبًا بموجب الوصية القديمة. التركة ضخمة. وفقدان الوصية الجديدة أو التخلص منها سيضمن ثروة عظيمة للسيد كريك.

برودريب بعد برهة: «إذن، ما الذي ينبغي فعله؟ أعتقد أنه ينبغي أن أبلغ الشرطة.»

ثورندايك: «سنبلغها عاجلًا أو آجلًا، ولكن اترك هاتين السترتين — أو على الأقل السترة الخضراء — معي الآن ودعني أفكر لَعلِّي أستطيع استخلاص معلوماتٍ أخرى منها.»

«لن تجد شيئًا في الجيوب سوى الأوساخ. لقد حاولت.»

ثورندايك: «أرجو أن تكون تركت الأوساخ.»

برودريب: «قد تركتها، ما عدا ما خرج على أصابعي. حسنًا إذن؛ سأترك المعطفين معك اليوم، وسأرى إن كان بإمكاني الحصول على مزيدٍ من الأخبار عن كريك من صاحبة مسكنه.»

بعد ذلك صافحَنا المحامي الكبير وغادر ووِجهتُه لا تخفى على أحد ثم قلت: «خرج برودريب للبحث عمَّا إذا كان السيد كريك هو صاحب سترة نورفوك ذات النقوش الخضراء أم لا.»

ابتسم ثورندايك. «بل من الطريف ملاحظة كيف قلَّ تحفُّظه في الحديث فجأة عندما انكشف له أصلُ المسألة، ولكن يجب ألَّا نبدأً بنظرية ذات تصور مسبق. عملنا هو الوقوف على مزيد من الوقائع. ليس لدينا ما يكفي من الوقائع التي ننطلق منها في الوقت الحالي. لنبدأ بإلقاء نظرة فاحصة على السترة الخضراء.»

أخذ السترة وحملها إلى النافذة وأجرينا فحصًا ناقدًا لها.

علقت: «إنها مليئة بالغبار، خاصةً من الأمام وتوجد علامة بيضاء على الزر الأوسط.»

«نعم، واضح أنه طباشير؛ وإذا أمعنت النظر، فستجد آثارًا بيضاء على الأزرار الأخرى وعلى المعطف من الأمام. الظهر عليه غبار أقل بكثير.»

بينما ثورندايك يتحدث، أدار الملبس للجهة الأخرى ومن جانب ذيل السترة، التقط شيئًا صغيرًا يُشبه الشعر وتحسَّسه بين إصبعي السبابة والإبهام ونظر إليه نظرة مدققة وناولني إياه.

قلت: «جزء من حبة شعير، ويوجد جزءان على الجانب الآخر. لا بد أنه سار بطول ممر ضيق في حقل شعير؛ حالة المعطف من الأمام تقول إنه كان يزحف تقريبًا.»

«نعم، إنه غبار من الأرض، ولكن جهاز العزل الخاص ببولتون سيعطينا المزيد من المعلومات عن هذا الأمر. من الأفضل أن نسلمه هذا المعطف، ولكن سنفحص الجيوب أولًا على الرغم من عدم تشجيع برودريب على القيام بذلك.»

لما أدخلت يدي في أحد الجيوب الجانبية، قلت: «يا للعجب! إنه محق بشأن الأوساخ. انظر إلى هذا.» أخرجت يدي ملتصقة بقدر كبير من الأتربة الجافة وقطعة أو قطعتين صغيرتين من الطباشير. «يبدو أنه كان يزحف على أرض رخوة.»

أخذ ثورندايك يتفحص «القطعة التي أمسكها» — مقدارًا صغيرًا من تربةٍ حمراء وقطعة طباشير بحجم حبة بازلاء كبيرة. قال: «الأرض لها خصائص فريدة؛ فهذا طِفال ذو لون بُنِّيٍّ مائل إلى الأحمر فوق الطباشير. يبدو أن جميع الجيوب الخارجية وقع فيها قدرٌ كبير أو صغير من هذا الطفال، ولكن يمكننا أن ندع بولتون يجمعها ويجهزها للفحص. سآخذ المعطف إليه الآن. وبينما يعمل في هذه المهمة، أظن أنني سأذهب إلى إدجينتون وأحاول جمْعَ المزيد من التفاصيل.»

صَعِد إلى المختبر حيث يؤدي مساعدنا بولتون بعض الأنشطة الغريبة والمتنوعة ثم انطلقنا من فورنا مع بعضنا. في شارع فليت، أخذنا سيارة أجرة وانتقلنا بها إلى جسر بلاكفريارز ثم نزلنا عند زاوية شارع «تولي» بعد بضع دقائق. انطلقنا في طريقنا إلى مكتب متعهد تموين السفن؛ ومن ثَم شرع ثورندايك في طرح بعض الأسئلة السرية على المدير؛ إذ بدا تعاطفُه في اهتمامه وتأدُّبه أثناء الاستماع.

قال: «المشكلة أن يوم الخميس الماضي كان هناك العديد من العملاء. وأنت تقول إنهما أتيَا حوالي الساعة ١١:٤٥. إذا استطعتَ أن تُخبرنا بما اشترياه، فربما يساعدنا الاطلاع على دفتر نسخ الفواتير.»

ثورندايك: «لا أعرف حقًّا ما الذي اشترياه. ربما اشتريَا حبلًا بطول معين، أو لنَقُل: حبل بطول اثنتي عشرة أو أربع عشرة قامة أو أكثر، ولكن ربما لم يشتريَا هذا الحبل.»

حدَّقتُ في ذهول إلى ثورندايك. لطالما عرفته، فملَكة الاستقراء الفوري لديه دائمًا ما تفاجئني. افترضتُ أنه لا يوجد لدينا شيء على الإطلاق لنبدأ به، ولكنه بدأ على الأقل باقتراح مبدئي قبل أن نشرع في عملية التحقيق. وهذا الاقتراح دليل واضح على أنه توصَّل إلى افتراض حلٍّ للغز. ظللت أفكر في هذه الواقعة المذهلة عندما اقترب المدير ومعه دفتر مفتوح ويرافقه مساعدُه.

قال: «أرى أنه يوجد قيد، ومن الواضح أنه كان في منتصف يوم الخميس، وهو بيعُ حبل سلكي يُستخدم في قاع البحر بطول خمس عشرة قامة، ويتذكر صديقي هنا واقعة بيعه.»

المساعد مؤكدًا: «نعم، أتذكره لأن المشتري أراد أخذه في حقيبة يده، وجعل ثلاثتنا يحاول إدخاله. حبل السلك السميك يكون متيبسًا قليلًا عندما يكون جديدًا.»

«هل تتذكر هيئة هذين الرجلين والملابس التي كانَا يرتديانِها؟»

«أظنُّ أن أحدهما كان كبيرًا في السن وبدون لحية. أتذكر الآخر جيدًا؛ لأن لديه عينَين بمظهر غريب، عينَين رماديتَين وشاحبتَين جدًّا. كانت له لحية مدبَّبة ومعطف مزركش باللون المائل إلى الأخضر وقبعة من القماش. هذا كل ما أتذكره عنه.»

ثورندايك: «هذا أكثر مما يتذكره الآخرون. أنا أعتذر كثيرًا لك؛ وأحسب أني سأطلب منك خمس عشرة قامة من هذا الحبل السلكي ذاته.»

بحلول هذا الوقت، استنفدت قدرتي على الدهشة. ما الذي يمكن أن يفعله زميلي بحبل سلكي يُستخدم في قاع البحر؟ ولكن في النهاية، ولمَ لا؟ إذا اشترى في هذا الوقت

من هناك مرساة من نوع ترومان وخطافًا لصيد أسماك القرش ومجموعة من إشارات الترميز الدولية، فيجب أن أقبل الإجراءات من دون تعليق. ثورندايك هو مَن يضع القوانين لنفسه.

ولكن لما كنت بجانبه في طريقنا إلى المنزل وأنا أحمل لفة الحبل، لم أنفكَّ عن وضع التكهنات بشأن هذه القضية الفريدة. توصل ثورندايك إلى افتراض حلٍّ لمسألة السيد برودريب؛ وقد ثبتت صحتُها كما تبيَّن من القيد في دفتر الفواتير، ولكن ما العلاقة بين سترة عليها غبار وحبل رفيع بطول معين؟ ولماذا هذا الطول تحديدًا؟ لا أفهم شيئًا من هذا، ولكن بمجرد أن وصلنا المنزل، قررت أن أرى الوقائع الجديدة التي كشفت عنها أعمال بولتون.

كانت النتائج محبطة. فجهاز عزل الأتربة لدى بولتون قيد التشغيل، وما أخرجه كان في شكل أكوام صغيرة من الغبار وكانت موضوعة بطريقة منهجية على ورقة بيضاء، وكل كومة صغيرة مغطاة بزجاجة ساعة ومكتوب معها التفاصيل عن جزء الثوب الذي أُخذت منه. فحصت عدة عينات تحت المجهر، وعلى الرغم من كونها غريبة ومثيرة للاهتمام — كباقي الغبار — فإنها لم تُظهر شيئًا مميزًا. ربما أتى الغبار من معطف أيِّ شخص. وبالطبع كانت هناك كمية كبيرة من التربة الرملية المائلة إلى اللون الأصفر وبعض جزيئات الطباشير وكمية من الرماد الناعم وخبث المعادن وجزيئات الفحم — غبار السكك الحديدية من القاطرة — وغبار عادي من المدينة والمنزل، بما في ذلك بعض الغبار من النباتات الشوكية والخُبَّازى والخشخاش والناردين، وفي إحدى العينات، وجدت قشرتين من جناح الفراشة الزرقاء التي تنتشر في المكان في ذلك الوقت. هذا كل شيء؛ ولم أستنتج منه سوى أن صاحب المعطف كان مؤخرًا في منطقة بها غبار طباشيري وأنه ذهب في رحلة بالقطار.

بينما كنت أعمل بالمجهر، انشغل بولتون بوظيفة لم أفهمها. ثبَّت قطع الطباشير الصغيرة التي وجدناها في الجيوب على لوح زجاجي باستخدام القار، وأخذ يمسحها تحت الماء بفرشاة ناعمة ومن وقت إلى آخر يصب الماء ذا القوام اللبني في زجاجة رواسب طويلة. كما يعلم معظم الناس، يتكون الطباشير من قشور مجهرية وهي المنخربات، وهذه المواد يمكن فصلها عن طريق مسح الطبشور بالفرشاة بلطف تحت الماء، لكن ما الهدف من هذا الاختبار؟ لا شك أن المادة من الطباشير، وعلمنا أن مادة المنخربات كانت فيها. فلماذا نتكبد عناء إثبات ما هو معروف؟ سألت بولتون، ولكنه لم يكن على

علم بالغرض من دراسة تلك المادة. لم يفعل شيئًا سوى أن ابتسم لي مثل تمثال قديم منحوت به تجاعيد وواصل عمله بالفرشاة. غمستُ عينة من الرواسب البيضاء وفحصتُها تحت المجهر. وبالطبع كان بها مادة المنخربات، وكانت جميلة للغاية، ولكن ماذا عن تلك المادة؟ بدا الإجراء كله بلا هدف على الرغم من علمي بكونه غير ذلك. ثورندايك هو آخر رجل في العالم يبدد طاقته في شيء لا طائل منه.

أتى ثورندايك إلى المختبر، وعندما نظر إلى عينات الغبار وأكَّد رأيي فيها، انكب على عينة الطباشير. بعد تجهيز عدد من الشرائح، جلس على المجهر ومعه قلم رصاص مسنون ومجموعة من الورق الناعم إذ بات الهدف واضحًا وهو فهرسة مادة المنخربات وعمل رسومات لها. تركته في هذه المهمة وذهبت لأخذ بعض الكتب التي طلبتها من مكتبة في شارع تشارينج كروس رود.

عندما عدت بمشترياتي بعد ساعة تقريبًا، وجدته يعيد إلى المطبعة مجموعة من خرائط هيئة المساحة ذات مقياس الرسم الكبير في مقاطعة كِنت إذ بدا أنه كان يطلع عليها، ولاحظت على مكتبه ورقة الرسومات ودراسة عن مادة المنخربات الحفرية.

قلت مبتهجًا: «حسنًا يا ثورندايك، أظن هذه المرة أنك تعرف بالضبط ما حلَّ بميريل.»

رد: «يمكنني أن أخمِّن كما يمكنك أنت أيضًا، ولكن البيانات الفعلية بها غموض موحش. لدينا مؤشرات مؤكدة، كما ستلاحظ. ستكمن المشكلة في تسليط الضوء على تلك المؤشرات. تستدعي هذه القضية الخيال الاستقرائي من ناحية ومنهج الاستبعاد من ناحية أخرى. سأقوم بجولة تمهيدية في الغد.»

«ما الذي تعنيه؟»

«لديَّ فرضية، ولكن ربما تكون خطأ. وإذا كانت كذلك، فيجب أن نجرب فرضية أخرى، ثم أخرى. وفي كل مرة تفشل فيها الفرضية، سنضيق مجال الاستفسارات عن طريق استبعاد احتمال بعد الآخر، ونأمل أن نَصِل إلى الحل. محاولتي الأولى ستأخذني إلى مقاطعة كِنت.»

قلت: «لن تذهب إلى هذه المناطق البرية وحدك يا ثورندايك. ستحتاج إلى حمايتي ودعمي بالإضافة إلى مشورتي التي لا تقدَّر بثمن. أظن أنك تدرك هذا، أليس كذلك؟»

رد بجدية: «بلا شك؛ فقد كنت أرتب الأمور لرحلة تفقدية لرجلين. إضافة إلى هذا، أنت مهتمٌّ بهذه القضية مثلي تمامًا. لننطلق الآن كي نتناول العشاء ونحصن أنفسنا من مخاطر الغد.»

وفي أثناء تناول العشاء، بدأت المحادثة عن مخرجات أعمال بولتون وعلقت على عدم معرفة الكثير عنها، ولكن لا يزال الغموض يكتنف ثورندايك أكثر، كما هي عادته في القضايا التي تطغى فيها التكهنات.

قال مبتسمًا: «إنك تتوقع الكثير من بولتون. هذه ليست مسألة مادة المنخربات أو طبقة غبارية أو قشور الفراشة، ولكنها مجرد عناصر من الأدلة الظرفية. وما ينبغي لنا فعله هو دراسة مجموعة الوقائع التي بحوزتنا بكاملها؛ ما أخبرنا به برودريب وما نعرفه بأنفسنا وما تأكدنا منه من خلال التحقيقات. لا يزال الغموض يحوم حول القضية، ولكن ليس بالدرجة التي تُلمِّح لها.»

كان هذا جلَّ ما استخلصتُه منه؛ ولمَّا لم أستطع الخروج بأيِّ اقتراح من «مجموعة الوقائع بكاملها»، لم يسعني سوى التحلي بالصبر والأمل في انكشاف بعض الأمور في اليوم التالي.

حوالي الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا من صباح اليوم التالي، وفي وسط إصدار التعليمات النهائية من ثورندايك إلى بولتون ولما أخذتُ أخمِّن محتويات حقيبة اليد التي سنأخذها معنا، سمعنا أصوات أقدام تصعد السلم. انتهى صوت تلك الأقدام مع الطرق على الباب بمطرقة نحاسية صغيرة وعرفت أن الطارق برودريب. فتحتُ الباب وأدخلت صديقنا المسن. وعلى الفور وقعت عينُه الزرقاء الحادة على ملابسنا غير الرسمية وحقيبة اليد ولمعت عيناه وكأنها تكشف عن الفضول الذي انتابه.

سأل: «هل تخرجون في رحلة تفقدية؟»

ثورندايك: «نعم، رحلة قصيرة إلى مقاطعة كِنت. بلدة جريفسيند في الحقيقة.»

برودريب مكررًا بمزيد من الاهتمام الغريب: «جريفسيند، كانت هذه الوجهة المفضلة لدى ميريل البائس. على أية حال، أظن أن رحلتكما ليست مرتبطة باختفائه، أليس كذلك؟»

ثورندايك: «في الحقيقة، إنها رحلة تفقدية غير محددة، كما تعلم.»

انذهل برودريب وقال: «أعلم، وأنا آتٍ معك. ليس لديَّ أعمال اليوم ولن يُقابَل طلبي بالرفض.»

ثورندايك متابعًا: «لا تتوقع أيَّ رفض. صحيح أنك ستهدر اليوم على الأرجح، ولكن لا بد أننا سنستفيد من صحبتك. سيُخبر بولتون موظفك أنك لم تختفِ، أو يمكنك أن تذهب إلى المكتب بنفسك. لدينا متسعٌ من الوقت.»

اختار برودريب الخطة الثانية؛ وبالتالي تمكَّن من تبديل قبعته الطويلة ومعطفه الصباحي وارتدى قبعة ناعمة وسترة، ثم انطلقنا في طريقنا إلى تشارينج كروس عبر لينكولنز إن، حيث يوجد مكتب برودريب. لاحظت أن برودريب لم يطرح أسئلة كعادته، على الرغم من أنه لاحظ بالتأكيد — كما لاحظت — الحقيقة المذهلة التي توصَّل إليها ثورندايك وتربط بين ميريل وجريفسيند؛ وباستثناء ما رواه برودريب بشأن فشله في الحصول على أيٍّ أخبار عن السيد كريك، لم يُشَر إلى طبيعة الرحلة التفقدية حتى وصلنا إلى وجهتنا.

بعد الخروج من المحطة، انعطف ثورندايك إلى اليسار وأخذ طريقًا يؤدي إلى شارع، ويقبع على مدخل الشارع تمثال للملكة فيكتوريا بنظرته الشامخة غير أن السخام يعلوه. ومن هنا اتجهنا إلى الجنوب بطول شارع صاخب، ثم عبرنا طريقًا رئيسيًّا وتابعنا سيرنا في طريق مليء بالقاذورات إلى أن بدأت قذارة الحضر تتلاشى ويحلُّ محلها معالم الريف وانتقلنا من ضاحية إلى قرية. مررنا بنزُل لطيف المظهر وورشة حدادة تتضمن قسمًا خارجيًّا للعربات المتهالكة، ثم أتينا على جادة هادئة بها أشجار وأكواخ مبنية بالقرميد ومسقوفة بالقش وكانت حدائقها مزدانة بالزهور الصيفية. في الجهة المقابلة، أخذنا بعض الدرج الحجري الخشن إلى سُلَّم بجانب بوابة مفتوحة تؤدي إلى طريق ترابي عريض. توقف ثورندايك هنا وأخرج حافظة الخرائط من جيبه وطابق الأماكن المحيطة بالخريطة. أدخل الخريطة في جيبه على الفور واتجه إلى الطريق الترابي، قال: «سواء كانت النتيجة جيدة أو سيئة، فهذا طريقنا. وبعد بضع دقائق، ربما نعرف هل وجدنا مفتاح اللغز أم لغزًا آخر.»

سلكنا هذا الطريق إلى أن وصلنا إلى قمة التل، رأينا واديًا واسعًا وخصبًا يمتد من تحتنا، وتنبت الأشجار من خلفه ويطل على حافته برج مربع عرفنا أنه كنيسة القرية.

خلع برودريب قبعته للاستمتاع بالنسيم العليل وقال: «سواء وجدنا مفتاح اللغز أم لم نجده، فالجو ممتع للغاية ويستحق عناء الرحلة. انظر إلى تلك الفراشات الزرقاء الصغيرة الساحرة وهي ترفرف حول نبات الخباز. يا له من مشهد رائع لا يكون إلا في كِنت! أين ترى حقل شعير كهذا؟!»

كان مشهدًا جميلًا حقًّا، ولكن مع سفر عينيَّ عبر حقل الشعير الشاسع، والأمواج الذهبية التي يحركها نسيم الصيف، لم يكن هذا المشهد الجمالي الذي أسر عقلي؛ فقد انشغل عقلي بأطراف حسكات الشعير الثلاثة التي التقطناها من على أطراف السترة

الخضراء. تقلص الطريق الترابي وأصبح مسارًا للسير بالأقدام، ولكنه كان مسارًا أوسع مما كان عليَّ أن أبحث عنه، المسار يمتد قاطعًا الحقل الشاسع وينتهي إلى سُلَّم بعيد، وفي المنتصف على الجانب الأيسر، يمكنني أن أرى قمة سياج خشن يرتفع فوق سنابل الشعير ويلتف حول حظيرة مربعة صغيرة تُشبه الحظيرة، لكننا وجدناها على حالة غير متوقعة.

تابعنا الطريق العريض قاطعين الحقل إلى أن اقتربنا من جانب الحظيرة، وأوشكت أن ألفت انتباه ثورندايك إليها، ولكني رأيت ممرًّا ضيقًا عبر الشعير — ليس طريقًا، ولكنه مسار سلكه بعض الأشخاص من بين أعواد الشعير للوصول إلى الحظيرة. سلك ثورندايك هذا المسار وكأنه كان يبحث عنه ومشى باتجاه الحظيرة وأخذ يُمعن النظر في الأرض وهو في طريقه. بالطبع تبعتُه أنا وبرودريب في صفٍّ واحد نتلمس الشعير في طريقنا؛ ولما أخذنا نقترب، رأينا فتحة في السياج حول الحظيرة بالإضافة إلى حفرة عميقة في الداخل وكانت أطرافها مهدبة بأجمة من نبات الناردين الوردي. وعند الفتحة في السياج، وقف ثورندايك ونظر خلفه.

برودريب: «يا تُرى هل سنجد أنفسنا أمام لغزٍ جديد؟»

ثورندايك: «لا، إنه مفتاح اللغز، بل هو أكثر من ذلك!»

أثناء الحديث، أشار إلى سفح إحدى الركائز الرئيسية في السياج مثبَّت فيها حبلٌ قصير تُشير أطرافه المهترئة إلى أنه تعرَّض للقطع بسبب الضغط الشديد. يمكنني الآن أن أرى الحالة التي كانت عليها الحظيرة. توجد حفرة عميقة بالداخل ويوجد في قاع الحفرة ثقب دائري من جانب واحد، وكان مظلمًا كالليل، ومن الواضح أنه يؤدي إلى باطن الأرض.

نظرت إلى التجويف الغائر وقلت: «لا بد أنه يؤدي إلى حفرة غائرة.»

ثورندايك: «نعم.»

برودريب: «إذن هذه حفرة غائرة، أليس كذلك؟ اللعنة على هذا المكان ذي المنظر البشع. الحفر الغائرة كانت من هوايات ميريل البائس. واعتاد النزول فيها من أجل الاستكشاف. أرجو ألَّا تقول إنه نزل في هذه الحفرة.»

ثورندايك: «يُؤسفني أن أخبرك بأن هذا ما حدث يا برودريب. طرف الحبل يشبه طرف الحبل الذي اشتراه. إنه عبارة عن حبل سلكي يستخدم في أعماق البحار. لديَّ حبل مثله اشتريته من المكان الذي اشترى منه حبله وربما قُطع من اللفة ذاتها.» فتح حقيبة يده وأخرج لفة الحبل التي اشتريناها، وطرحها أرضًا بجانب الركيزة على الأرض. اتضح أن الحبلين متطابقان من الطرف المقطوع. وأضاف: «ولكن سنرى.»

برودريب: «سننزل في الحفرة، أليس كذلك؟»

ثورندايك: «نحن؟ سأنزل الحفرة إذا أمكن ذلك. لا خلاف في ذلك. إذا كانت حفرة عمودية عادية بطول سبعين قدمًا وذات جوانب متعامدة، فسنحضر الأجهزة المناسبة، ولكن من الأفضل أن تبقى بالخارج تحسبًا لأي ظروف.»

برودريب متعجبًا: «هراء! أنا لست عجوزًا كما تظن. كنت أتسلق الجبال في شبابي ولست قلقًا. يمكنني أن أنزل على الفور إذا كان هناك أيُّ موطئ لقدم وطالما يوجد حبل أتشبث به. ويمكنك أن ترى بنفسك أن شخصًا نزل إلى الأسفل بالحبل فقط.»

ثورندايك: «نعم، ولكني أرى أن هذا الشخص لم يخرج مرة أخرى.»

برودريب: «لم يخرج، هذا صحيح. يبدو أن الحبل انقطع؛ وأنت تقول إن الحبل الذي معك من النوعية ذاتها، أليس كذلك؟»

نظر إليَّ ثورندايك متسائلًا وأنا أقف وأفحص الطرف المهترئ للحبل الغريب.

سأل: «ماذا تقول يا جيرفيس؟»

رَدَدْت: «هذا الحبل لا ينقطع. لقد تعرض للقطع بشيءٍ حادٍّ أو منشار. إنه مختلف تمامًا في مظهره عن الطرف المقطوع.»

ثورندايك: «هذا ما قررته بمجرد أن رأيته. إضافة إلى ذلك، حبل جديد بهذا الحجم والجودة لا يُحتمل أن ينقطع بسبب وزن رجل.»

حملق برودريب في الطرف المهترئ وظهر على وجهه الرعب.

قال متعجبًا: «يا له من شيء وحشي! تقصد أن خسيسًا قطع الحبل عن عمد وترك رجلًا آخر يقع في الحفرة! ولكن لا يمكن أن يحدث هذا. أظن حقًّا أنك مخطئ. لا بد أن الحبل معيب.»

ثورندايك: «ولكن هذا ظاهر الأمر.» صنع عقدة غير منزلقة في طرف الحبل وألبس الحلقة في كتفيه وأحكمها تحت ذراعيه. ثم اتجه إلى الحفرة. قال: «من الأفضل أن تلفَّ الحبل لفتين حول قاعدة الركيزة يا جيرفيس وأن ترخيَ الحبل بطولٍ كافٍ للحفاظ على الحبل مشدودًا.»

أخذ مصباح فحص كهربائي من حقيبته وأدخل البطارية في جيبه وشبك الكشاف في ثقب الزر وعندما أصبح كلُّ شيء جاهزًا، نزل إلى الحفرة وعبر الأرضية المنحدرة وانحنى إلى الأسفل وأطل في الثقب البغيض وسلط فيه شعاع ضوء من الكشاف. ثم وقف وجذب الحبل.

قال: «يمكن النزول بسهولة، العمق لا يتجاوز عشرين قدمًا وتوجد مواطئ للقدم بطول الحفرة.» في هذا الوقت، جثم مرة أخرى وعاد إلى الحفرة واختفى عن الأنظار. بدا أنه نزل بسرعة كبيرة؛ وذلك بناءً على سرعة إرخاء الحبل، وبعد فترة قصيرة شعرتُ بارتخاء في الحبل ومن ثَم بدأتُ في شدِّه. وكلما خرجت عقدة من الحفرة، أمسك بها السيد برودريب وثبتها تحت ذراعيه دون أن يباليَ باحتجاجاتي.

سألت: «ولكن يا تُرى كيف سأنزل إلى الحفرة؟»

رد بشكل مقنع: «كلُّ شيء على ما يرام يا جيرفيس. سأتفقد المكان ثم آتي كي تنزل.»

من الواضح أنه لا فائدة من الجدال، عدَّلت الحبل وجهزته من أجل إرخائه. نزل إلى الحفرة بمرونة مذهلة ودخل إلى التجويف واختفى؛ دل شد الحبل على أنه كان ينزل بسرعة. كاد أن يصل إلى القاع حينما سمعت أصداء جوفاء لصرخة وكأنها تحذير من شيء، لكن بدا أن كل شيء على ما يرام واستمر الحبل في السحب على نحوٍ ثابت، وعندما خف شده في النهاية، شعرتُ بهزة لا تحتمل معنى غير ضرورة سحب الحبل؛ وبالتالي سحبت الحبل على الفور.

لما دفعني فضولي إلى عدم الرغبة في البقاء دون حَراك منتظرًا عودة برودريب، ثبَّتُّ طرف الحبل في الركيزة باستخدام «عقدة الصياد» ونزلتُ إلى الحفرة. خلال نزولي إلى الحفرة، كنت أنحني وأطل برأسي من على الحافة. أتى بصيص ضوء من مصباح ثورندايك بطول النفق واكتشفتُ أننا لم نكن أول مَن نزل إلى الحفرة لأنه كانت هناك مواطئ أقدام في الطباشير بطول الحفرة ومن الواضح أنه مرَّ عليها وقت طويل. وبمساعدة هذه المواطئ والحبل، بدا النزول في غاية السهولة وقررت أن أنزل من فوري؛ ومن ثَم اندفعتُ إلى الحفرة وعثرت على مواطئ الأقدام الأولى وكنت أُمسك الحبل بيدٍ وأستخدم الأخرى للتشبث في التجاويف العلوية، واستطعتُ أن أنزل إلى الحفرة التي تُشبه البئر. ومع الاقتراب من القاع، كان ضوء المصباح يقع بالكامل على جدار الحفرة؛ جذبتني يدان وسمعتُ صوت ثورندايك يقول: «انظر أين تضع قدمك يا جيرفيس.» ومن ثَم نظرتُ تحتي وعلى الفور رأيت رجلًا يستلقي على وجهه بجوار لفة حبل غير منتظمة.

توخيتُ الحذر وأنا أنزل على الأرضية الطباشيرية وتفقدت المكان. وجدنا أنفسنا في غرفة صغيرة وفي أحد جوانبها فتحة مظلمة تؤدي إلى نفق منخفض. وقف ثورندايك وبرودريب عند أقدام الشخص المتمدد وشرعَا في فحص مسدس كان يحمله المحامي.

برودريب: «بالتأكيد قُتل رميًا بالرصاص، توجد رصاصة فارغة وفوهة المسدس متسخة.»

ثورندايك: «هذا محتمل، لكن لا يوجد جرح بسبب رصاصة. مات الرجل بطعنة سكين في الصدر.» سلط ثورندايك الضوء على الجثة وقلَّبتُها جزئيًّا للتحقق من كلامه، أضاف: «هذا السيد ميريل البائس. وجدنا المسدس قابعًا بجواره.»

قلت: «سبب الوفاة واضح جدًّا، وبالتأكيد لم يكن انتحارًا. السؤال هو ...» في هذه اللحظة، توقف ثورندايك وسلَّط شعاع الضوء في النفق، وتفوهتُ أنا وبرودريب بكلمات اندهاش على الفور. في أقصى نهاية النفق على بُعد أربعين قدمًا تقريبًا، تقبع جثة رجل آخر. انطلق برودريب من فوره مسرعًا بطول النفق ومنحنيًا كي لا يتخبط في السقف المنخفض إذ كان على ارتفاع أربعة أقدام وست بوصات تقريبًا. كنت أنا وثورندايك في عقبه. لما وصلنا إلى الجثة المستلقية وبجوارها مصباح كهربائي ووقع ضوء مصباح ثورندايك على الوجه المقلوب، شهق برودريب: «نجِّنا يا رب! إنه كريك! وها هو السكين!» أوشك على التقاط السلاح عندما مدَّ ثورندايك يدَه.

قال: «يجب ألَّا تُمسكَ يدَ هذا السكين غير اليد التي أمسكتْها للضرب به لأنها قد تكون دليلًا بالغ الأهمية.»

برودريب: «دليل على ماذا؟ هناك ميريل مقتول بسكين في صدره ومسدس بجواره. وهنا كريك مقتول برصاصة في صدره وسكين بجواره وجراب السكين حول وسطه فارغ. ما الأدلة الإضافية التي تريدها؟»

ثورندايك: «يعتمد هذا على ما تسعى إلى إثباته، ما تفسيرك للوقائع التي ذكرتها؟»

برودريب: «الأمر واضح وضوح الشمس، ومع أخذ شخصية الرجلين في الاعتبار، فلا يمكن أن يحدث ما نراه. كريك طعن ميريل وميريل أطلق عليه الرصاص. ثم حاول ميريل الهرب ولكن الحبل انقطع؛ ومن ثم علق وظل ينزف حتى الموت في قاع الحفرة.»

ثورندايك: «ومن منهما مات أولًا في رأيك؟»

سؤال غريب ودفعني إلى أن أرمق زميلي بنظرة تملؤها التساؤلات، ولكن أجاب برودريب على الفور: «كريك بالطبع؛ فهو يقبع هنا في المكان الذي سقط فيه. وهناك آثار دماء بطول النفق كما ترى ويوجد ميريل عند المدخل وأرى أنه مات وهو يحاول الهرب.»

أومأ ثورندايك بطريقة غامضة وعمَّ الصمت لفترة قصيرة. ثم غامرتُ وعلَّقت: «يبدو أنك تغفل الرجل ذا السترة الخضراء.»

اندهش برودريب ونظر إليَّ مقطبًا جبينه من المفاجأة.

تعجب برودريب: «ليسامحني الرب! لقد غفلتُ عنه بالفعل. لقد نسيتُه في مشاهد الرعب التي نعيشها هنا، ولكن ما الذي ترمي إليه؟ هل هناك أيُّ دليل على أنه كان هنا؟»

قلت: «لا أعلم. لقد اشترى الحبل وشوهد مع ميريل عيانًا وهما ذاهبان إلى محطة جسر لندن. وأحسب أن السترة الخضراء هي التي قادت ثورندايك إلى هذا المكان.»

ثورندايك: «نعم، هذا ما حدث بالفعل، ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد. أما في الوقت الحالي، فتوجد واقعة أو اثنتان سألفتُ انتباهكما إليها. الأولى تتعلق بالجروح؛ فالجرحان في مكانين متطابقين تقريبًا. كلُّ جرح موجود في الجانب الأيسر تحت الحلمة؛ وهو موضع قاتل ويمكن أن يكون مكشوفًا بالكامل لرجل ينزل متشبثًا بحبل. وإذا نظرتما بطول الأرضية وأنا أسلط الضوء عليها، يمكن أن تريَا آثارًا واضحة لشيء تعرَّض للجرِّ على الرغم من أن هناك جهودًا واضحة لطمسها، كما أنه توجد علاماتُ دم تدل على جرِّ الجثة وهي أكثر من القطرات.» قلَّب الجثة بلطف وأشار إلى الظهر ووجدناه مغطًّى بالطباشير بدرجة كثيفة. تابع: «من الواضح أن هذه الجثة تعرضت للسحب بطول الأرضية، وما كان للطباشير أن يعلقَ بها بهذه الدرجة من مجرد السقوط. إضافة إلى ذلك، شوهد الحبل آخر مرة وهو يُوضع في حقيبة يد. الحبل هنا، ولكن أين الحقيبة؟ وأخيرًا، الحبل قطعه شخص ما بالخارج، ومن الواضح أنه قُطع بعد ارتكاب عملية الاغتيال.»

وبعدما أتمَّ استنتاجه، نشر منديله على السكين ولفَّه بعناية من دون أن يلمسه بأصابعه ووضعه في جيب صدره الخارجي. ثم عدنا إلى الحفرة العمودية، وهناك انحنى ثورندايك على جثة ميريل وأفرغ جيوبه بشكل منهجي.

برودريب: «ما الذي تبحث عنه؟»

ثورندايك: «المفاتيح، ولم أجدها. إنها عنصر بالغ الأهمية، أما ترى أن الرجل ذا السترة الخضراء دخل إلى مسكن ميريل في ذلك اليوم.»

أجاب برودريب وهو مقطب الجبين: «نعم، أوافقك الرأي، ولكن أخبرْنا يا ثورندايك، كيف تُعيد ترتيب وقائع هذه الجريمة.»

ثورندايك: «نظريتي هي أن الرجال الثلاثة كانوا هنا معًا. ثم ثبَّتوا الحبل في الركيزة. نزل الرجل الغريب ذو السترة الخضراء أولًا وانتظر في قاع النفق العمودي. نزل ميريل بعده وطعنه الرجل الغريب بمجرد أن وصل إلى القاع وهو لا يزال متشبثًا بذراعه في الحبل. تبعه كريك وأُطلق عليه الرصاص في المكان ذاته وبالطريقة ذاتها. ثم سحب

الرجل الغريب جثة كريك بطول النفق وطمس الآثار بقدر استطاعته، ثم وضع السكين والمصباح بجانب الجثة وأسقط المسدس بجوار جثة ميريل وأخذ المفاتيح وصعد، بعد ذلك قطع الحبل بالمنشار — ربما بمنشار صغير — ورمى الطرف في الحفرة العمودية. ثم أخذ القطار التالي إلى لندن وذهب إلى مسكن ميريل مباشرة وفتح الخزنة أو الممتلكات الأخرى واستحوذ على ما يريد.»

أومأ برودريب وقال: «وكأن شيطانًا وضع هذا المخطط.»

ثورندايك: «كان المخطط ذكيًّا للغاية، ولكن التنفيذ لم يكن كذلك؛ فقد ترك آثارًا في كل مكان. بل ما كان ينبغي له أن يوجد هنا. تصرَّف على أساس أن العالَم لا يوجد به سوى الحمقى. ولكن هذا افتراض الأحمق.»

عندما صعدنا بترتيب معاكس لترتيب نزولنا، فكَّ ثورندايك حبلنا وكذلك الطرف المهترئ وأخذناهما معنا وعُدنا أدراجنا إلى المدينة. لاحظت عندما وقفنا بجانب الحفرة في الوادي أنه لا يوجد كائن بشري على مرأى البصر ولم نقابل أيَّ شخص إلى أن اقتربنا من القرية. كان موضعًا مثاليًّا لمن ارتكب جريمة الاغتيال.

برودريب: «أظن أنك ستبلغ الشرطة، أليس كذلك؟»

ثورندايك: «بلى، سأتصل بقائد الشرطة وأعطيه الوقائع وأنصحه بعدم الإفشاء عن بعضها في الوقت الحالي، كما سأرتب تأجيل التحقيق. يجب أن نجعل صاحبنا ذا السترة الخضراء يظن أنه لعب بالورقة الرابحة.»

من الواضح أن قائد الشرطة رجلٌ يعرف كلَّ تحركات التحقيقات الجنائية؛ وذلك لأنه في التحقيق نُسب الاكتشاف إلى الشرطة المحلية التي تعمل بناءً على معلومات تلقتْها من شخص كان قد «لاحظ الحبل المقطوع».

لم يُستدعَ أيٌّ منَّا للإدلاء بشهادته ولم تُذكَر أسماؤنا، ولكن تأجل التحقيق لمدة ثلاثة أسابيع لإجراء مزيد من عمليات الاستجواب.

في تلك الأسابيع الثلاثة، حدثت تطورات فريدة وكان المكان الذي وقعت فيه هذه التطورات هو مكتب المساعدين في مكتب السيد برودريب الواقع في لينكولنز إن. وفي منتهى فترة الضحى من يوم ما، وصلتُ أنا وثورندايك ومع كل واحد منا حقيبة وحزمة مستندات ورحَّب بنا السيد بيج ترحيبًا حارًّا.

ثورندايك: «الآن، هل أنت واثق تمام الثقة يا سيد بيج أنك ستتعرف على هذا الرجل حتى إذا حلق ذقنه وشاربه؟»

بيج: «واثق تمامًا. سأعرفه من عينيه. إنهما عينان غريبتان للغاية، كانتَا لامعتين وبلونٍ رمادي مائل إلى الأخضر. وأعرف صوته أيضًا.»

ثورندايك: «جيد.» وبعدما اختفى بيج في المكتب الخاص، جلسنا وتفحصنا المستندات التي معنا ونظرنا خلسة إلى الموظف الذي لا يزال تحت التدريب. بعد عشر دقائق تقريبًا، فُتح الباب ودخل رجل؛ وبمجرد أن رأيناه انتابني قلقٌ إزاء احتمال وقوع خطب ما. كان رجلًا ضخمَ الجثة مفتول العضلات وحليقَ اللحية وكان رجلًا غامضًا، ولكن انجذب انتباهي على الفور إلى عينَيه إذ كانتَا شاحبتين على نحوٍ غريب مما أعطى سمة غير آدمية لوجهه. ذكَّرني بفصيلة معينة من قرود الليمور كنت رأيتها ذات مرة.

تحدَّث الرجل إلى المساعد: «لديَّ موعد مع السيد برودريب. اسمي هوردر.»

نهض المساعد من كرسيه وتوجَّه إلى باب المكتب الخاص، ولكن خرج بيج في تلك اللحظة. ولما تقابلت عيناه مع عينَي هوردر، وقف من دون حَراك؛ وفجأة تصلب الرجلان وكأنهما كلبان تقابلَا في ركن من الشارع. راقبتُ هوردر عن كثب، وبدا أنه قد اصفرَّ لونه عندما دخل. ارتاع في هذه اللحظة ودل مظهرُه بالكامل على توتُّر أعصابه.

ظل بيج يحملق باهتمام في الرجل الآخر وسأله: «هل تريد مقابلة السيد برودريب؟»

ظهر انفعالُ الرجل في ردِّه: «نعم، وقلت اسمي مرة، اسمي هوردر.»

استدار السيد بيج ودخل إلى المكتب الخاص مرة أخرى وترك الباب مواربًا.

سمعتُه يقول: «السيد هوردر يريد رؤيتك يا سيدي.» خرج وأغلق الباب. جلب كرسيًّا للرجل وقال له: «إذا كنت ستجلس، فسيراك السيد برودريب خلال دقيقة أو دقيقتين.» عندئذٍ أخذ قبعته من الشماعة ونظر في ساعته وخرج.

مرت دقيقتان. وذات مرة، أظن أنني سمعتُ خُطًى تتسلَّل إلى المدخل بالخارج ولكن لم يدخل أحد ولم نسمع طرقًا على الباب. وفي هذه اللحظة، فُتح باب المكتب الخاص وخرج رجل نبيل طويل القامة. ومرة أخرى، وقفت منتبهًا. الرجل النبيل الطويل كان مديرَ قسم الشرطة والمحقق في قضية ميريل.

عبر مدير قسم الشرطة المكتب وفتح الباب وتفقَّد المكان ثم ترك الباب مواربًا وعاد إلى المكان الذي يجلس فيه السيد هوردر.

قال: «أظن أنك السيد صامويل هوردر.»

رد الرجل: «نعم، أنا. ما الأمر؟»

«أنا ضابط شرطة، وأقبض عليك بتهمة الدخول غير المشروع إلى مسكن الراحل ريجينالد ميريل، ومن واجبي أن أحذرك ...»

وهنا، نهض هوردر على قدمَيه وانسلَّت يده اليمنى تحت ذيل سُترتِه وباغت الضابط بقفزة. ولكن في هذه اللحظة أمسك ثورندايك ذراعَه اليمنى من عند الكوع والمعصم وطرحه أرضًا؛ أمسك الضابط ذراعه اليسرى وانقضضتُ أنا على المسدس في يده اليمنى وأبقيتُ فوهته موجهة إلى الأرض. ولكن المسألة لم تكن سهلة. الأسير رجل قوي وقاتل وكأنه وحشٌ بريٌّ، كما أنه لم يرفع إصبعه عن زناد المسدس. وكنا نحن الأربعة — جملة واحدة — ندور حول المكتب ونتخبط في المقاعد والجدران، وكان المساعد الذي تحت التمرين يتنقَّل في أرجاء الغرفة ولم يرفع عينه عن المسدس، واندفع برودريب الكبير من معتكفه مشوحًا بمسطرة طويلة، ولكن لم يَدُم الأمر طويلًا. ففي خضمِّ هذه الضجة، انسلَّ رجلان ضخمان من رجال الشرطة إلى المعركة. صدر صراخٌ من الأسير وسقط المسدس على الأرض ومن ثَم سمعتُ نقرتين معدنيتين متتاليتين.

ألبس الشرطي الأصفاد للأسير وكأنه أعطاه دواءً مهدئًا وقال بصوت خافت: «سيكون بخير الآن.»

عندما أُخرج الأسير، قال ثورندايك: «لاحظت أنك لم تتهمه بغير الدخول غير القانوني.»

ميلر: «نعم، إلى أن تُؤخذ بصمات أصابعه. رفع السيد سينجلتون بصمات ثلاث أصابع وإصبع الإبهام من سطح السكين الذي أعطيتَه لنا، وكانت واضحة تمامًا. وبالطبع إذا ثبت أن البصمات هي بصمات هوردر، فهذا دليل واضح على أنه القاتل.»

ثبت بلا شك أن صاحب البصمات على السكين هو هوردر، ولكن لم تقف القضية عند هذا الحد؛ فعندما جرى تفتيش مسكنه، لم يُعثر على مفاتيح السيد ميريل فحسب، بل عُثر على وصيته الثانية التي لم تكن موجودةً وقت أن فتحها صانع الأقفال الخاصة بالخزنة؛ مما يبرهن من جديد على الغباء الشديد لدى المجرم.

ثورندايك: «قضية مرضية من حيث نتائجها، ولكن حالفنا قدرٌ كبير من الحظ وهذا أفادنا كثيرًا. في القصة التي قصها برودريب في البداية، اتضح تمامًا أن جريمةً ارتُكبت. ميريل مفقود وشخص ما استحوذ على مفاتيحه ودخل إلى منشآته. بات مؤكدًا تمامًا أن الشيء المسروق لا بد أن يكون الوصية الثانية لأنه لم يكن يوجد شيء ذو قيمة ويستحق السرقة غيرها، والوصية لها قيمة كبيرة لشخصين وهما كريك وهوردر حيث يبلغ نصيبُ كلٍّ منهما آلاف الجنيهات. وبالنسبة إلى كلٍّ منهما، كان استحقاق هذا المبلغ مشروطًا بموت ميريل العاجل، قبل كتابة وصية أخرى؛ وبالنسبة إلى هوردر، كان الأمر مشروطًا

بموت كريك أيضًا؛ ومن ثم ينبغي أن يموت قبل ميريل، وإلا فقد تئول التركة إلى ورثة كريك أو أحد أقاربه من الدرجة الثانية؛ وعليه كان لا بد أن تحوم الشبهة حول هذين الرجلين، ولكن كريك مفقود، والسؤال هو: هل هرب أم مات؟

ننتقل الآن إلى التحقيق. ظهر على السترة الخضراء غبارٌ من الأرض وطباشير على السترة من الأمام وآثار طباشير على الأزرار. وهذا يدل على أن مرتدي السترة إما زحف على أرض طباشيرية أو تسلَّق سطحًا طباشيريًّا، ولكن الآثار على الأزرار تُشير إلى التسلق؛ لأن السطح الأفقي عادة ما تغطيه التربة، أما السطح الرأسي فتكسوه طبقة الطباشير، لكن عامل الوقت أظهر لنا أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد سافر بعيدًا عن لندن. شوهد الرجل متجهًا إلى محطة جسر لندن في الوقت الذي يتحرك فيه القطار إلى كِنت. يذهب هذا القطار إلى ميدستون وجيلينجهام، ويتوقف في جريفسيند وسترود وسنودلاند وروتشستر وتشاتام وأماكنَ أخرى تكثر فيها التربة الطباشيرية وترتبط بصناعة الإسمنت. في هذه المنطقة، لا توجد منحدرات حقيقية، ولكن توجد العديد من المحاجر الطباشيرية وحواجز السكك الحديدية وعمليات الحفر الأخرى. أشارت الأدلة إلى واحدة من مناطق الحفر هذه. عُرف أن كريك توجه إلى روتشستر — في وقت مبكر من اليوم — مما جعل الإشارات تدور حول هذه المنطقة على الرغم من أنها أقل منطقة من حيث التربة الطباشيرية.

السؤال الذي طرح نفسه: ما نوع مكان الحفر الذي نزل فيه؟ ولأيِّ غرض كان تسلقه للنزول فيه؟ ولكن هنا أعطتنا شخصيةُ الرجل المفقود تلميحًا. كتب ميريل كتابًا لإثبات أن الحُفر الموجودة تحت سطح الأرض كانت تمثِّل مناجم لحجر الصوان في عصور ما قبل التاريخ. استكشف ميريل عددًا من تلك الحُفر ووصفها في كتابه. المنطقة التي يمرُّ بها القطار غنية على وجه الخصوص بالحُفر تحت سطح الأرض، ثم حدثت واقعة أخرى تشير إلى هذه المنطقة، وهي أن ميريل شوهد آخر مرة وهو يخرج من محل لبيع الحبال. حظيت هذه الواقعة الأخيرة بأهمية بالغة مما دفعني إلى المتابعة على الفور بالتوجه إلى إدجينتون. وهناك، تأكدت من أن ميريل أو رفيقه اشترى حبلًا بطول خمس عشرة قامة من الأحبال السلكية التي تُستخدم في أعماق البحار. باتت هذه الواقعة ذات أهمية بالغة. يبلغ الحد الأقصى لعمق الحفرة تحت سطح الأرض حوالي سبعين قدمًا؛ ومن ثمَّ خمس عشرة قامة — تسعون قدمًا — هي الطول المطلوب، مع وضع الحلقات وعُقد التثبيت في الحسبان. هذه الواقعة الجديدة أكَّدت فرضية وجود حفرة تحت سطح الأرض التي كانت شبه مؤكدة، لا سيما عندما يفكر المرء في مدى سهولة أن تكون هذه الحُفر الخطيرة

مكانًا للحوادث المميتة أو لعمليات الاغتيال؛ وعليه تبنَّيتُ اقتراح وجود حفرة تحت سطح الأرض على أنه فرضية صحيحة.

السؤال الثاني: أين هذه الحفرة؟ كان هذا السؤال صعبًا على نحو استثنائي. بدأت أخشى ألا توجد إجابة عن هذا السؤال بسبب استحالة حلِّه، ولكن في هذا الوقت ظهرت بعض الأدلة المساعدة من هذه البقعة. أعطيت المعطف لبولتون لاستخراج الغبار وأخبرته أن يغسل كُتَل الطباشير الصغيرة بحثًا عن مادة المنخربات.»

سأل برودريب: «ما هي مادة المنخربات؟»

«إنها عبارة عن أصداف بحرية متناهية الصغر. يتكون الطباشير بدرجة كبيرة من هذه الأصداف، وعلى الرغم من أن الطباشير ليس من الصخور المحلية على الإطلاق، كان هناك قدرٌ كبير من التباين في المنخربات الموجودة في الأماكن المختلفة؛ ومن ثَمَّ طلبت غسل الطباشير باعتبار ذلك مسألة روتينية. كان الغبار تأكيدًا على الفرضية ولكن لم يكشف كل شيء؛ فقد كان هناك غبار من السكك الحديدية، من نوع الطباشير في المنطقة الجنوبية الشرقية — أظن أنك تعرفها — وغبار الطفال، وحبوب لقاح نباتات الخباز، والناردين التي تنبت في مناجم الطباشير، وبعض قشور من أجنحة فراشات زرقاء منتشرة، وهذه الفراشات تتردد على التربة الطباشيرية، وأظن أنه لمس فراشة ميتة، ولكن كل هذا سيُجيب عن قدرٍ كبيرٍ من الأسئلة بشأن مقاطعة كِنت. ثم فحصت مادة المنخربات وحددتُ الأنواع بناءً على الألواح في التمثيل البياني الأحادي لورنفورد. زادتني النتائج حماسًا. اشتملت جميع العينات على تسعة أنواع، وتم تحديد خمسة منها بأنها توجد في التربة الطباشيرية في جريفسيند، واثنين من التربة الطباشيرية في كِنت. أذهلتني النتيجة كثيرًا؛ فأكثر من نصف مادة المنخربات المتضمنة وُجد في طباشير جريفسيند.

المشكلة الآن في تحديد المعنى الجيولوجي لكلمة جريفسيند. استبعدتُ روتشستر لأنني سمعت أنها لا توجد بها حفر تحت سطح الأرض واطلعت على كتاب ميلر وخريطة هيئة المساحة ذات مقياس الرسم الكبير. عمل ميريل في منطقة جريفسيند والجزء المتاخم لها في إسكس وكتب قائمة بالحفر تحت سطح الأرض التي استكشفها ومنها حفرة كلابر نابر في سوانسكومب وود، ولكن بالاطلاع على خرائط هيئة المساحة لديه، وجدتُ حفرة تحت الأرض محددة في الخريطة ولم تكن ضمن قائمة الحفر. ولما اتضحت ضرورة البحث في جميع الحفر في المنطقة، قررت البدء بالحفرة التي بدا أنها مفقودة. وهناك، حالفنا الحظُّ. وتبين أنها الحفرة المقصودة.»

برودريب: «لا أرى أنه حالفنا الحظُّ كثيرًا. أنت حسبت الاحتمالات واعتمدت أكثرها أرجحية.»

ثورندايك: «على أية حال، وجدنا ميريل ووجدنا كريك وبمجرد أن رأيتهما عرفت أن هوردر هو القاتل. وحتى تكمل الصورة، من الواضح أنه اتخذ الترتيبات بحيث يظهر أن كريك قد مات قبل ميريل وإظهار هوردر على أنه وريث ميريل.»

برودريب معلقًا: «مؤامرة شيطانية وبارعة للغاية أيضًا. على أية حال، أيٌّ منهما مات أولًا في رأيك؟»

ثورندايك: «ميريل بلا شك.»

برودريب: «ستكون هذه أخبارًا سارة لأقرب أقرباء كريك. وأنت لم تنتهِ من هذه القضية بعد يا ثورندايك. وسأعود إليك في مسألة انتقال التركة إلى الورثة.»

الفصل الثالث

# خاتم نبوخذ نصر

قلتُ: «ثورندايك، أظن أن آثار الأقدام ستقودنا إلى معلومات كثيرة إذا أنعمت التفكير بشأنها.»

القضية فرضَتْها الظروفُ حين توقَّف صديقي وانحنى لتفحُّص حفرةٍ صغيرةٍ محفورة في التربة الطينية التي تكسو الطريق وحفرها أحدُ المارة بعصًا يتوكأ عليها. ومنذ أن سلكنا هذا الطريق — الذي وجَّهَنا إليه ناظرُ محطة بينويل جانكشن وقال إنه طريقٌ مختصر لوجهتنا — لاحظتُ صديقي يدقِّق النظر في سطح الطريق؛ إذ تظهر عليه العديدُ من آثار الأقدام، وكأنه يُعيد بناء شخصيات الكثيرين ممَّن سلكوا هذا الطريق قبلنا. أعلم أن هذه عادة لديه، وربما يمارسها لا إراديًّا؛ ومن المؤكد أن الظروف الحالية هيَّأت له ممارسة هذه العادة حيث إن الطريق يقطع غابةً صغيرة، كما أن السطح اللين الرطب تظهر عليه الآثارُ واضحة وكأنها محفورة على شمع الصب.

أجاب: «نعم، ولكن يجب أن تفعل ما هو أكثر من التفكير. تحتاج إلى تدريب عينَيك على ملاحظة الخصائص المميزة البارزة.»

قلت مبتسمًا: «مثل هذه الخصائص المميزة.» وأشرتُ إلى أثرٍ واضحٍ لنعلٍ مطاطي من نوع «إنفيكتا» من شركة كوكس ومطبوع عليه علامته التجارية وهي الحصان الجامح.

ابتسم ثورندايك قائلًا: «الرجل الذي يرتدي هذا النعل ما هو إلا وكيل إعلانات. ومَن يركض يمكنه قراءة هذه الخصائص المميزة، ولكن مع وجود الآلاف ممَّن يرتدون نعال «إنفيكتا»، فلا تُحدد الملاحظة صاحبَ النعل إلا على أنه فرد ضمن مجموعة كبيرة. يجب السير لمسافة أطول لتحديد هوية الفرد؛ وإلا فالأحرى أن تكون آثار النعل القياسية مضللة أكثر من كونها مفيدة. عادةً ما تحوِّل العلامات المميزة البارزة انتباه المبتدئ عن

الخصائص المميزة الأوضح التي يمكن أن يبحث عنها في أثر واضح مثل أثر الشخص الذي كان يرافق هذا الرجل.»

سألت: «ما أدراك أنه رفيق له؟ سلك الرجلان الطريق نفسَه، ولكن ما الدليل على أنهما رافقَا بعضهما؟»

«أدلة كثيرة، ستجدها إذا تتبَّعت سلسلة الخطوات، كما أفعل الآن. بدايةً توجد خطوة واسعة. كان الرجلان طويلَي القامة، كما هو واضح من مقاس أقدامهما، ولكن لا شك أن كليهما كان يمشي بخُطًى ضيقة. والخطوة الضيقة للرجل صاحب النعل الجلدي تفسِّرها الطريقةُ التي يضع بها عصاه. كان يُمسكها بقوة ويتكئ عليها قليلًا كي يساعد نفسه بها. يوجد أثرٌ واحد للعصا كلَّ خطوتَين؛ وكلُّ أثرٍ لقدمه اليسرى يقابله أثرُ العصا. والرأي أنه رجل مسنٌّ أو ضعيف أو واهن، ولكن صاحب النعل المطاطي كان يسير بعصاه بخُطًى عادية. يوجد أثر واحد للعصا مقابل أربع خطوات. ولا ينبغي تفسير خطواته القصيرة غير الطبيعية على افتراض أنه مشى بخُطًى ضيقة لمواكبة الرجل الآخر.

عادة ما تجد مجموعتَي آثار الأقدام منفصلتَين؛ فالرجل لم يأتِ على خُطى الرجل الآخر ولم تساير عصاه عصا الآخر، باستثناء الأماكن التي يضيق فيها الطريق بحيث لا يتسع للاثنين، ولا توجد سوى حالة واحدة لاحظتُ فيها النعال المطاطية تطأ آثار النعال الجلدية، وفي تلك البقعة تعلو آثارُ النعال الجلدية آثارَ النعال المطاطية. وبالطبع هذا دليل دامغ بأن الرجلين وُجِدَا هنا في الوقت نفسه.»

أنا؛ موافقًا: «وهذا يُجيب عن السؤال من دون التباس الأمر بشأن الخُطى، ولكن على كلٍّ يا ثورندايك هذه مسألة استنتاج كما قلتَ؛ أي أنها مبنية على التفكير في آثار الأقدام وما تدل عليه. فالأمر لا ينطوي على حدة خاصة في الملاحظة أو تدريب على الرؤية. الحقائق المجردة واضحة تمامًا، ولكن تفسيرها هو ما يؤدي إلى المعرفة.»

قال: «هذا صحيح حتى الآن، ولكننا لم نعدم حِيَلَنا بعدُ. أنعم النظر في آثار العصوَين وأخبرني هل ترى أيَّ شيء مميز في أيٍّ منها؟»

توقفتُ وتفحصتُ بعض الحفر التي أحدثتها العصوان في الطريق، وفي حقيقة الأمر لم أستطع التفريقَ بينها كثيرًا.

قلت: «تبدو متشابهة كثيرًا. عصا صاحب النعل المطاطي أكبرُ من عصا الرجل الآخر كما أن عصا صاحب النعل الجلدي أحدثت حُفَرًا أعمق، قد يكون السبب في ذلك أنها أصغر وأن الرجل كان يتوكأ عليها بحمل أثقل.»

هزَّ ثورندايك رأسه: «أنستي، لقد غاب عنك ما أرمي إليه بسبب أنك لم تلاحظ الحقائق المرئية. وما أرمي إليه واضح تمامًا وربما يكون بالغ الأهمية في ظروف معينة.»

قلت: «حقًّا، ما الذي ترمي إليه؟»

قال: «سأترك لك الاستنتاج من الحقائق المرئية، وهي؛ أولًا: آثار العصا الصغرى على الجانب الأيمن من الرجل الذي كان يتوكأ عليها؛ ثانيًا: كلُّ أثر مسطح قليلًا باتجاه الأمام من الجهة اليمنى.»

تفحصتُ الآثار بعناية وتحققت مما قاله ثورندايك.

قلت: «ماذا عن تلك الآثار؟ ما الذي تُثبته؟»

ابتسم ثورندايك وكأنه يئس. قال: «يمكن التوصل إلى الدليل عن طريق الاستنتاج من الوقائع. صديقي المثقف لديه الوقائع. وإذا درسها، فستظهر النتيجة.»

قلت: «ولكني لا أرى المغزى الذي ترمي إليه. الأثر مسطح قليلًا من جانب واحد، وأظن أن السبب في ذلك هو تآكل الحلقة المعدنية في طرف العصا من ذلك الجانب، ولكني أكرر، ماذا عن تلك الآثار؟ هل تتوقع مني أن أستنتج سببَ تلاشي آثار العصا التي تخصُّ ذلك الرجل من جانب واحد؟»

ثورندايك: «لا تنفعل يا أنستي. حافظ على هدوئك الرصين. أؤكد لك أن هذه المسألة مثيرة جدًّا للاهتمام.»

رددت: «ربما، ولكني أتعجب إذا كان بإمكاني تخيُّلُ سببِ إمساكه لعصاه بتلك الطريقة. الأمر لا يهمُّ حقًّا على أية حال. إنها ليست عصاي، وها هو برودريب الكبير بجانب جينجو وقد لحقَا بنا ونحن نُضيع وقتنا في حديث أكاديمي ونعطل أعماله. لنؤجل المناقشة.»

أتت بنا المناقشة إلى بداية الغابة وهنا استطعنا تمييزَ شكل المحامي. وعندما وقعت عينُه علينا، أسرع إلينا ملوِّحًا بيده.

قال متعجبًا: «يا لكم من رجال! ظننتُ أنكما ستسلكان هذا الطريق، وجيد أنكما أتيتما على أية حال، خاصة أن المسألة مجرد مسألة شكلية.»

سأل ثورندايك: «ما الأمر؟ وصلني تلغراف منك يقول إن جريمة انتحار ارتُكبت. هل أعتبر أن هناك ما يستدعي إجراء تحقيق؟»

برودريب: «لا أعلم إن كان هناك أسباب أم لا، ولكن المتوفَّى مؤمَّن عليه بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه؛ وبالتالي ستضيع من التركة إذا تأكد ارتكاب الانتحار؛ ولذا أقترح على زميلي

أن الأمر يستحق تكليف خبير للتأكد هل الأمور جرَتْ كما هو ظاهر أم لا. الحكم بأن الموت كان عن طريق الخطأ سيوفر لنا ثلاثة آلاف جنيه. هذا هو الموضوع باختصار.» مع الختام، غمز المحامي الكبير بمكرٍ مبالغ فيه ووكز كوعه في ضلوعي.

تجاهل ثورندايك مزحة اقتراح الرشوة والفساد وسأل بأسلوب جادٍّ: «ما هي ملابسات القضية؟»

برودريب: «أفضِّل أن أعطيَك نبذة عن القضية قبل أن نذهب إلى المنزل. المتوفَّى هو مارتن رولاندس، شقيق جاري في حي نيو سكوير، توم رولاندس. وجد توم الكبير البائس التلغراف منتظرًا عندما وصل إلى المكتب هذا الصباح؛ ومن ثَم اندفع إلى مكتبي على الفور ومعه التلغراف وتوسَّل إليَّ كي آتيَ إلى هنا معه؛ وبالتالي أتيتُ. ولم أستطع أن أرفض طلب محامٍ زميل. إنه ينتظر في المنزل الآن.

إليك الأحداث؛ عندما أنهى رولاندس عشاءَه في الليلة الماضية، خرج للتمشي. هذه عادته في شهور الصيف، في هذه الأيام يظلُّ الجو مضيئًا حتى التاسعة والنصف تقريبًا. وكانت هذه آخر مرة يراه الخدم على قيد الحياة. لم يرَه أحدٌ يدخل البيت مرة أخرى، ولكن لم يكن هناك شيءٌ يُثير الغرابة في ذلك؛ لأن لديه مدخلًا خاصًّا في الملحق الذي يتضمن مكتبتَه ومعرضه وغرفة عمله. وعندما يعود من جولة التمشي، عادة ما يدخل إلى المنزل بتلك الطريقة ويذهب مباشرة إلى مكتبه أو غرفة عمله ويقضي الليل فيها؛ وبالتالي نادرًا ما يراه الخدم بعد العشاء.

في الليلة الماضية، من الواضح أنه خرج كعادته، ولكن عندما ذهبتِ الخادمة إلى غرفة نومه في هذا الصباح بكوب الشاي الصباحي، انذهلَتْ حين وجدَت الغرفة فارغةً وأن الفراش مرتَّبٌ. أبلغتْ مدبِّر شئون المنزل على الفور واتخذَا طريقهما إلى الملحق. ولمَّا وصلَا وجدَا أن باب المكتب مغلقٌ ولا أحدَ يردُّ بعدما طرقَا عدة مرات؛ ومن ثَم ذهبَا إلى الحديقة للبحث. باتَت نافذةُ المكتب محكمةَ الغلق ولكن لم تكن نافذةُ غرفة العمل كذلك؛ ومن ثَم تمكَّنَا من فتحها من الخارج. بعد ذلك، دخلت الخادمة من النافذة وذهبت إلى الباب الجانبي وفتحتْهُ وأدخلت مدبر شئون المنزل. ذهب الاثنان إلى غرفة العمل ولمَّا كان البابُ المتصل مع المكتب مفتوحًا، تمكَّنَا من الدخول إليه ووجدَا مارتن رولاندس جالسًا في كرسيٍّ ذي ذراعَين بجانب الطاولة ميتًا وجسده باردٌ ومتيبسٌ. كان على الطاولة دورق ويسكي وأنبوب شفط به ماء صودا وعلبة سيجار وطفاية سجائر بها عقب سيجار وزجاجة صغيرة بلاصقة تُشبه الصحف الشعبية المصورة تحتوي على سيانيد البوتاسيوم.

انطلق مدبر شئون المنزل من فوره إلى الطبيب وأرسل تلغرافًا إلى توم رولاندس في مكتبه. وصل الطبيب في حوالي الساعة التاسعة وقال إن المتوفَّى مات منذ اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. بدا أن سبب الوفاة هو التسمم بالسيانيد، ولكن بالطبع سيتأكد هذا الرأيُ أو يُرفض بناءً على تشريح الجثة. هذه هي جميع الوقائع المعروفة حتى الآن. ساعد الطبيب الخدم على وضع الجثة على الأريكة، ولكن لما كانت الجثة متيبسةً كقطع اللحم المجمدة، فربما تركوها في مكانها.»

سألتُ: «هل استدعيتم الشرطة؟»

ردَّ برودريب: «لا، وعلى حدِّ ما يرى كلٌّ منَّا، لم تكن هناك ملابساتٌ تُثير الشك، ولا أعرف أنه كان يجب أن أشعر بضرورة استدعائهم — على الرغم من كوني أحبُّ التعرف على رأي ثورندايك دائمًا في قضايا الموت المفاجئ — باستثناء شبهة الحصول على التأمين.»

هزَّ ثورندايك رأسه قائلًا: «يبدو أنها قضية انتحار مباشرة. وفيما يتعلق بحالة المتوفَّى، أظن أن شقيقه سيُعطينا أيَّ معلومات ضرورية.»

ردَّ برودريب: «نعم، في الحقيقة، أظن أن مارتن مرَّ بمرحلة قلق مؤخرًا، ولكن سيُخبرك توم عن هذا الأمر. ها قد وصلنا.»

دخلنا من بوابة تفتح على حديقة منزل كبير وإن كان متواضعًا، ولما اقتربنا من الباب الأمامي، فتح لنا رجل ذو شعر يخضبه البياض يعرفه كلانا جيدًا من منطلق مهني. رحَّب بنا ترحيبًا حارًّا، وعلى الرغم من ظهور الصدمة عليه من هذه الفاجعة، جاهد نفسه كي يبقى هادئًا وكأن شيئًا لم يكن.

قال: «الأفضل أن ننزل إلى الطابق السفلي، ولكن أخشى أن نزعجك بدون داعٍ. بيد أن برودريب رأى أنه من الأفضل اتخاذ احتياطات أكثر وجعل سلطة مختصة تطلع على ملابسات القضية؛ إذ لا يوجد ما يُثير القلق في القضية باستثناء حدوث الوفاة. يمكنني القول إن أخي كان أعقلَ الناس، ولا يوجد في عائلتنا أحدٌ ارتكب جريمة الانتحار من قبل. ألا يكون من الأفضل رؤية الجثة أولًا؟»

لما نزل ثورندايك، تقدَّمنا إلى نهاية الردهة ومنها إلى الملحق، دخلنا إلى غرفة الدراسة وكان بابُها مفتوحًا وقتئذٍ على الرغم من أن المفتاح لا يزال في القفل. لا تزال الأشياء التي ذكرها برودريب على الطاولة، ولكنَّ الكرسيَّ فارغ، والمتوفَّى الذي كان يجلس عليه مستلقٍ على الأريكة ومغطًّى بقطعة قماش كبيرة. تقدم ثورندايك إلى الأريكة ورفع القماش برفق

وكشف عن جثة الرجل ووجده مرتديًا ملابسه كاملة ومستلقيًا على ظهره بطريقة غريبة ورجله مرفوعة وأطرافه المتيبسة مبسوطة. كان هناك شيءٌ غير طبيعي بشكل غريب ومرعب في مظهر الجثة؛ فعلى الرغم من أنها كانت مستلقية، إلا أنها كانت تتخذ وضعية الجلوس؛ وبالتالي كانت تُشبه تمثالًا حقيقيًّا إلى درجة بعيدة وكأن هذا التمثال أُخذ من كرسي ووُضع على الأرض. وقفتُ أنظر إلى الجثة من مسافة قصيرة كأيِّ رجل عادي ينفر من وجود جثة في المكان، ولكني ظللتُ أنظر إليها باهتمام وشيء من الفضول. بعد فترة وجيزة، وقعت عيناي على نعل الحذاء — وكانت واضحة تمامًا في الحقيقة — ولغرابة القدر، لاحظتُ أن النعل المطاطي من نوع «إنفيكتا»، مثل النعال التي وقفنا نتناقش بشأنها في الغابة؛ حتى إنه من الممكن أن تكون آثار الأقدام التي رأيناها هي التي تركتها أقدام هذه الجثة المخيفة.

برودريب بلباقة: «أتوقع أن تُجريَ عملية الفحص بمفردك يا ثورندايك. وإذا احتجتَ إلينا، فستجدُنا في غرفة الضيافة.» وبذلك خرج وأخذ السيد رولاندس معه.

وبمجرد أن خرجَا، وجهتُ انتباهَ ثورندايك إلى النعل المطاطي.

قلت: «يا له من شيء غريب! أوَكنَّا نتناقش في آثار هذا الرجل البائس؟»

أشار ثورندايك إلى دبوس رسم داس عليه الرجلُ وعلق في كعب نعله المطاطي وقال: «في واقع الأمر، نعم. رأيت هذا الدبوس وقت المناقشة، ومن الواضح أنك لم تلاحظه. وهذا يوضح ما كنت أتحدث عنه وهو أن هذه الأنواع المميزة من النعال عادةً ما تُشتت الانتباه عن العلامات الفردية التي لها أهمية كبيرة حقًّا.»

قلت: «إذن، إذا كانت تلك الآثار هي آثار أقدامه، فالرجل صاحب العصا المميزة كان معه. إني أتساءل مَن هو. أظن أنه جارٌ له كان يتمشى معه إلى المنزل من المحطة.»

ثورندايك: «ربما، ولما كانت آثارُ الأقدام جديدة — ربما طُبعَتْ في الليلة الماضية — فيمكن طلبُ هذا الشخص بصفته شاهدًا عند التحقيق باعتباره آخرَ شخص رأى المتوفى حيًّا. وهذا يعتمد على الوقت الذي تمشَّيَا فيه.»

رجع إلى الأريكة وفحص الجثة فحصًا منهجيًّا وأمعن النظر إلى الفم واليدين. بعد ذلك فتش الغرفة وتفحص الأشياء التي على الطاولة والأرض تحتها، ثم انسل إلى غرفة العمل المجاورة وهناك أطلَّ في حوض المختبر العميق وأخذ قدحًا فارغًا من فوق الرف ورفعه في الضوء وفتش الرف — وأوضحت حلقة التصريف الرطبة أن القدح وُضع لتصريف ما فيه — ومن غرفة العمل انتقل إلى ردهة صغيرة وخرج من هناك من الباب الجانبي ونزل إلى مسار محاط بعلامات ويؤدي إلى البوابة الجانبية ثم عاد مرة أخرى.

وفي طريق عودتنا إلى المكتب، قال ساخطًا: «كلُّ الأدلة سلبية باستثناء هذه الزجاجة التي بها لاصقة تُشبه الصحف الشعبية المصورة، وهذا دليل إيجابي على سبق الإصرار. هذا يبدو علبة سيجار جديدة. ومنقوص منها سيجاران. يوجد عقب في طفاية السجائر ورماد أكثر مما يخلفه سيجار واحد. لندخل إلى غرفة الضيافة ونسمع ما يُخبرنا به رولاندس.» خرج ومشى إلى الردهة ثم تبعتُه.

عندما دخلنا إلى غرفة الضيافة نظر إلينا الرجلان وسأل برودريب: «ما الذي خلصتمَا إليه؟»

ثورندايك: «لم نخلص إلى شيء في الوقت الحالي. لم يخرج إلى النور شيءٌ يناقض ما هو ظاهر حتى الآن، ولكني أودُّ سماع المزيد عن الأحداث التي سبقت تلك المأساة. ذكرتَ أن المتوفى عانى نوبةَ قلق في الفترة الأخيرة. ما السبب في هذا القلق؟»

رولاندس: «لا يوجد سببٌ على ما أظن، على الأقل في حالة رجل متزن العقل مثل أخي، ولكن دعْني أسردْ لك القصة كي أقول لك ما أعرفه والسبب فيما حدث على حدِّ علمي. إنها قصة قصيرة جدًّا.

منذ وقت قصير، أتى القائد كوهين إلى المنزل من بلاد الرافدين، وباع لتاجر اسمه ليون خاتمًا ذهبيًّا أسطوانيَّ الشكل اشتراه من حيٍّ في بغداد. الله أعلم كيف حصل عليه، ولكنه كان معه وعرضه على ليون الذي اشتراه منه بمبلغ عشرين جنيهًا. بالطبع لم يعرف كوهين شيئًا عن الخاتم؛ ولم يعرف ليون الكثير؛ فعلى الرغم من أنه تاجر، فإنه ليس خبيرًا، ولكنه مخادعٌ ألمعيُّ الذكاء، أو بالأحرى يمكن القول بأنه مُرمِّم؛ وبالتالي فهو يمتهن عملًا تجاريًّا مشروعًا تمامًا. عملُه الأساسي في الحلي وإصلاح الساعات، وهو الأذكى في مجاله ويتمثل عملُه في شراء الأنتيكات التالفة وترميمها. بعد ذلك، يبيعها لهواة جمْع الأنتيكات الصغار، وللأمانة التامة كان يبيعها على أنها أنتيكات مرمَّمة؛ وبالتالي ينبغي ألا أُطلقَ عليه لقب مخادع، ولكن كما قلت، ليس لديه معرفةٌ حقيقية بالأنتيكات وجلُّ ما رآه في خاتم كوهين هو أنه خاتمٌ ذهبيٌّ أسطوانيُّ الشكل وكان واضحًا أنه قديمٌ وأصلي؛ ومن ثَم اشتراه بضعف قيمة الذهب تقريبًا ولم يولِ الأمر اهتمامًا.

بعد أسبوعين تقريبًا، ذهب أخي إلى متجره في بيتي فرانس بويستمينستر لعمل بعض الإصلاحات، ولأن ليون يعرف أن أخي يجمع الأنتيكات البابلية، عرض عليه الخاتم، وبمجرد أن رآه مارتن عرف أنه أصلي وأنه شيء له قيمة وله أهمية؛ وبالتالي اشتراه على الفور مقابل أربعين جنيهًا من دون فحصه بدقة على الإطلاق؛ لأنه كان واضحًا أنه

يستحق هذا المبلغ على أية حال، ولكن عندما عاد إلى المنزل وطبع نسخة من الخاتم على قالب شمع، توصَّل إلى اكتشاف مذهل. أظهرت الطباعة كتلةً من الحروف المسمارية الدقيقة، ولما فكَّ رموز هذه الحروف انتابته السعادة والدهشة عندما علم أن هذا الخاتم ما هو إلا خاتم نبوخذ نصر.

لم يكَدْ يصدِّق أنه يمتلك هذه الثروة، ثم انطلق من فَوره إلى المتحف البريطاني وعرض كنزَه على مشرف الأنتيكات البابلية وأكَّد هو الآخر هوية الخاتم ورغب أن يحصل عليه لعرضه في المتحف. بالطبع لم يرغب مارتن في بيعه، ولكنه سمح للمشرف أن يسجِّل وزن الخاتم وقياساته وأن يطبعَه على صلصال لعرضه في حالة عمل نُسَخٍ من الخاتم.

في هذه الأثناء، بدا أن كوهين كان يُسلِّي نفسه بعمل عددٍ من الطبعات للخاتم على الصلصال قبل التصرف فيه. أخذ بعضَ هذه الطبعات إلى ليون الذي اشتراها مقابل مبلغ زهيد ووضع واحدةً في نافذة المتجر على أنها تحفة. وفي المتجر، شاهدها وتعرَّف عليها عالم آشوريات أمريكي، دخل إلى المتجر واشتراها ثم بدأ في طرح أسئلة كثيرة على ليون لمعرفة من أين حصل عليها. لم يُخفِ التاجرُ شيئًا، أعطاه اسمَ كوهين وعنوانه ولكنه لم يَقُل شيئًا عن الخاتم. في الحقيقة، لم يكن الرجل يُدرك الصلة بين الخاتم والنُّسَخ غير الأصلية؛ لأن كوهين باع له الخاتم المزيف على أنها ألواح صلصال أصلية عثر عليها في بلاد الرافدين على حدِّ قوله، ولكن بالطبع الخبير رأى أن النسخة غير الأصلية مصنوعةٌ حديثًا ولا بد أن الخاتم مع أحد ما.

بناءً على ذلك، ذهب الرجل إلى كوهين وطرح عليه أسئلة كثيرة، مما دفع كوهين إلى الشعور بأن في الأمر شيئًا. اعترف أن الخاتم كان معه، ولكنه رفض أن يبوح بما آل إليه أمرُ الخاتم حتى يُخبرَه الخبير عنه والثمن الذي يستحق أن يُباع به. أخبره الخبير على مضض وبسريَّة تامة، وعندما علم كوهين أن الخاتم هو خاتم نبوخذ نصر وأنه يستحق مبلغًا يصل إلى عشرة آلاف جنيه، أصيب بالإغماء تقريبًا، ثم خرج مع الخبير إلى متجر ليون.

لكن أحسَّ ليون أن هناك خطبًا ما كذلك. رفض ليون رفضًا قاطعًا أن يبوح بمكان الخاتم؛ ولما خمَّن الآن أن النُّسَخ غير الأصلية كانت نُسَخًا من الخاتم، أخذ واحدة منها إلى المتحف البريطاني، وبالطبع كانت السيارة في انتظارهم بالخارج. ومما زاد الأمر تعقيدًا هو تحدُّث عالم الآشوريات البروفيسور بيتمان بحريَّة إلى أصدقائه الأمريكيين في الفندق، ونتيجة لذلك حوصر متجر ليون من قِبَل جامعي التحف الأثرياء من أمريكا وكانوا جميعًا

يطلبون الخاتم بأيٍّ ثمن يريده. وفي النهاية لما وجدوا أنه لا طائل من ليون، ذهبوا إلى المتحف البريطاني وعرفوا أن أخي معه الخاتم وأخذوا عنوانه، أو بالأحرى عنواني؛ إذ إنه لحسن الحظ أعطى عنوان مكتبي على أنه عنوانه؛ ومن ثَم انهال عليه سَيلٌ من الرسائل الواردة منهم ومن كوهين وليون.

لم يكن الموقف مريحًا. كان كوهين كالمجنون. أخذ يُقسِم أن ليون خدَعه وطلب إما إعادة الخاتم أو دفع السعر المناسب. ليون من جانبه كاد أن يزأر كأسد يهوذا، وطلب المطلب نفسه؛ وعرض جامعو التحف أصحاب الملايين مبالغَ طائلة مقابل الخاتم. انتاب مارتن البائس القلق إزاء هذا الأمر. أصابه الاستياءُ من كوهين على وجه التحديد؛ وذلك لأنه هو مَن عثر على الخاتم وكان جنديًّا معاقًا، جُرح في ساقَيه وأصيب بعاهة العرج المستديمة. أما ليون، فلم تكن لديه مظلمة؛ إذ كان تاجرًا ووجب عليه أن يعرف قيمة مقتنياته الخاصة، ولكن لم يحالفه الحظُّ هو الآخر. وأيضًا، أخذ جامعو التحف يضايقونه كلَّ يوم بالتوسلات والعروض السخية. أصيب هو الآخر بقلق بالغ. ربما أتَوا إلى هنا لرؤيته، ولكنه استطاع أن يحتفظ بعنوانه الخاص سرًّا.

لا أعرف ماذا كان ينوي بشأن الخاتم، ولكن ما فعله هو أن رتَّب معي أن يستعير مكتبي الخاص وأن يحدد يومًا مشهودًا لعقد اجتماع مع كلِّ هؤلاء الناس ومحاورتهم؛ ليون والبروفيسور وأصحاب الملايين بمختلف نوازعهم. انعقد الاجتماع منذ ثلاثة أيام، حضر الجميع؛ ولهذا السبب نفسه، كان أحدُهم أحمقَ وخطيرًا خرج للتمشي وأخذ قبعة وشمسية ليست ملكه.»

برودريب: «هل خرج للتمشي بقبعتك؟»

«لا، ولكنه أخذ عصاي؛ عصًا جيدة وقديمة كانت لأبي.»

سأل ثورندايك: «ما نوع العصا التي تركها بدلًا منها؟»

رولاندس: «يجب أن أعترف أن للرجل عذرَه؛ فالعصا التي تركها كانت تُشبه عصاي تقريبًا. لا أظن أنه يجب أن أقول ذلك، ولكن هذا ما أشعر به. عندما بدأتُ أمشي بها، أدركت أن هناك شيئًا غير عادي في ملمسها.»

ثورندايك مقترحًا: «ربما لم يكن طولها هو طول عصاك.»

رولاندس: «لا، ليس الأمر كذلك. لا توجد مشكلة في الطول، ولكن كان هناك فرقٌ بسيط للغاية؛ لأنني أعسرُ وأحمل عصاي في يدي اليسرى، فربما يكون طرف العصا تآكل من الجهة اليسرى، إذا كان هذا الأمر ممكنًا. سأذهب وآتي بالعصا لك كي تراها.»

خرج من الغرفة ورجع بعد لحظات ومعه عصًا قديمة من قصب الملاكا، وكانت قبضتُها المصنوعة من العاج مثبتةً بشريط فضي عريض. أخذها ثورندايك منه وأبدى درجة من الاهتمام والانتباه في فحصها مما جعلني أندهش؛ فحادثةُ فقدان عصا رولاندس حادثة صغيرة ولم تشغلنا. وعلى الرغم من ذلك، تفحَّصها صديقي بطريقة منهجية أكثر؛ إذ تفحَّص القبضة والشريط الفضي والطويق؛ خاصة الطويق الذي تفحَّصه وكأنه شيءٌ نادر جدًّا ولافت للانتباه.

ابتسم برودريب ابتسامة ماكرة وقال: «لا داعي للقلق بشأن عصاك يا توم. سيُعيدها ثورندايك إليك إذا طلبت منه بأسلوب حسن.»

أعاد ثورندايك العصا وقال: «أرجو ألَّا يكون إعداد قائمة بالزائرين الذين وُجهت لهم الدعوة في ذلك اليوم أمرًا صعبًا.»

رولاندس: «ستجد أسماءهم في دفتر المواعيد. يجب أن أبحث عنهم. أتذكَّر بعضهم وهم كوهين وليون وبيتمان واثنان أو ثلاثة من هواة جمع الأنتيكات، ولكن لنطَّلع على السجل. لا أعرف ما الذي جرى في الحوارات أو ما الذي نوى مارتن فعله، ولكن لا شك أنه كتب بعض الملاحظات عن الموضوع. بالطبع لا بد أن أبحث عنها لأنه ينبغي أن نحلَّ أمر الخاتم.»

ثورندايك: «على أية حال، أين الخاتم؟»

رولاندس: «لماذا؟ إنه هنا في الخزنة، وإذا لم يكن فيها، فلا بد أنه أخذه إلى البنك.»

ثورندايك: «أظن أنه في الخزنة بلا شك.»

رولاندس: «لا، على الأقل ...» ووقف فجأة ثم قال: «لم أرَه. ربما من الأفضل أن نتأكد.»

أسرع إلى المكتب وتوقف فيه وأخذ ينظر إلى الجثة المغطاة. قال بصوت خافت: «ستجد المفتاح في جيبه.» ثم اقترب من الأريكة ببطء وعلى مضض ورفع الغطاء برفق من على الجثة، وبدأ البحث في جيوب الرجل الميت.

وبعد مدة قال: «ها هي المفاتيح.» وأخرج عددًا من المفاتيح وعزل واحدًا يبدو أنه يعرفه. عبر الغرفة إلى الخزنة وأدخل المفتاح وفتح الخزنة.

هتف بارتياح واضح: «يا إلهي! كلُّ شيء على ما يرام. سؤالك أعطاني طرف الخيط. هل فتح العلبة ضروري؟»

أمسك علبة محكمة الغلق مكتوب عليها «خاتم نبوخذ نصر» وأخذ ينظر إلى ثورندايك في تساؤل.

أجاب ثورندايك بابتسامة لطيفة: «الأمر لا يحتاج إلى سؤال.»

رولاندس: «نعم، أظن أن هذا أفضل.» وبذلك قطع الخيط المربوط ونزع القفل وفتح العبوة وأخرج علبة صغيرة من الورق المقوَّى تحتوي على شيء أسطواني الشكل ملفوف في قطعة من الورق.

أخرج رولاندس ما كان بداخل العبوة وأزال الورقة وعرض أسطوانة صغيرة من الذهب محفور على جميع جوانبها حروف مسمارية دقيقة. كان الخاتم بطول بوصة وربع تقريبًا وبسُمك بوصة تقريبًا وبه ثقب محفور ويمرُّ محورُه من الطرف إلى الطرف.

رولاندس: «أرى أن هذه الورقة تحتوي على نسخة من وصف الخاتم الذي كتبه المشرف؛ وزنه وأبعاده وما إلى ذلك. يمكننا أن نعتنيَ بذلك أيضًا.»

ناول الأسطوانة الصغيرة إلى ثورندايك حيث إنه أمسكها بلطف بين أصابعه ونظر إليها وقد تصاعدت أنفاسه. في الحقيقة كان الخاتم صغيرًا، ولكن به شيء مثير للإعجاب في مظهره وفي فكرة أنه يخصُّ ملكًا عظيمًا مثل نبوخذ نصر وربما ارتداه هذا الملك في العصور البعيدة شبه الأسطورية، شكله مألوف للغاية غير أنه من زمن سحيق؛ ولذلك فكرت وأنا أشاهد ثورندايك يتفحص هذا الشيء الصغير المهيب بطريقته العلمية الدقيقة والغريبة، إذ كان يفحص الحروف الدقيقة باستخدام عدسته، وأخذ يُنعم النظر في الطرفين وينظر من خلال الثقب المركزي.

قال وهو يسترق النظر إلى الورقة التي يحملها رولاندس: «أرى أن المشرف لم يكتب سوى قطرٍ عرضيٍّ واحدٍ، وحسبما أرى، ربما ظنَّ أن الخاتم أسطوانة حقيقية، ولكنه ليس كذلك. فالقطر متباين. فهو ليس دائرةً منتظمة وجوانبه ليست بالتوازي المثالي.»

أخرج من جيبه مقياس معايرة وأغلق الفكَّين على الأسطوانة وأخذ قراءة الورنية. ثم قلب الأسطوانة على جانب حيث أصبح واضحًا أن المقياس غير متلامس مع أطراف الخاتم.

وعندما أقفل المقياس مرة أخرى وأخذ القراءة، قال: «يوجد فرق بقيمة مليمترين تقريبًا.»

برودريب: «يا لَك من رجل يا ثورندايك! فذلك المشرف لا يمتلك عينك الدقيقة في الحسابات، ولكن يبدو أن القياسات الدقيقة لا تهمُّ في واقع الأمر.»

ثورندايك: «ولكن على الجانب الآخر، القياسات غير الدقيقة لن تُفيدنا في القضية على الإطلاق.»

عندما أمسكنا الخاتم وتفحصناه جميعنا، أعاده رولاندس إلى العلبة وأرجعه إلى الخزنة، ثم عُدْنا إلى غرفة الضيافة.

برودريب: «قُل لي يا ثورندايك، ما الموقف من السؤال بشأن مبلغ التأمين؟ ماذا تقول فيه؟»

ثورندايك: «أظن أننا سنترك السؤال مطروحًا حتى تبدأ التحقيقات. يجب الإصرار على طلب تحليلٍ من خبير؛ فربما يخرج شيء إلى النور بشأن هذه القضية. يجب أن ننطلق إلى المحطة الآن. أتوقَّع أن لديك أعمالًا كثيرة ينبغي أن تنجزها.»

برودريب: «نعم، ولذا لن أعرضَ أن أتمشَّى معك. فأنت تعرف الطريق.»

اعتذر ثورندايك وأصرَّ على رفض ضيافة رولاندس الكريمة؛ ومن ثَم أخذ حقيبته التي تحتوي على أدوات البحث ولَمَّا تصافحنا مع صاحب المنزل، صحِبَنا إلى الباب وغادرنا.

ولما انطلقنا إلى الطريق، قلت: «ليست قضية مرضية بدرجة كبيرة، ولكن لا يمكنك إصابةُ الهدف في كل مرة.»

ثورندايك: «لا، ليس بإمكانك سوى مراقبة الوقائع وملاحظتها. وهذا يذكِّرني أن لدينا بعضَ البيانات التي ينبغي جمعُها في الغابة. سآخذ قوالب من آثار الأقدام هذه في حال تبيُّن أنها ذات أهمية. دائمًا ما يفيد هذا الإجراء الاحترازي، فوضوح آثار الأقدام يتلاشى مع الوقت.»

ارتأيت أن هذا الإجراء الاحترازي لا أهمية له، ولكن لم أُبدِ تعليقًا؛ وعندما وصلنا إلى الممشى عبر الغابة واختار أوضح آثار أقدام، شاهدتُه يُخرج من حقيبته علبةَ جصٍّ وزجاجةَ مياه وملعقةً ووعاءً مطاطيًّا صغيرًا، وتساءلتُ عما يدور في ذهنه. بدا واضحًا أن آثار نعال «إنفيكتا» تعود للرجل الميت، ولكن ماذا إذا كانت آثار أقدامه؟ وما استخدامات قوالب لطبع آثار قدم الرجل الآخر؟ كان الرجل مجهولًا، ولم يكن وجوده يُثير الشك حسبما أرى، ولكن عندما سكب ثورندايك الجصَّ السائل في زوج آثار الأقدام، شرع في إجراءٍ أعقد. وبخلط بعض الجص اللين، ملأ الأثرَين المتاخمين لعصا الرجل الغريب. بعد ذلك أخذ بكرةَ خيط من الحقيبة وقطع الخيط بطول ياردتين وشدَّ الخيط وثبَّتَه بطول الحفرتين من المنتصف بالضبط حتى استقرَّ الجصُّ وثبت في موضعه. بعد الانتظار إلى أن يجفَّ الجص، وبعد أخذ قوالب آثار الأقدام ووضعها في الحقيبة، رفع القالب الأول ثم الثاني برفق؛ وكان كلُّ قالب منهما صورةً طبق الأصل بلون أبيض ناصع من طرف العصا التي تركت الأثر المحفور على القالبين، وتم الوصل بينهما بطول الخيط مما كشف عن المسافة الدقيقة بين الأثرين.

لما وضع علامة بالقلم الرصاص على واحد من القوالب قلت: «أظن أن الخيط لمعرفة المسافة بين الخطوتين.»

أجاب: «لا، هذا لتحديد الاتجاه الدقيق الذي مشى فيه الرجل ولتحديد الجزء الأمامي في العصا والجزء الخلفي.»

لا أفهم شيئًا من هذا. تفكير ألمعي الذكاء، ولكن لماذا استخدمه على الأرض؟ ما الذي يمكن أن يُثبتَه؟

جال في عقلي بعضُ الأسئلة المبدئية، ولكن لم أتوصل إلى تفسير سوى الحقيقة الواضحة وهي أنه لا فائدة من تأجيل جمع الأدلة إلى ما بعد الحدث. لم أعرف ما هو الحدث الذي يقصده ولم أتوصل إلى أي شيء، أشار إلى سائق سيارة أجرة عندما وصلنا إلى فيكتوريا وأمر السائق أن يوصله إلى سكتولاند يارد.

عندما نزل من السيارة، قال: «الأفضل ألا تنتظر. لديَّ بعض الأعمال التي سأتحدث فيها مع ميلر أو المفوض المساعد وقد تستغرق بعضَ الوقت، ولكن سأكون في المنزل ليلًا.»

اعتبرتُ أن هذه دعوة لزيارته في مسكنه، وبالفعل زرتُه بعد العشاء وحاولت أن أخرج بأي معلومات منه ولكن من دون جدوى.

قال: «أرجو أن تعذرني على تملُّصي، ولكن هذه القضية تعجُّ بالتخمينات لدرجة أنني لا أستطيع التوصل إلى أيِّ استنتاج محدد إلى أن تصلَني المزيدُ من البيانات. قد أضع نظريات بدون أساس ثابت، ولكني سأنطلق صباح الغد في الثامنة والنصف لوضع بعض الاستنتاجات التي توصلتُ إليها محل الاختبار. وإذا رغب صديقي المثقف في أن يمنحني الدعم في هذه الرحلة الاستكشافية، فصُحبتُه شيء أفتخر به كثيرًا، ولكنها ستكون مهمة مراقبة من دون لفت الانتباه ومن المرجح ألَّا يحدث شيء.»

قلت: «سآتي وأراقب من بعيد. فمهمات المراقبة من دون لفت الانتباه تخصُّصي.»
غادرت والحيرة تتملَّكني أكثر من ذي قبل.

وفي الموعد المحدد في الساعة الثامنة والنصف من اليوم التالي، وصلتُ إلى مدخل مسكن ثورندايك. وجدت سيارة الأجرة منتظرة عند الرصيف ولما صعدت العتبة، ظهر زميلي على السُّلَّم. دخلنا مع بعضنا إلى سيارة الأجرة وانطلقنا من فورنا ومضينا إلى ميدل تمبل لين ثم إلى إمبانكمينت، ثم اتجهنا نحو الغرب. أول محطة توقفنا بها هي نيو سكوتلاند يارد، ولكن لم يتوقف ثورندايك أكثر من دقيقة أو دقيقتين. انطلقنا بعد

ذلك باتجاه ويستمينستر، وبعد بضع دقائق، وصلنا عند زاوية بيتي فرانس ونزلنا هناك ودفعنا الأجرة. تجولنا على مهل باتجاه الغرب ومررنا بسيارة كبيرة مغطاة وواقفة بجانب الرصيف، تقابلنا وقتئذٍ مع شخص مهم وهو المشرف ميلر، كان يرتدي آخر صيحات الموضة ويدخن سيجارًا. من الواضح أن الاجتماع مخطَّطٌ له، وبدأ ميلر الحديث من دون ديباجة: «كلُّ شيءٍ على ما يرام حتى الآن يا دكتور، غير أننا متأخرون. سنقع في مشكلة كبيرة إذا تأخرنا. يوجد رجلان بملابس مدنية منذ أن اتصلت ليلة أمس، ولم يحدث شيءٌ آخر حتى الآن.»

ثورندايك: «يجب ألَّا تتعامل مع الأمر على أنه حقيقة مؤكدة يا ميلر. إننا لا نتصرَّف إلا بناءً على احتمالات منطقية، ولكن قد نُخطئ الهدف في النهاية.»

ابتسم ميلر ابتسامة لطيفة: «أعلم يا سيدي. سمعتك تقول هذا من قبل. على أية حال، إنه موجود في الوقت الحالي؛ رأيته لتوِّي من نافذة المتجر، يا لَحظي! إنه هنا!»

تبعتُ نظراتِ المشرف ورأيتُ رجلًا كبيرًا وطويلًا بعضَ الشيء يمشي في الجهة المقابلة من الطريق. كان يمشي بخُطًى ثابتة ممسكًا عصًا ورأيت ظهره منحنيًا وكأنه يعاني ضعفًا، وفي يده التي لا تُمسك العصا علبةٌ خشبية صغيرة معلقة في حزام من القماش، ولكن ما لفت انتباهي بحقٍّ هي العصا التي يمشي بها؛ إذ ظهر لي بقدر ما أتذكَّر أنها نسخة طبق الأصل من العصا التي عرضها علينا توم رولاندس.

تابعنا سيرنا باتجاه الغرب وتركنا السيد ليون — على حسب ظني — أن يتجاوزنا. ثم استدرنا وتابعنا السير لمسافة قصيرة، ثم لاحظتُ رجلَيْن طويلَيْن بمظهر عسكري سبق أن التقينا بهما وظلَّا على مقربةٍ من خلفنا. وفي زاوية بيتي فرانس، أوقف السيد ليون سيارة أجرة؛ أسرع ميلر الخُطى ودخل إلى السيارة الكبيرة المغطاة.

لما فتح السيد ليون الباب ودخل السيارة، قال ميلر: «ادخل بسرعة. يجب ألَّا يغيب عن ناظرينا.» وبذلك دفعني أنا وثورندايك لركوب السيارة وبعد أن تحدَّث بكلمةٍ إلى السائق، دخل إلى السيارة ثم تبعه الرجلان بملابس مدنية. انطلقت السيارة وسارت بسرعة إلى أن أصبح يفصلها عن سيارة الأجرة بعض ياردات؛ ومن ثَم أبطأ السائق السرعة كي يمشيَ خلف سيارة الأجرة ويتبعها في حركة المرور الآخذة في التزاحم إلى أن اتجهنا إلى وايتويل، وهناك سمح سائقُنا لسيارة الأجرة أن تسبقَنا بعضَ الشيء. لَّما وصلنا إلى طريق تشارينج كروس، اقتربنا من سيارة الأجرة وظللنا خلفها مباشرة وسط الزحام المروري في مدينة ستراند. وحين استدار للعبور ليقف أمام فندق أكروبوليس، ظللنا نتبعه

وتجاوزناه في فناء الفندق حتى وصلنا إلى المدخل الرئيسي أولًا. في الوقت الذي دفع فيه السيد ليون أجرتَه، سبقناه في الدخول وانتظرنا في ردهة الفندق.

لما دخل خلفنا، توقَّف وأخذ ينظر من حوله حتى وقعت عيناه على رجلٍ قويٍّ البنية وحليقِ الذقن يجلس على كرسيٍّ من الخيزران، وحتى يلفت انتباه السيد ليون، نهض وتقدَّم إليه. وفي هذه اللحظة، لمسه السيد ميلر من كتفه مما جعله يستدير ويُبدي تعبيرَ إنذارٍ شديد اللهجة.

ميلر: «أعتقد أنك السيد موريس ليون. أنا ضابط تحقيق.» توقَّف وتسمَّرَت عيناه على التاجر الذي اصفرَّ لونُه حد الموت. ثم تابع قائلًا: «أنت تحمل عصا مشي وأعتقد أنها ليست عصاك.»

تنفَّس ليون الصُّعَداء قائلًا: «أنت محقٌّ تمامًا، ولكن لا أعرف مالكها. إذا كنت تعرفه، فسيسرني أن تُعيدَها إليه وتأتيَ بعصاي التي تركتُها له بالخطأ.»

قدَّمها إليه مترددًا، وأخذها ميلر منه وسلَّمها إلى ثورندايك.

ميلر: «هل هذه هي العصا؟»

تفحَّص ثورندايك العصا بسرعة ثم قلبها وأجرى فحصًا دقيقًا للطويق وانتهى بأخذ أبعادها بقطرين ومطابقة النتائج مع بعض الملاحظات المكتوبة.

تململ السيد ليون وضاق ذرعًا. قال: «ليست هناك حاجة إلى كلِّ هذا العناء. أخبرتكم أن العصا ليست عصاي.»

ميلر: «اهدأ إذن، ولكن يجب أن نتحدث على انفراد بشأن هذه العصا.»

وهنا التفت إلى أحدِ مسئولي الفندق الذي توجَّه إليه بتوجيه من أحد الرجلين اللذين يرتديان ملابس مدنية، وبنبرة يظهر فيها القلق اقترح عليه أن إجراء مقابلة العمل في غرفة خاصة في الجزء الخلفي من المبنى أفضلُ من الردهة العامة. تحرَّك الرجل كي يُريَنا الطريق وحينها اقترب الرجل الغريب الحليق الذقن من السيد ليون ومدَّ يده باتجاه العلبة الخشبية.

وبحيلة ذكية سأل: «هل آخذُ هذا الصندوق؟»

صدَّه ميلر بشدة وقال: «ليس الآن يا سيدي. سيتحدث إليك السيد ليون بعد فترة وجيزة.»

أبدى الآخرُ اعتراضًا شديد اللهجة: «ولكن هذا الصندوق يخصُّني، ومَن أنت؟»

ميلر: «أنا ضابط شرطة، ولكن إذا كان هذا الصندوق ملكك، فمن الأفضل أن تأتيَ معنا وتُبقيَ عينك عليه.»

لم أرَ رجلًا يظهر على وجهه القلقُ مثل صاحب الصندوق هذا، باستثناء السيد ليون الذي شحب لونه مرة أخرى، ولكن لما سار بنا المدير إلى الجزء الخلفي من الردهة، تبعَنا الرجلان في صمت بإشارة من المشرف وبقية الجمع، وصلنا إلى صالة أو غرفة انتظار صغيرة ذات أرضية رخامية، وحينها أغلق المدير الباب وخرج.

ميلر: «الآن، أريد أن أعرف ما بداخل هذا الصندوق.»

الغريب: «سأخبرك. يوجد به قطعة نحت وهي تخصُّني.»

أومأ ميلر قائلًا: «اسمح لنا أن ننظر إليها.»

لم تكن هناك طاولة، جلس ليون على كرسيٍّ ووضع الصندوق على ركبتَيه وفكَّ الشرائط وتملَّكت الرعشةُ أصابعه التي تساقطت عليها حباتُ العرق من جبينه. عندما فتح الصندوق، رفع الغطاء وأخرج رأسَ تمثالٍ صغير من الجصِّ، نسخة مصغرة من تمثال سانت سيسليا الذي صنعه النحات دوناتيلو، وكانت أكتاف التمثال مثبتةً بكراتٍ من الورق وقد أخرج ليون هذه الكرات بطريقة خرقاء، وعندما أخرج آخرها، رفع التمثال الصغير بحذرٍ بالغ وأعطاه لميلر كي يتفحصَه. أخذه الضابط منه برفقٍ، بعد أن ألقى نظرةً فاحصةً على الصندوق، وأمسكه بيديه كلتيهما ونظر إليه من دون ظهور أيِّ تعبير على وجهه.

قال بصوت مشوش بعض الشيء: «ملمسُه يدل على أنه رطب.» ثم نظر إلى ثورندايك وعينُه مليئة بالتساؤلات؛ ومن ثَم أخذ ثورندايك التمثال المصغَّر منه ووضعه في راحة يده وبدا أنه يقدِّر وزنه. ألقيتُ نظرةً خاطفة على ليون واندهشتُ حين لاحظت أن التاجر يراقب ثورندايك بنظرةٍ يظهر فيها الارتياع في حين أن الغريب لم يكن أقلَّ منه قلقًا.

تقدم الغريب وقال متوسلًا: «أقسمتُ عليك يا رجل أن تكون حريصًا! فأنت ستُسقطه!»

لم يكد الرجل يتنبَّأ بما سيحدث حتى تحقَّق. أسقطه بالفعل على الأرض بطريقة متعمدة ومدروسة تمامًا؛ وبالتالي سقط التمثال المصغر على ظهره على الأرض الرخامية وتفتَّت على الفور إلى مائة قطعة. كانت مسألة مذهلة، ولكن العجب الأكبر فيما حدث بعد ذلك. لما تناثرت الشظايا المكسورة التي بلون الثلج يمينًا وشمالًا، انفصلت أسطوانة معدنية صفراء من أحدها وتدحرجت ببطءٍ على الأرض. اندفع الغريب إلى الأمام وانحنى ليُمسكها، ولكن ميلر انحنى عليها هو الآخر وتقابلَا بالرأس ووجدت أن رأس المشرف هو الأصلب، حيث إنه نهض وهو يفرك رأسه بإحدى يدَيه ويعطي الأسطوانة بالأخرى لثورندايك.

سأل: «هلَّا أخبرتنا ما هذا يا دكتور؟»

ثورندايك: «نعم، إنه خاتم نبوخذ نصر، وهو بحوزة قتلة الراحل مارتن رولاندس الذي قُتل في الليلة قبل الماضية.»

لما انتهى من الكلام، انسلَّ ليون من فوق الكرسي وانبطح على الأرض دون مبالاة واندفع الغريب فجأةً نحو الباب حيث وجد نفسه على الفور في قبضة رجلٍ ضخم بملابس مدنية، ثبَّته الرجل على الفور وألبسه زميله الأصفاد.

لما أخذنا طريقنا إلى المنزل، قلت: «إذن، لم يكن لقوالب آثار العصا وآثار الأقدام ضرورةٌ على الإطلاق.»

ردَّ: «على النقيض من ذلك، إن لها أهميةً كبيرة. إذا لم ينجح الخاتم في شنق السيد ليون، فمن المؤكد أن هذه القوالب ستلفُّ حبل المشنقة حول رقبته.» (بالمناسبة، هذا ما حدث. دُحضت حجة الدفاع بأن السيد ليون تلقَّى الخاتم من شخصٍ مجهول بإخراج قوالب آثار أقدام السيد ليون وآثار عصاه في المحكمة، وهذا ما أثبت أن السجين كان في بينويل بصحبة المتوفَّى في الوقت الذي قُتل فيه أو قريبًا منه؛ وبالتالي ثبتت إدانتُه.)

قلت: «على أية حال، كيف توصَّلت إلى أن ليون هو مرتكب الجريمة؟ أظن أن الأمر بدأ من آثار العصا في الغابة. ما الذي يميز هذه الآثار؟»

«المميز في تلك الآثار أنها لعصًا من الواضح أنها ليست ملكًا لحاملها.»

قلت متعجبًا: «بربِّك يا ثورندايك! هل هذا ممكن؟ كيف لأثرٍ على الأرض أن يدلَّ على ملكية شيء؟»

ردَّ: «هذه نقطة تُثير الفضول، على الرغم من بساطتها في جوهرها، وهذا يعتمد على الطريقة التي تآكل بها طويقُ العصا. في العصا المتناسبة العادية التي بدون قبضة، يتآكل الطويق بالتساوي، ولكن العصا التي لها قبضة على شكل منحنى أو غيرها من المقابض المحددة التي تُمسك بطريقةٍ معينة ودائمًا ما تُوضع على الأرض بالوضعية ذاتها، يتآكل الطويق من الجانب، الجانب المقابل لليد أو الجزء الأمامي من العصا، ولكن النقطة المهمة هي أن التآكُل لا يُقابل المقبض بالضبط؛ ولهذا السبب تجده منحرفًا إلى أحد الجوانب قليلًا. يضع الرجل عصاه على الأرض وتتأرجح القبضة إلى الأمام والخلف، ولكن مع المشي تتأرجح القبضة بعيدًا عن جسده قليلًا، بحيث تلفُّ العصا إلى الخارج بعضَ الشيء؛ وبالتالي يكون تآكل الطويق إلى الداخل قليلًا. وهذا يعني أنه في عصا الرجل الأيمن يكون التآكل قليلًا إلى اليسار وفي عصا الرجل الأيسر يكون التآكل قليلًا إلى اليمين، ولكن إذا

مشى الرجل الأيمن بعصا رجل أعسر، فالأثر على الأرض سيُظهر ميلَ التآكل على الجهة اليمنى، وهذا هو الجانب الخاطئ، وسيؤدي دورانُ العصا جهة اليمين إلى إبعادها قليلًا في هذا الاتجاه. في هذه القضية، أظهرت الآثارُ جزءًا ضحلًا يتطابق مع ميل التآكل على الجانب الأيمن؛ وبالتالي كانت العصا لرجل أعسر، ولكن من حملها كان يُمسكها بيده اليمنى؛ وبالتالي بات واضحًا أنها ليست ملكًا للشخص الذي يحملها.

ولما كان الرجل مجهولًا، فكانت هذه المسألة مجردَ فضولٍ ولا تهمُّنا، ولكن انظر كيف تراكمت الأدلة الظرفية بسرعة. عندما رأينا قدمَي المتوفَّى، عرفنا أنها الأقدام التي رأينا آثارها في الغابة؛ وبالتالي كان برفقة الرجل صاحب العصا؛ وظهر هذا الرجل على الفور في المشهد. ثم أخبرنا توم رولاندس أنه فقد عصاه وأنه رجل أعسر؛ وأرانا عصًا تبدَّلت مع عصاه، وانظر إلى المفاجأة! كانت هذه العصا لرجل أيمن وتأكدت لما تفحصتُ الطويق. أصبح لدينا رجل أعسر فقد عصاه التي تبدلت مع عصًا أخرى لرجل أيمن؛ وفي الغابة، وجدنا الرجل الأيمن الذي كان يحمل عصًا لرجل أعسر وكان برفقة المتوفى. كانت صدفة مدهشة. إضافة إلى ذلك، خلصتُ إلى اقتراحٍ بأن الرجل المجهول واحدٌ ممن دعاهم توم إلى مكتبه؛ وبالتالي فهو واحد ممن أرادوا الاستحواذ على الخاتم. والسؤال الذي طرح نفسه على الفور، هل نجح في الاستحواذ على الخاتم؟ ذهبنا إلى الخزنة وأصبح واضحًا أنه نجح بالفعل.»

«كان الخاتم في الخزنة مزيفًا، أليس كذلك؟»

«نعم، ومزيفًا بطريقة سيئة، على الرغم من المهارة في تزييفه. طُبعت حروفه بالترسيب الكهربائي، ولم تكن أبعاده متناظرة؛ وبالتالي لا يتطابق مع القياسات التي كتبها المشرف، ووجدت الثقب على الرغم من اتساخ أطرافه، إلا أنه كان برَّاقًا من المنتصف بسبب المثقاب.»

«ولكن كيف عرفت أن ليون هو من فعلها؟»

«لم أعرف، ولكنه كان المرجح في رأيي إلى حدٍّ بعيد. إنه يمتلك نسخةً من الخاتم، ومن هذه النسخة يمكن الحفر على صفيحة ترسيب كهربائي، وهو يمتلك المهارة الكبيرة المطلوبة لتحويل صفيحة ترسيب كهربائي مسطحة إلى أسطوانة. كان مزورًا محترفًا للأنتيكات وكان تاجرًا يمتلك الإمكانيات للتخلُّص من الخاتم المسروق، لكنه كان مجرد احتمال، وعلى الرغم من ضغط الوقت، اضطررنا إلى التصرف بناءً عليه. ولما رأيناه والعصا في يده، أصبح الأمر شبه مؤكد.»

«وكيف خمَّنت أن الخاتم قد يكون بداخل التمثال المصغر؟»

«توقَّعت أن يكون مدفونًا في جسم من الجص؛ فهذه أكثر طريقة آمنة لإخفائه وتهريبه خارج البلاد إلى الولايات المتحدة. عندما رأيت التمثال المصغر، اتضح الأمر. صُنع التمثال على عجَل وكان نسخةً من تماثيل بروتشياني. وجدتُ أن الجصَّ رطبٌ — ينحت بروتشياني الجصَّ لديه جافًّا — وكان واضحًا أنه لم يمرَّ على نحته سوى بضع ساعات؛ ولذا كسرتُه. وإذا اكتشفت أنني أخطأتُ، كنت سأستعيض عنه بخمسة شلنات، ولكنَّ كلَّ الملابسات جعلت الأمر يكاد يكون مؤكدًا.»

«هل لديك أيُّ فكرةٍ عن طريقة إعطاء ليون السمَّ للقتيل؟»

ردَّ قائلًا: «يمكنني أن ألخِّصَ لك الأمر. ربما أخذ معه بعضًا من محلول السيانيد — إذا كان هذا هو السُّمَّ — وسكبه في الويسكي للسيد رولاندس وقت عدمِ انتباهه. هذا سهل للغاية؛ وجرعةٌ واحدة من سمٍّ سريع المفعول مثل هذا سيُنهي الأمر في دقيقة أو دقيقتين، ولكن من غير المحتمل أن نعرف التفاصيل على الإطلاق.»

أظهرتِ الأدلةُ في التحقيق أن ثورندايك كان محقًّا على الأرجح، وأن شهادته في المحاكمة حسمت القضية ضد ليون. أما بالنسبة إلى الرجل الآخر — الذي ثبت أنه تاجرٌ أمريكي معروف جيدًا لمسئولي جمارك نيويورك — فقد سقطت القضيةُ المرفوعة ضده لعدم وجود أدلة تُثبت علمه بجريمة القتل أو السرقة. وهكذا انتهت قضية خاتم نبوخذ نصر؛ قضية جعلت السيد برودريب مقتنعًا أكثر من أيِّ وقت مضى بأن ثورندايك إما موهوب بحاسة سادسة مكَّنته من استنباط الأدلة أو كان متحالفًا مع شيطان مألوف قام بذلك من أجله.

الفصل الرابع

# فيليس أنسلي على حافة الإعدام

بينما كنا جالسين في انتظار وصول المحامي السيد مايفيلد، قال ثورندايك: «يميل المرء في بعض الأحيان إلى الأسف من أعمالنا لأنها في كثير من الأحيان يشوبها الكدرُ والقبح.»

قلت: «أتفق معك؛ فالطب الشرعي على وجه الخصوص ليس مهنةً مريحة على الدوام، ولكنه عملنا وعلينا أن نقوم به رغم ما ينطوي عليه من مميزات وعيوب.»

ثورندايك: «استنتاج فلسفي يا جيرفيس، ولا يخرج إلا من صديق مثقف. ولا ريب أن أوثقَ علاقة بين القانون والطب تتجلَّى في الجرائم التي تُرتكب ضد الأفراد وبالتالي فالدراسة التي تُلائم تخصص الطبيب الشرعي هي هذا النوع من الجرائم. إنها حقيقة تدعو إلى الأسف، ولكن لا بد أن نقبلها.»

قلت: «وفي الوقت نفسه، يبدو أنه لا توجد أيُّ مسائل طبية قانونية في قضية السيدة لوسي بلاند هذه. من الواضح أن المرأة قُتلت. والسؤال الوحيد هو مَن قتلها؟ ويبدو أن الإجابة عن هذا السؤال واضحة بشدة.»

ثورندايك: «أتفق معك، ولكن سنتمكن من الحكم في هذه المسألة بمزيد من الحنكة عندما نسمع ما سيُخبرنا به مايفيلد. وأظن أنني أسمع نقرَ نعله على السُّلَّم الآن.»

نهضتُ كي أفتح الباب لزائرنا، وعندما دخل رمقتُه بنظرة فضول. السيد مايفيلد شابٌّ هادئ ويجمع بين التميز والعصبية في أسلوبه، ولما دخل الغرفة لم تُنبئ هيئتُه عن خبرة مهنية كبيرة.

أخذ كرسيًّا هزَّازًا ناوله له ثورندايك، ثم قال: «آسف يا سيدي أنني تأخرتُ عليك من أجل التحقيقات اللازمة أو على الأقل من أجل إجراءات محكمة الشرطة.»

ثورندايك: «طلبتَ حفظ دفاعك، أليس كذلك؟»

المحامي بابتسامة لطيفة: «نعم، اضطررتُ إلى ذلك. لم يكن هناك ما يُقال؛ ولذا تقدمتُ بالدفع بالبراءة وحفظتُ الدفاع على أمل ظهور شيء ما، ولكني سئمتُ كليًّا. يبدو أنه لا أمل في هذه القضية. لا أعرف ما تقول في هذه القضية يا سيدي.»

ثورندايك: «لم أطَّلع إلا على التقارير الصحفية. ولم أجدها مشجعةً بالتأكيد، ولكن دعْنا نُنَحِّها جانبًا. أقترح أن تسردَ وقائع القضية وسأطرح أيَّ أسئلةٍ أراها ضروريةً لتوضيح المسألة أكثر.»

مايفيلد: «جيد جدًّا، سأبدأ إذن باختفاء السيدة لوسي بلاند. اختفَت السيدة في الثامن عشر من مايو الماضي تقريبًا. في هذا الوقت، كانت تعيش بعيدةً عن زوجها في مسكن مفروش في ويمبلدون. خرجتْ بعد الغداء يوم الثامن عشر، وقالت إنها لن تكون في المنزل حتى المساء. رآها شخصٌ يعرفها في محطة ويمبلدون على رصيف النزول الساعة الثالثة تقريبًا. وبعد الساعة السادسة بقليلٍ من اليوم نفسه، ذهبت إلى مكتب البريد في لوار ديتون لشراء بعض الطوابع البريدية. موظفة البريد تعرف السيدة شكلًا وهي متأكدةٌ من أنها كانت في المكتب ولكنها لا تتذكَّر متى كانت هناك بالتحديد. على أية حال، لم تَعُد إلى المنزل في تلك الليلة ولم تُرَ حيةً بعدها. اتصلتْ صاحبةُ المسكن بزوجها وهو تقدَّم إلى الشرطة على الفور، ولكن لم تُثمر التحقيقات عن شيء. فقد اختفَتْ من دون ترْكِ أثرٍ.

اكتُشف الأمر بعد أربعة شهور، أي في السادس عشر من سبتمبر. في ذلك اليوم، ذهب بعضُ العمال إلى منزل اللاركس وهو منزل صغير نوعًا ما وبطراز قديم على ضفة النهر خارج لوار ديتون لفحص بعض الأسلاك الكهربائية. المنزل استأجره شخصٌ جديد، وعندما أظهر العداد أنه يوجد تسريبٌ لا تفسير له في التيار على مدار الشهور الثلاثة الماضية، ذهبوا لتفقُّد المشكلة.

لكي ندخلَ في صلب الموضوع، اضطر العاملون أن يرفعوا جزءًا من أرضية غرفة الضيافة، وعندما رفعوا الألواح، ارتعبوا من اكتشاف قدمَين تظهران من أسفل اللوح التالي ومن الواضح أنها تعود لامرأة. ذهبوا على الفور إلى مركز الشرطة وأبلغوا عمَّا رأَوْه، وعليه رافقهم المحقِّق والجرَّاح إلى المنزل وأمروهم برفع مزيدٍ من الألواح، وقد فعلوا. وجدوا جثة امرأة محشورة بين روافد الخشب وبعد ذلك تمَّ التعرف عليها بأنها السيدة لوسي بلاند. بدا أن صاحبة الجثة لم تَمُت إلا من فترةٍ وجيزة للغاية، ولكن اكتُشف بعد ذلك أنها تعرضت لتجربة التحنيط أو الحفظ بحقن محلول الفورمالدهايد ومن المحتمل أن تكون ماتت منذ ثلاثة أو أربعة شهور. ذكرت التحقيقاتُ أن سبب الوفاة هو الخنق، وربما سبقه الإجبارُ على تناول مخدر الكلوروفورم.»

ثورندايك: «حسبما أفهم، هل المنزل يخصُّ أحد المتهمين؟»

«نعم، يخصُّ السيدة فيليس أنسلي. المنزل ملكُها وحدَها، وكانت تعيش فيه حتى وقت قريب. في الخريف الماضي، بدأت في السفر؛ ومن ثَم فكَّكت بعض أثاث المنزل وخزنت معظمه ولكنها أبقَتْ على أثاث غرفتين من غُرَف النوم والمطبخ وغرفة الضيافة إذ أبقت على ما يمكن استخدامُه في الغرفة، ثم اعتادت على أن تقضيَ يومًا أو يومين في المنزل وقت الرجوع من سفرها بمفردها أو مع الخادمة.»

«ما العلاقة بين السيدة فيليس وأسرة السيدة لوسي؟»

«لقد تعرَّفتْ عليهم منذ بضع سنوات. كانت على علاقة ودية مع السيد ليونارد بلاند، ولكن لا توجد أدلة على أن العلاقة بينهما كانت غيرَ لائقة. اعتاد السيد بلاند أن يزورها لما كانت تعيش هناك واعتادَا على التنزُّه في النهر في قارب يخصُّ البيت. اعتادت السيدة لوسي أيضًا زيارة السيدة فيليس من وقت لآخر، ويبدو أنه نشأت علاقة طيبة بينهما. بالطبع كانت تعرف أن زوجها يُكنُّ مشاعر لتلك المرأة، ولكن لم يبدُ عليها أيُّ انزعاج من تلك العلاقة.»

ثورندايك: «كيف كانت العلاقة بين الزوج وزوجته؟»

«كانت علاقةً غريبة. لم يكن أيٌّ منهما مناسبًا للآخر؛ ولذا اتفقَا ببساطة أن يعيش كلٌّ منهما كيفما شاء، ولكن يبدو أن العلاقة بينهما كانت ودية، كما أن السيد بلاند اتصف بالاهتمام الشديد فيما يتعلق بالتزاماته المالية تجاه زوجته؛ فهو لم يوفر لها الحرية فحسب، بل بذل قصارى جهده لتقديم الدعم لها. سأضرب لك مثالًا أثار إعجابي كثيرًا.

أحدُ معارفه القدامى، وهو السيد يوليوس ويكس الذي كان يعمل في استوديو لصناعة الأفلام لعدة سنوات في لوس أنجلوس، قدم إلى إنجلترا منذ سنة تقريبًا واقترح على بلاند البدءَ في إنشاء دار أو دارَين للسينما في البلاد، شارك بلاند بتوفير الأموال — إذ كان بمقدوره توفيرها — وشارك ويكس بالمعرفة الفنية والإدارة الفعلية. وافق بلاند وأقيمت الشراكة على أساس أن ثلثَي الأرباح ستئول إلى بلاند والثلث الأخير سيئول إلى ويكس، ووضع شرطًا بأن تئول جميعُ حقوق بلاند بصفته شريكًا إلى زوجته في حالة وفاته.»

«وماذا إذا توفي ويكس؟»

«لم يكن ويكس متزوجًا، على الرغم من أنه خطب ممثلة سينمائية. وفي حالة وفاته، سينتقل نصيبُه إلى بلاند، وبالمثل إذا توفي بلاند بعد زوجته، فسينتقل نصيبُه إلى شريكه.»

قلت: «يبدو أن بلاند كان رجلَ أعمال ماهرًا كثيرًا.»

مايفيلد: «نعم؛ فكلُّ الترتيبات كانت لصالحه، ولكن كما ترى فهو صاحب رأس المال. والنقطة الأهم في ذلك أن بلاند كان على دراية تامة بمصالح زوجته. لم يكن هناك ما يدل على عداوةٍ بينهما.»

ثورندايك: «إذن، ثمة دافع مستبعد. هل سبق أن طُرحت مسألة الطلاق؟»

مايفيلد: «كلَّا، لم تُطرح. لا توجد أسباب لذلك لدى أيٍّ منهما، ولكن يبدو أنها أدركَت واعترفَت بأنه إذا أصبح بلاند حرًّا من قيود الزوجية فسيتزوج السيدة فيليس؛ فقد كانَا منجذبَين لبعضهما البعض بدرجة كبيرة.»

قلت: «هذا يبدو دافعًا قويًّا جدًّا.»

مايفيلد: «يبدو الأمر كذلك بالنسبة إليَّ، ولكن استنادًا إلى معرفتي بهما لسنوات ودائمًا ما كان رأيي هو المفضل لديهما، فمن الواضح أنني لا يمكنني ربطُ هذه الجريمة الفظيعة بهما على الإطلاق، ولكن ليست هذه المشكلة. يجب أن أُكملَ سرْدَ الوقائع.

بعد الاكتشاف بفترة وجيزة في منزل اللاركس، علمت الشرطة بانتشار شائعات في لوار ديتون عن حدوث أشياءَ غريبةٍ فيما مضى في المنزل وبأن اثنين من العمال وهما برودي وستانتون يعرفان شيئًا محددًا؛ وبالتالي بحثت الشرطة عن هذين الرجلين واستجوبت كلَّ واحدٍ منهما على انفراد، وعندئذٍ أدلى كلٌّ منهما بالأقوال نفسها، وكانت كما يلي:

في منتصف مايو تقريبًا — لم يُعطِ أيٌّ منهما تاريخًا محددًا — بين الساعة التاسعة والعاشرة مساءً، كان الرجلان يتمشيان في الممر المؤدي إلى منزل اللاركس ورأيَا رجلًا يتخفَّى متربصًا في الحديقة أمام المنزل. وهما في طريقهما، أتى إلى البوابة وأشار إليهما ولما اقتربَا همس لهما قائلًا: «اسمعاني يا رفاق، هناك شيءٌ غريب يحدث في هذا المنزل.»

برودي: «كيف علمت؟»

الرجل: «ظللْتُ أنظر لبعض الوقت من ثقب القُفْل. يبدو أنهم يُخفون شيئًا تحت الأرض. تعاليَا وانظرَا.»

تبعه الرجلان في الحديقة ووصلَا إلى المنزل من الخلف، حيث أخذهما إلى إحدى نوافذ غرفة في الطابق الأرضي وأشار إلى ثقبَين في السدائل الخارجية.

الرجل: «انظرا فقط من هذين الثقبين.»

وضع كلُّ رجلٍ منهما عينَه على ثقبٍ ونظرَا بالداخل؛ وإليك ما رأياه معًا: وجدَا غرفتين يصل بينهما قوسٌ كبير. ومن خلال القوس وفي طرف الغرفة الثانية، رأيَا

شخصَين؛ رجلًا وامرأة. وجداهما يجثيان على أيديهما وركبتَيهما، ومن الواضح أنهما يفعلان شيئًا في الأرضية. بعد فترة وجيزة، نهض الرجل الذي يرتدي قميصَ رسام أبيض ورفع لوحًا كان يقف على طرفه مقابل الجدار. ثم انحنى مرة أخرى وكأنه يُمسك بشيء مستلقٍ على الأرض — شيء يُشبه حزمةً كبيرة أو سجادة ملفوفة. في تلك اللحظة، مرَّ شيءٌ أمام الثقوب وحجب الرؤية — وبالتالي لا بد أنه كان هناك شخصٌ ثالث في الغرفة. عندما ابتعد الجسم الذي يحجب الرؤية مرة أخرى، وجدَا الرجل جاثيًا على الأرض ينظر إلى الأسفل على الحزمة ثم أتت امرأةٌ ووقفت تحت القوس مباشرة وفي يدها كماشتان. كانت ترتدي مئزرًا منقَّطًا بياقة بحار بيضاء، وتعرَّف الرجلان كلاهما عليها على الفور بأنها السيدة فيليس.»

ثورندايك: «عرفاها من شكلها، أليس كذلك؟»

«بلى، الرجلان من سكان ديتون. وهي بلدة صغيرة وكلُّ شخصٍ فيها لا بد أنه يعرف السيدة فيليس وعائلة بلاند أيضًا على كل حال. رأياها تقف في الممر أسفل القوس رأْيَ العين. ولا يشكُّ أيٌّ من الرجلين في هُويتها مثقال ذرة. رأياها لمدة نصف دقيقة تقريبًا. ثم تحرك الرجل غير المرئي أمام الثقبين وحجب الرؤية.

عندما ابتعد الحاجز، وجدَا أن المرأة عادت إلى الغرفة البعيدة ووجداها راكعة على الأرض. اختفت الحزمة وأخذ الرجل اللوحَ الذي كان قد أسنده على الحائط وأعاده إلى مكانه في الأرض. بعد ذلك، ظلَّ الشخص الذي يحجب الرؤية يغدو ويروح؛ ولذا لم يتسنَّ لمن يُراقبان المشهد سوى لمحات خاطفة مما كان يحدث. رأيَا الرجل رأْيَ العين وهو يدق المسامير بالمطرقة في الأرضية وسمعَا أصواتَ طرقٍ خافتة. وفي إحدى المرات، عندما أوشكت الإجراءات على الانتهاء، رأيَا رجلًا يقف تحت القوس ووجهُه إليهما، ومن الواضح أنه ينظر إلى شيء في يده. لم يتمكَّنَا من رؤية هذا الشيء، ولكنهما تعرفَا على الرجل وعلمَا تمام العلم أنه السيد بلاند، الذي كانا يعرفانِه. حُجبت الرؤية مرة أخرى، وعندما رأيَا السيد بلاند، وجدَاه واقفًا بجانب السيدة فيليس في الغرفة البعيدة وهو ينظر إلى الأرض ويخلع قميصه. لمَّا بدَا أن العمل قد انتهى وأنه ربما يخرج السيد بلاند والسيدة فيليس، اعتقد الرجلان أنه من الأفضل أن يبتعدَا عن المكان خشيةَ أن يُكشَفَ أمرُهما.

أثناء سيرهم في الممر، ناقشوا الأشياء الغامضة التي شاهدوها، ولكن لم يصلوا إلى تفسيرٍ لأيٍّ منها. قال الغريب: إنه من المحتمل أن السيدة فيليس تُخفي شيئًا ثمينًا أو قيِّمًا للحفاظ عليه في مكانٍ آمن أثناء سفرها، وألمح إلى أن الأمر قد يستحق أن يستغرق

الشخصُ وقتًا في رفع الأرضية ورؤية ما تحتها. ولأن برودي وستانتون رجلان محترمان، رفضَا هذا الاقتراح بقوةٍ وقالَا إنه ما دامت المسألة لا تخصُّهما، فمن الأفضل ألَّا يذكرَا شيئًا عنها، لكن من الواضح أنهما أفصحَا عن بعض ما رأيَا؛ لأن الحديث عن المسألة بدأ ينتشر في القرية، وبالطبع عندما اكتُشفت الجثة تحت أرضية المنزل، وصلت الأنباء إلى الشرطة في فترة قصيرة.»

سأل ثورندايك: «هل تقدَّم الرجل الثالث ليُدليَ بما لديه من أدلة؟»

«لا، لم يُعثَر عليه حتى الآن. كان غريبًا ولم يعرفه الرجلان؛ على ما يبدو أنه عامل أو مزارع أو متشرد. ولا يُعرف شيءٌ عنه. هذه هي الوقائع، وهذه القضية ميئوس منها للغاية. بالطبع تمَّ التعرف على أحد المتهمين؛ ويدينُها في ذلك الدافعُ الواضح غاية الوضوح وشهادةُ شاهدَي عيان. هل تظنُّ أنك ستميلُ إلى تولِّي الدفاع يا سيدي؟ أعلم أنني أطلب الكثير منك.»

ثورندايك: «يجب أن أفكر في المسألة مليًّا وأُجري بعض التحقيقات الأولية. وينبغي أن أطلع على الأقوال في المحضر بالتفاصيل الكاملة. هلَّا سمحت لي بالاطلاع عليها؟»

«لديَّ تقريرٌ مأخوذ من إجراءات محكمة الشرطة والتحقيقات. سأتركه معك الآن. متى سيصلني قرارُك؟»

«في نهاية بعد غد.» وبناءً على هذا الرد، أخرج المحامي حزمة أوراق من حقيبته ووضعها على الطاولة وشكر كلَينا وغادر.

عندما غادر مايفيلد، قلت: «أشعر بحيرة شديدة يا ثورندايك. أعلم أنك لن تتولَّى الدفاع الرسمي فحسب، ولكن يجب أن أعترف أنك قد تقوم بأشياء تفوق خيالي. في رأيي، تنحلُّ هذه القضية باستدعاء النيابة الشهود وبعدها سيصدر الحكم «بالإدانة» تلقائيًّا.»

ثورندايك: «هذا ما يبدو لي. وإذا ظل الأمر كذلك بالنسبة إليَّ بعد الاطلاع على الأقوال وإجراء التحقيقات الأولية، فسأرفض المرافعة، ولكن الأمور التي تراها لا تكون على حقيقتها في بعض الأحيان.»

أخذ التقارير ودفتر الملاحظات الذي دوَّن فيه بعضَ النقاط الموجزة مما كتبه مايفيلد عن القضية بوجه عام، وسحب كرسيًّا إلى الطاولة وبدأ بتركيز تامٍّ في الاطلاع على الأوراق ودوَّن ملاحظات بشأن الأدلة. بعدما انتهى، أعطاني التقارير، ووضع دفتر ملاحظاته في جيبه ونظر في ساعته.

قال: «اقرأ التقارير يا جيرفيس وأخبرني إذا رأيت أيَّ مخرج محتمل. سأُجري مكالمة أو مكالمتين، ولكن من المفترض ألَّا أغيبَ أكثر من ساعة. وعندما أعود، أحبُّ أن أسمع آراءك في القضية.»

في فترة غيابه، اطَّلعتُ على التقارير بانتباهٍ شديد. هناك شيءٌ في نبرة ثورندايك يُلمِّح إلى قصور محتمل في إجراءات النيابة بشأن القضية، ولكني لم أجد بُدًّا من إدانة هذين الشخصين؛ فالتقارير لا تُسهب إلا فيما ذكره مايفيلد، والتفاصيل الإضافية أكَّدت الأدلة أكثر، خاصة في حالة شاهدَي العيان. لم أرَ الأدوات الأساسية حتى بالنسبة إلى الدفاع الرسمي.

بعد أقل من ساعة، عاد زميلي إلى الغرفة، وأوشكتُ على أن أذكر له انطباعاتي عن الأدلة، ولكنه بادرني بقوله: «لا زال الوقت باكرًا على هذا يا جيرفيس، ولكن أعتقد أنه من الأفضل أن نذهب لتناول الغداء. رتبتُ للذهاب إلى ديتون بعد ظهر اليوم وإلقاء نظرة على المنزل. أعطاني مايفيلد مذكرةً سأسلمها إلى رقيب الشرطة، وقال: إن المفتاح بحوزته بالفعل.»

قلتُ: «لا أرى فائدةً من إلقاء نظرة على المنزل.»

قال: «ولا أنا، ولكن دائمًا ما تُفيد قاعدةُ تفتيش مسرح الجريمة وجميع الأدلة بأكبر قدرٍ ممكن.»

قلت: «لا جدوى من ذلك. اطَّلعتُ على الأدلة ويبدو لي أنها تُثبت إدانة المتهمين. لا أرى أن الدفاع سيُجدي نفعًا على الإطلاق. هل تتفق معي؟»

ثورندايك: «لا أتفق معك في الوقت الحالي، ولكنَّ هناك نقطة أو نقطتين ينبغي أن أتثبَّتَ منهما قبل أن أقرِّر ما إذا كنت سأتولَّى الدفاع أم لا. والمشاهدة بالعين أصدقُ من الخبر المنقول.»

تناولنا غداءً خفيفًا في أحد المطاعم التي نتردَّد عليها في شارع فليت ستريت ثم أخذنا سيارة أجرة وأوصلتنا إلى واترلو، ومنها أخذنا القطار إلى لوار ديتون. وضعتُ التقارير في جيبي واطَّلعتُ عليها مرة أخرى أثناء السفر على أملِ أن أكتشف أيَّ نقطةٍ يمكن أن تتضح بتفتيش مسرح الجريمة.

على الرغم من الغرض المبهم الذي ينطوي عليه تفسير ثورندايك، إلا أن شيئًا في أسلوب زميلي وكذلك الخبرة الطويلة بطريقته جعلاني أشكُّ في أن لديه شيئًا محددًا في عقله. لم يتفوَّه أحدٌ منا أثناء الرحلة ولم نتناقش في القضية؛ فلم يكن هناك ما نتناقش فيه حسبما أرى.

حظينا باستقبالٍ حارٍّ للغاية في مركز شرطة لوار ديتون. تعرف الرقيب على ثورندايك على الفور — يبدو أنه من المعجبين المتحمسين لزميلي — وبعد الاطلاع على المذكرة من مايفيلد للحظات، أخذ مفتاحًا من فوق مكتبه وارتدى قبعته.

قال: «بارك الله فيك يا سيدي، لا أحتاج إلى أن تعرفني عن نفسك. رأيتُك في المحكمة وسمعتُك. سآتي معك إلى المنزل بنفسي.»

حسبت أن ثورندايك سيعتذر عن هذا الاهتمام ولكنه قَبِله بلطف وانطلقنا في القرية ومررنا بممرٍّ هادئ يقبع في نهايته المنزل المشئوم. في أثناء سيرنا، أبدى الرقيبُ تعليقاتٍ على القضية بحرِّيَّة بعيدًا عن الطابع الرسمي مما أثار فضولي.

«أظن أنك ستعطل أعمالك يا سيدي إذا كنت ستتولَّى الدفاع، ولكني أتمنى لك حظًّا موفقًا. تعرفتُ على السيدة فيليس منذ بضع سنوات؛ إذ كانت معروفةً في القرية هنا كما أنها ألطف وأجمل وأفضل امرأة يمكن أن تقابلَها. لا يمكنني أن أتخيَّل أنها على علاقةٍ بالقاتل — أو أنها القاتلة — شيءٌ لا يصدقه عقل! المسألة في غاية التعقيد، ولكن هذا ما تذكرُه الوقائع، إلا لو كان هذان الرجلان يكذبان.»

سألت: «هل يوجد أيُّ سبب يجعلك تفترض أنهما يكذبان؟»

«لا يوجد لديَّ أسبابٌ. فهما رجلان صالحان ومتزنان ومحترمان. وستكون هذه الكذبة افتراءً شنيعًا منهما. كما أن كليهما يعرفان السجينَين ويحبانِهما. الكلُّ أحبَّ السيد بلاند والسيدة فيليس على الرغم من أن صداقتَهما قد لا تكون على النحو الملائم، ولكن سأُخبرك يا سيدي، كان الرجلان مضطربَين بدرجة مخيفة وقت الإدلاء بالشهادة. هذا هو المنزل!»

فتح البوابة ودخلنا إلى الحديقة وكان من خلفها منزلٌ صغير بعضَ الشيء بطراز قديم حيث النوافذ في الطابق الأرضي محمية بسدائل من الخارج. مشينا إلى أن وصلنا إلى المنزل من الخلف، حيث توجد حديقةٌ أخرى ينبت بها العشب وممرٌّ يؤدي إلى النهر.

سأل ثورندايك: «هل هذا مرفأ القارب؟» وأشار إلى جملون صغير يظهر من أعلى شجيرات الليلك.

الرقيب: «نعم، ويوجد القارب عنده؛ وهو عبارة عن زورق جيد وواسع ومريح اعتادت السيدة فيليس وصديقها أن يخرجَا للتنزه به. هذه هي النافذة التي نظر منها الرجلان، ولكن لا يمكنك رؤيةُ ما بالداخل بوضوح الآن لأن الغرفة مظلمة تمامًا.»

نظرتُ إلى النافذتَين الفرنسيتَين اللتين تفتحان باتجاه العشب وفكرتُ في هذا المثال الجديد على حماقة المجرمين. كلُّ نافذة مثبَّتٌ عليها زوجٌ من السدائل القوية التي تُغلَق

من الداخل وكلٌّ سديلٍ مثقوب بمقدار خمس أقدام تقريبًا من العتبة بثقب دائري يزيد قطرُه على البوصة بقليل. لا يُعقل أن يتورط شخصان عاقلان في إخفاء جثة مقتولة ويتركان هذه الثقوبَ الأربعة من دون تغطيتها خشيةَ أن يتنصت أو يتجسس عليهما أحد.

زادت دهشتي من عدم الاحتياط أكثر عندما أدخلنا الرقيب ووقفنا داخل الغرفة ووجدنا أن النافذتَين كلتيهما وكذلك النافذتان في الغرفة البعيدة جميعها مؤثثة بستائر ثقيلة.

ردَّ الرقيب على تعليقي: «نعم، إنه أمر غريب أن يُغفِلَ هذان الشخصان مسائلَ ذات أهمية بالغة. أتعرف، لقد أسدلوا جميع الستائر في غرفة الرسم، ولكنهم نسوا إسدال هذه الستائر. هل هناك شيء تودُّ رؤيته على وجه الخصوص يا سيدي؟»

ثورندايك: «يجب أن أرى مكان إخفاء الجثة، ولكني سأتفقَّد الغرف أولًا.»

تجوَّل في الغرف ببطء، وأخذ ينظر من حوله وبدا أنه يُثبت مظهر الغرف في ذاكرته. لم يكن هناك الكثير لرؤيته أو تذكُّره. تتَّصل الغرفتان المربعتان تقريبًا ببعضهما عن طريق قوس عريض ويُفصَل بينهما بستارة كما هو واضح من قضيب الستارة. لا يوجد أيُّ أثاث في الغرفة الخلفية باستثناء الستائر على النافذة، ولكن الغرفة الأمامية لم يوجد بها الأثاث بالكامل على الرغم من أن الأرضية والجدران كانت مكشوفة. وجدنا الخوان لا يزال في موضعه ويحمل في كلِّ طرف مصباحًا كهربائيًّا طويلًا، كما هو الحال في رفِّ الموقد. احتوت الغرفةُ على ثلاثة كراسيَّ لمائدة الطعام ومائدة ذات مقاس جيد وأرجل مزخرفة قريبة من الجدار.

ثورندايك: «أرى أنك لم تُثبت ألواح الأرضية بالمسامير.»

«لا يا سيدي، ليس بعد؛ وبالتالي يمكننا رؤيةُ المكان الذي أُخفيت فيه الجثة ومكان المفتاح الكهربائي. خلع الكهربائيون اللوح الخطأ في البداية، وبذلك اكتُشفت الجثة. ويقول أحدهم إن الألواح التي فوق المفتاح الكهربائي رُفعت مؤخرًا، وأظن أن الجناة كانوا ينوون إخفاءَ الجثة في ذلك المكان، ولكنهم فوجئوا بالمفتاح الكهربائي وبالتالي اختاروا مكانًا آخر.»

انحنى ورفع الألواح المفكوكة التي وقف عند طرفها وفي الجهة المقابلة رف الموقد، حيث انكشفت الروافد وقعر الأرضية على مسافة قدم واحدة تقريبًا. وُجد مفتاح كهربائي قيد التشغيل في إحدى الفراغات وفي الفراغ المجاور وُجد مفتاح غاز غير مستخدم على ما يبدو.

الرقيب مشيرًا إلى مساحة فارغة: «هنا وجدنا المرحومة السيدة لوسي. كان المشهد مروعًا. لقد أرعبني بحق. كانت المرحومة مستلقيةً على جنبها محشورةً بين الروافد وأنفُها مفلطح على خشبة. لا بد أن من ارتكب هذه الجريمة متوحشون ولا أصدق — حقًّا لا أصدق — أن السيدة فيليس كانت واحدةً من هؤلاء المجرمين.»

قلت: «يبدو أن المكان ضيقٌ على أن يتسع لجسد مستلقٍ.»

وضع ثورندايك مسطرةً صغيرةً عبر الفراغات وقال: «المسافة بين الروافد ست عشرة بوصة، وسُمكها بوصتان ونصف. ألواح ثقيلة وفراغات واسعة.»

وقف ثم التفَت ونظر باتجاه نوافذ الغرفة الخلفية. تبعتُ نظراتِه ولاحظتُ من الوهلة الأولى الثقبَين في سديل النافذة جهة اليسار (بالطبع هي النافذة جهة اليمين من الخارج) يشعَّان بالنور داخل الغرفة المظلمة وكأنهما عينان يلمع فيهما الفضول وتتوجهان بأصابع الاتهام. لا تُلاحَظ الثقوب في النافذة الأخرى بسهولة، والسبب وراء الاختلاف واضح. تتكوَّن النافذة الأولى من ألواح صغيرة وقوائم وسطى أو أعمدة نوافذ، وكانت النافذة الأخرى مزودةً بألواح زجاجية كبيرة ولم يكن فيها قوائمُ وسطى.

ردًّا على تعليقه الذي لم يتفوَّه به: «بالطبع عمَّ الظلام في ذلك الوقت وربما أُضيئت هذه الغرفة بطريقة ما أو بأخرى.»

ردَّ: «ليس ظلامًا دامسًا في مايو. يوجد غرفة نوم مؤثثة، أليس كذلك أيها الرقيب؟»

الرقيب: «غرفتان يا سيدي.» وفتح الباب على الفور ومشى عابرًا الصالة وصعد السلم.

قال: «هذه غرفة السيدة فيليس.» وفتح الباب بحذرٍ وأخذ ينظر بالداخل.

دخلنا إلى الغرفة ونظرنا من حولنا بفضولٍ يكسوه الغموض. أثاث الغرفة بسيط ولكنه ينمُّ عن الأناقة وحسن الذوق، تحتوي الغرفة على فراش صغير له أربعة أعمدة وكرسي هزاز خفيف ومائدة كتابة صغيرة ومهندمة.

أشار الرقيب إلى صورة شخصين لها إطار وتوجد على المائدة، وقال: «هذان هما السيد بلاند والسيدة فيليس بذاتها.»

رفعتُ الإطار ونظرت إلى صورة الشخصين بفضول. بالنسبة إلى قاتلين، بالتأكيد رأيتهما جذَّابَين بطريقة غير عادية. الرجل كان إنجليزيًّا من الطبقة المتوسطة وأحسب أن عمره يبلغ خمسة وثلاثين عامًا تقريبًا وذا مظهر وسيم، والمرأة تتصف بالجمال ولها وجه يكسوه الوقار واللطافة والرقة.

قلت: «إنها تتبع شيئًا من التقاليد اليابانية بهذه اللفة أعلى الرأس ودبوس الشعر الكبير المصنوع من العاج الذي تستخدمه لتثبيت الشعر.»

ناولتُ الإطار لثورندايك وبدا الاهتمام عليه في النظر إلى صورتهما ثم أخرج الصورة من الإطار وتفحص كلًّا منهما من الأمام والخلف قبل أن يعيد الصورة إلى مكانها.

لما وضع ثورندايك الإطار، قال الرقيب: «غرفة النوم الأخرى عبارة عن غرفة احتياطية. لا يوجد شيءٌ يستحق الرؤية فيها.»

ولكنه أخذنا إليها وعندما تحققنا مما قاله رجعنا ونزلنا إلى الطابق السفلي.

ثورندايك: «قبل أن نذهب، سأرى ما المقابل لهذه الثقوب.»

مشى إلى النافذة وبدأ ينظر إلى الخارج من خلال أحد الثقوب وحينها تبعه الرقيب عن كثَبٍ ولكن زلَّت قدمُه فجأةً على الأرض وكاد يسقط.

قال متعجبًا: «لطفك يا رب!» وانحنى لالتقاط شيء صغير. قال: «يوجد شيء خطير متروك على الأرض. قطعة من قلم رصاص، على الأقل مظهره يقول ذلك.»

ناوله إلى ثورندايك؛ ومن ثَم دقق النظر فيه وقال: «نعم، الأشياء التي تتدحرج تحت القدم قد تتسبب في كسر العظام، ولكن أعتقد أنه من الأفضل أن تحتفظ به. قد أضطرُّ إلى أن أسألك عنه في المحاكمة.»

ودَّعنا الرقيب في نهاية الممر، ولما مشينا على الرصيف إلى المحطة قلت: «يبدو أننا لم نخرج بمعلومات أكثر مما أخبرنا به مايفيلد، باستثناء القلم الرصاص. على أية حال، لماذا طلبتَ من الرقيب أن يحتفظ به؟»

«من باب الاحتفاظ بكل شيء سواء له صلة أو ليس له صلة بالقضية، ولكنه لم يكن قلمَ رصاص، بل قطعة من قضيب كربون صغير.»

قلت: «أظنُّ أنه سقط من أحد الكهربائيين الذين كانوا يعملون في الغرفة. هل توصلتَ إلى قرار بشأن القضية؟»

«نعم، سأتولَّى الدفاع.»

قلت: «أنا لا أتخيل أي مسلكٍ ستسلكه. تحوم شبهاتٌ قوية حول هذَيْن الشخصَيْن حتى إن لم يكن هناك شهود، ولكن شهادة شهود العيان كفيلة أن تُثبت إدانتَهما.»

ثورندايك: «أتفق معك تمامًا، وهذا رأيي. أنا أبني القضية على شهادة هذين الرجلين، وآمل أن يظهر شيءٌ أثناء الاستجواب.»

هذه العبارة من ثورندايك جعلت رأسي يدور بالأفكار في الأيام التالية، ولكنها لم تكن ذات أهميةٍ كبيرة؛ لأن القضية لا تزال غيرَ مفهومةٍ تمامًا. وبالتأكيد إذا تبيَّن كذبُ

شهادة شاهدي العيان، فربما تسقط القضية ضد المسجونَين لأنه سيكون هناك شخصٌ آخر مشتبه به، ولكن من الواضح أن شهادتهما ليست كذبًا؛ فالرجلان يشتهران بالاحترام ولا أحدَ يشكُّ في صدْق شهادتهما.

لم تُفكَّ ألغاز القضية بأي طريقة من خلال إجراءات ثورندايك. استدعينا السجينَين ولكننا لم نخرج بأي وقائعَ جديدة منهما. وكذلك لم نتمكن من إقامة حجة واضحة أو اقتراح لتفسير ما ذكره شاهدَا العيان. لم يُقدِّمَا سوى إنكار بسيط بوجودهما في المنزل في ذلك الوقت أو خلْع ألواح الأرضية.

أثار السجينان كلاهما إعجابي بهما. بدا بلاند الذي قابلناه في بريكستون رجلًا لطيفًا وصريحًا ومباشرًا على الرغم من ذكائه الشديد ومظهره الذي يُشبه رجال الأعمال؛ والسيدة فيليس التي قابلناها في هولواي كانت شابة جذابة حقًّا؛ إذ كان وجهها جميلًا وتتصف بالكرم واللطف في تعاملها، ولكني وجدتُها بائسة في جانب ما. اختفت لفةُ الشعر الجذابة من فوق رأسها وقصَّت شعرها بحيث أصبح طولُه يصل إلى ما فوق الحاجب. لاحظ ثورندايك هذا التغيير حتى إنه أبدى تعليقًا عليه.

قالت: «نعم، تدهورت حالتي. ولم أعتَدْ على هذه الحالة، ولكن ليس لديَّ خيار. تعرَّضتُ لحادث عندما كنت في باريس في فصل الربيع. كنت أنظف شعري بالبنزين وعندها اشتعلت فيه النيران. كان الحادث مروعًا. كان لدى مصفِّف الشعر حضورٌ ذهني مما جعله يرمي فوطة رطبة على رأسي، وهذا ما أنقذ حياتي، ولكن احترق شعري كلُّه تقريبًا. ولم يكن لديَّ خيار سوى أن أقصَّه كي أسويَه بقدر المستطاع. بدا منظرُه بشعًا في البداية. لديَّ صورة فوتوغرافية التقطها باترون بعدما عدتُ إلى المنزل بفترة وجيزة، التقطتها لمجرد الذكرى، وأظهرُ فيها بشكل غريب للغاية. إنني أُشبه فتًى في المدارس الخيرية التي يرتدون فيها الزيَّ الأزرق.»

ثورندايك: «على أية حال، متى عدتِ من السفر؟»

«عدتُ إلى إنجلترا في منتصف أبريل تقريبًا وذهبتُ مباشرة إلى شقتي الصغيرة في بادينجتون وأعيش فيها منذ ذلك الحين.»

«هل تتذكرين أين كنتِ في يوم الثامن عشر من مايو؟»

«كنتُ في شقتي، ولكني لا أتذكَّر ما الذي كنت أفعله في ذلك اليوم. ولا أحدَ يتذكَّر ما لم يحتفظ بدفتر يوميات وهذا الأمر لا أفعله.»

لم يكن هذا مبشِّرًا. لَمَّا خرجنا من السجن، شعرتُ من ناحية بأن هذه السيدة الجميلة الكريمة ليس لها يدٌ في هذه الجريمة الشنعاء، ومن ناحية أخرى؛ شعرت باليأس التام من إمكانية إخراجها من هذه الظروف المتشابكة التي وقعت في شراكها.

لم أخرج من ثورندايك بشيء سوى أنه سيتابع تحقيقاتِه في القضية ليصلَ إلى واقعة بالغة الأهمية. كذلك لم تكن لديه سوى إجابة واحدة على أسئلتي التي حاولتُ الالتفاف حولها ببراعة: «عزيزي جيرفيس، أنت اطلعت على الأدلة ورأيت المنزل ولديك جميعُ الوقائع. فكِّر في القضية مليًّا وفكِّر في الاحتمالات التي يمكن أن تحدث أثناء الاستجواب.» وهذا ما استطعتُ أن أخرجَ به منه.

كان مشغولًا بالتأكيد، ولكن ما يفعله لا يزيدني إلا حيرة. أرسل مهندسًا معماريًّا معروفًا لعمل مقياس رسم هندسي للمنزل والحديقتين، وأرسل بولتون لالتقاط صور للمكان من كل زاوية ممكنة. لم يكن لدى بولتون وقتٌ من كثرة انشغاله بأعماله، وكان يستمتع بذلك للغاية، ولكنه بحر لا يُدرَك قاعه. وعندما ذهب وهو يبتهج من السعادة ويتغنَّى بالرضا التام، أثار سخطي لدرجة أنني كدتُ أضرب رأسه الصغير في الحائط. باختصار، على الرغم من أنني شاهدتُ تطوُّرَ القضية منذ البداية، إلا أنني لم أفهم ولو قدرًا ضئيلًا منها حتى عندما جلستُ في المحكمة صبيحة يوم المحاكمة.

كانت مناسبةً لا تُنسى، ولا تزال كلُّ واقعة فيها حية في ذاكرتي. أتذكر على وجه الخصوص الانجذاب الذي يشوبه الخوف إلى السجينة وهي تقف بجانب صديقها خلف القضبان شاحبة الوجه إلا أنها لم تفقد رباطةَ جأشها ووسامة وجهها وجمالها وكرامتها؛ يقشعر بدني عندما أتذكَّر أن هذا العنق الرشيق — والذي بدا أطول وأهيف بسبب قصر شعرها — قد يلتف حوله حبلُ المشنقة في غضون أيام. انقطعت هذه الأفكار المحزنة بدخول شخصين — رجل وامرأة — يبدو أن لهما علاقةً بالقضية؛ لأنهما عندما جلسَا نظرَا إلى القفص وتبادلَا التحية مع السجينين من دون كلام.

سألت: «هل تعرف مَن هذان الشخصان يا مايفيلد؟»

ردَّ: «هذا السيد يوليوس ويكس شريك السيد بلاند وخطيبته الآنسة يوجينيا كروب الممثلة السينمائية.»

أوشكتُ أن أسألَه هل حضرَا اليوم للإدلاء بشهادتهما أم لا، ولكن انتهت الإجراءات التمهيدية وقتئذٍ ونهض النائب العام السيد جون تورفيل لتقديم مرافعته.

كانت مرافعةً جيدة ووقائعها سديدة على نحوٍ واضح، ولكن هذا السداد أضرَّ بالسجينَين. بدأت المرافعةُ بسرد الوقائع التي كانت متطابقة تقريبًا مع ما لخصه السيد مايفيلد، وبعد ذلك ذكر شهادة الشهود التي أدلى بها الشاهدان الأساسيان.

عندما انتهي السيد جون من مرافعته قال: «والآن، لنخرج هذه الوقائع إلى النور. وباعتبار الجناة عصابة مرتبطة ببعضها، إليكم ما حدث. في السادس عشر من سبتمبر، وُجدت جثة لامرأة مقتولة مخبوءة تحت الأرضية في غرفةٍ بعينها وفي منزل بعينه. هذه المرأة زوجة منفصلة عن زوجها الذي على علاقة عاطفية مع امرأة أخرى يرغب في الزواج بها وترغب في الزواج به على حدِّ ما ورد في الاعترافات. باختصار، كانت هذه المرأة المقتولة العقبة أمام الزواج الذي يرغب هذان الشخصان في إتمامه. أيضًا، المنزل الذي أُخفيت فيه الجثة ملك لهذين الشخصين، وكلاهما يمكنهما الدخولُ إليه دون غيرهما. ومن هنا، وبادئ ذي بدء، هذه مجموعة من الملابسات التي تُثير الشبهاتِ حولهما.

ولكن ما زال هناك ما هو أهم. هذه المرأة البائسة، الزوجة المنبوذة من زوجها السجين السيد بلاند، اختفت في ظروف غامضة في الثامن عشر من مايو الماضي؛ وسيُثبت الشهود أنه تم التخلصُ من الجثة تحت الأرضية في هذا اليوم أو قريبًا منه. وفي هذا اليوم أو في يوم قريب منه، وفي هذا المنزل نفسه، وفي هذه الغرفة نفسها، وفي هذه البقعة من الغرفة نفسها، هذان السجينان الماثلان في قفص الاتهام، رآهما شاهدان محترمان رأْيَ العين وهما يُخفيان شيئًا كبيرًا تحت أرضية الغرفة. ماذا كان هذا الشيء؟ لم يوجد تحت أرضية الغرفة سوى جثة هذه السيدة المقتولة البائسة وهي ممددة تحت الألواح. والنتيجة التي لا تقبل الجدال هي أن هذين الشخصين اشتركا في إخفاء هذه الجثة.

وفي الختام، أقول بأن الأسباب أو الدوافع التي تُدين هذين السجينَين بارتكاب هذه الجريمة التي اتُّهِمَا بها تنحصر في ثلاث نقاط؛ النقطة الأولى: هي الدافع القوي والملموس لارتكاب الجريمة، والثانية: هي إتاحة الفرصة لارتكابها، والثالثة: هي شهادة شاهدَي العيان؛ مما يدل عمليًّا بأن السجينَين ارتكبَا الجريمة بالفعل على حسب شهادة الشاهدَيْن.»

لَّما جلس النائب العام منتظرًا يمينَ الشاهد الأول، استدرتُ إلى ثورندايك وقلت في قلق: «لا يمكنني أن أتخيَّلَ ما تقوله ردًّا على هذه المرافعة.»

أجاب بهدوء: «ردِّي سيتقيَّدُ إلى حدٍّ كبير بما يمكن أن أستخلصَه من الاستجواب.»

نُوديَ على الشاهد الأول وهو الكهربائي الذي اكتشف الجثةَ وأدلى بشهادته، ولكن لم

يستجوبْه ثورندايك. بعد ذلك نُوديَ على الرقيب الذي وصف اكتشافَ الجثة بمزيد من التفاصيل. لمَّا جلس النائب العام، قام ثورندايك وانتبهتُ له بكل حواسي.

سأل: «هل ذكرتَ كلَّ شيء رأيتَه أو وجدتَه في الغرفة؟»

«في ذلك الوقت، نعم، ولكن في الثاني من أكتوبر، وجدتُ قلمَ رصاصٍ كربونيًّا صغيرًا على الأرض أمام الغرفة القريبة من النافذة.»

أخرج من جيبه ظرفًا استخرج منه القطعة التي قال عنها «القلم الرصاص» وأعطاها لثورندايك، الذي ناولها إلى القاضي وذكر أنه يرغب في ضمِّها إلى مستندات القضية، ثم جلس. تفحَّص القاضي القطعةَ بفضول ثم رمق ثورندايك بنظرة يكسوها الفضول، وسبق أن رمقه بهذه النظرة مرة أو مرتين. نادرًا ما أرى زميلي في دور المحامي، ولكنه عادةً ما يفجِّر المفاجآت.

مع تتابع الشهود بعد ذلك، استمع ثورندايك إلى أقوالهم وكلُّه آذان صاغية ولكنه لم يستجوبْهم، رأيتُ الفضولَ في نظر القاضي إليه من وقت إلى آخر ونمَا فضولي أنا الآخر أكثر وأكثر. بدا لي أنه يوفر جهدَه لأهم الشهود. بعد مدة، نُوديَ اسم جيمس برودي، ودخل عاملٌ كبيرٌ في السن بمظهرٍ ينمُّ عن جديَّتِه. أدلى بشهادته بوضوح وثقة، على الرغم من وضوح التردُّد من جانبه، ورأيت أن وصْفَه الدقيق لهذا المشهد المشئوم ترك انطباعًا كبيرًا لدى هيئة المحكمة. بعدما انتهى القاضي من استجواب الشاهد، نهض ثورندايك وانتبه القاضي كي يُصغيَ إلى ثورندايك بكلِّ حواسه.

سأل ثورندايك: «هل سبق أن دخلتَ إلى منزل اللاركس؟»

«كلَّا يا سيدي. كنت أمرُّ من جانب المنزل مرتين يوميًّا لسنوات، ولكني لم أدخلْه قطُّ.»

«عندما نظرتَ من الثقب، هل كانت الغرفة مضاءة؟»

«كلَّا، وجدتُها معتمةً للغاية. لم أستطع أن أرى سوى ما كان يفعله مَن كانوا بالداخل.»

«وبرغم ذلك تعرفتَ على السيدة فيليس بوضوح تام؟»

«لا، لم أتعرف عليها في البداية. لم أتعرف عليها إلى أن وقفتْ تحت القوس. بدا الضوء ساطعًا نوعًا ما في تلك البقعة.»

«هل رأيتَها وهي تخرج من الغرفة الأمامية وتمشي إلى أن وقفت تحت القوس؟»

«لا، رأيتُها في الغرفة الأمامية ثم أتى شيءٌ وحجب الثقب وبالتالي أصبح كلُّ شيء مظلمًا. ثم مشى الحاجز من أمام الثقب مرة أخرى ورأيتُها واقفة تحت القوس، ولكني

لم أرَها إلا لمدة دقيقة أو دقيقتين. ثم حُجبت الرؤية من الثقب مرة أخرى ولما فُتحت مرة أخرى وجدتُها عادت إلى الغرفة الأمامية.»

«كيف عرفتَ أن المرأة في الغرفة الأمامية هي السيدة فيليس؟ هل رأيتَ وجهها في هذا الضوء الخافت؟»

«لا، ولكني تعرفتُ عليها من ملابسها. كانت ترتدي مئزرًا مخطَّطًا بياقة كبيرة بيضاء تُشبه ياقةَ البحارة. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك أحدٌ آخر.»

«بالنسبة إلى السيد بلاند، هل رأيتَه يخرج من الغرفة الأمامية ويمشي إلى أن وقف تحت القوس؟»

«لا، حدث ما حدث مع السيدة فيليس. شيءٌ ما حجب الرؤية من الثقب. رأيتُه في الغرفة الأمامية، ثم رأيتُه أسفل القوس ثم في الغرفة الأمامية مرة أخرى.»

«عندما كانَا تحت القوس، هل كانا يتحرَّكان أم ظلَّا واقفَين؟»

«بدَا أن كلَيهما كانَا يقفان ساكنَين.»

«هل كانت السيدة فيليس تنظر إليك مباشرةً؟»

«لا، كانت تنظر إلى مكان يبعد عني قليلًا.»

«أريدك أن تنظر إلى هذه الصور الفوتوغرافية وتُخبرنا بما إذا كان أيٌّ منها يُظهر الرأس بالوضعية التي رأيتَها بها أم لا.»

سلَّم حزمة من الصور الفوتوغرافية إلى الشاهد، ومن ثَم أخذ ينظر إليها صورة تلو الأخرى وبعد مدة أخرج صورة.

قال: «هذه الصورة توضِّح الاتجاه الذي كانت تنظر إليه بالضبط. ربما كانت تقف بزاوية التقاط هذه الصورة بالتحديد.»

ناول الصورة إلى ثورندايك الذي لاحظ الرقم المكتوب عليها وناولها إلى القاضي الذي لاحظ الرقم هو الآخر ووضعها على مكتبه. ثم تابع ثورندايك: «قلتَ إن الضوء كان خافتًا للغاية في الغرفة الأمامية. هل كانت المصابيح الكهربائية مضاءة؟»

«لم أرَ مصابيح مضاءة.»

«كم عدد المصابيح الكهربائية التي استطعتَ أن تراها؟»

«رأيتُ ثلاثة مصابيح معلَّقة في السقف وشمعدانَيْن على رفِّ الموقد وواحدًا على الخِوان. ولكني لم أرَ أيًّا منها مضاءً.»

«هل كان هناك شمعدان واحد فقط على الخِوان؟»

«ربما كان هناك أكثر، ولكني لم أرَها لأنني لم أرَ سوى زاوية واحدة من الخِوان.»

«هل رأيتَ رفَّ الموقد بالكامل؟»

«نعم، شاهدت شمعدانًا في كل طرف.»

«هل رأيتَ أيَّ شيء في الجانب القريب من رفِّ الموقد؟»

«كانت هناك طاولة؛ طاولة قابلة للطي بأرجلٍ ملتوية، ولكني لم أرَ سوى جزء من ذلك؛ فجانب القوس حجب الجزء الآخر.»

«ذكرتَ أنك لم ترَ السيدة فيليس بوضوح تام وأنك رأيتَ الملابس التي كانت ترتديها. هل رأيتَ طريقة تصفيف شعرها؟»

«نعم، كان ملفوفًا أعلى رأسها أو كما يسمونها كعكة وربما كان هناك دبوسٌ أو ما شابه يُثبته.»

عندما أدلى الشاهد بإجابته، انشرح صدري. لم ينشرح كثيرًا؛ لأن اللغز لا يزال من دون حلٍّ. ولكني رأيتُ أن ثورندايك أعدَّ خطة استراتيجية محددة تمامًا. وعندما نظرتُ إلى قفص الاتهام، أدركتُ على الفور أن السجينَين انشرح صدرُهما أيضًا.

تابع ثورندايك: «وصفتَ شيئًا يُشبه الحفرة في الأرضية، حيث خُلعت بعضُ الألواح بالقرب من منتصف الغرفة. هل كانت هذه الحفرة أقرب إلى الخِوان أم إلى رفِّ الموقد؟»

أجاب الشاهد: «كانت أقربَ إلى رفِّ الموقد.» هنا جلس ثورندايك ونزل الشاهد من على المنصة، وعلى الفور قلب كلٌّ من القاضي والمدعي العام مذكراتِهم والدهشة بادية عليهما.

الشاهد التالي هو ألبرت ستانتون، وما أدلى به لم يختلف كثيرًا عما أدلى به برودي؛ ومن ثَم طرح ثورندايك سلسلة الأسئلة نفسها أثناء الاستجواب؛ ومن ثَم سلَّط مزيدًا من الضوء على الإجابات نفسها حتى فيما يتعلَّق بالتعرُّف على الصورة الفوتوغرافيِّة نفسها. وهذا ما أعاد لي بصيصَ الأمل مرة أخرى، ولكنه مجرد بصيص.

لما كان ستانتون آخر الشهود في المحكمة، حسم الاستجواب المقتضب الذي أجراه السيد جون تورفيل القضيةَ بثبوت الإدانة. وهنا نهض ثورندايك وقال إنه دعا شهودًا آخرين، وصعِد أولهم على الفور إلى المنصة. الشاهد هو السيد فريدريك ستوكس، المهندس المعماري وزميل المعهد الملكي للمهندسين المعماريين البريطانيين، وبعد أن أقسم اليمين، قال إنه أعدَّ مسحًا دقيقًا للمنزل الذي يُدعى اللاركس في لوار ديتون وأنه رسم مخططًا بمقياس رسم نصف بوصة إلى قدم. أقسم أن المخطط صحيحٌ ودقيق من جميع الجوانب؛

ومن ثَم أخرج النسخة الأصلية وعددًا من النسخ المطبوعة طبق الأصل. أخذ ثورندايك المخططات منه وناولها القاضيَ وطلب ضمَّ النسخة الأصلية ضمن مستندات القضية وأعطى النُّسَخ إلى هيئة المحكمة.

الشاهد الثاني هو جوزيف بارتون، مصور فوتوغرافي من كنسينجتون. أقسم وقال إنه التقط الصور للسيدة فيليس في مناسبات مختلفة، وآخر صورة التقطها كانت في الثالث والعشرين من أبريل الماضي. أخرج نُسَخًا منها والتاريخ مكتوب على كل صورة. أقسم أن التواريخ المكتوبة هي التواريخ الصحيحة. سُلِّمت الصور الفوتوغرافية للقاضي ونظر فيها واحدة تلو الأخرى. وفجأة، ظهر الذهول على القاضي وأخذ يقلب بسرعة بين الصورة الفوتوغرافية والمذكرات؛ علمتُ أنه صُعق من آخر صورة، الصورة التي تظهر فيها السيدة بشعر قصير.

لما نزل المصور الفوتوغرافي من فوق المنصة، أخذ مكانَه شخصٌ له أهمية كبيرة وهو موظف المختبر. ولما وقف مكانه، ابتسم إلى القاضي وهيئة المحكمة وإلى مَن في المحكمة بوجه عام وكان وجهُه مشرقًا بهذه الابتسامات. بعد أن أقسم ناثانيال بولتون، قال إنه في الخامس عشر من أكتوبر، ذهب إلى منزل اللاركس في لوار ديتون والتقط ثلاثَ صور فوتوغرافية للغُرَف في الطابق الأرضي. التُقطت الصورة الأولى من الثقب جهة اليمين في السديل المحدد بالحرف «أ»، والتُقطت الصورة الثانية من خلال الثقب جهة اليسار، والتقُطت الصورة الثالثة من نقطة داخل الغرفة الخلفية بين النوافذ ومن مكان نقطة أقرب إلى النافذة المحددة بالحرف «ب». أخرج هذه الصور الفوتوغرافية بالمواصفات المكتوبة على كلٍّ منها. أعدَّ كذلك بعضَ الصور الفوتوغرافية المركَّبة بحيث يظهر شخصان بملابس مثل الملابس التي وصفها الشاهدان برودي وستانتون. الجسمان في الصور الفوتوغرافية هما جسم السيدة وينيفريد بليك وجسم المحامي روبرت أنستي، على التوالي. وفوق هذين الجسمين، ركَّب رأسَي المسجونَين؛ ثم شرح بولتون طريقةَ التركيب بالتفصيل. الغرض من الصور الفوتوغرافية هو توضيح أنه يمكن طباعةُ صورة برأس شخص وجسم شخص آخر. قال أيضًا إنه رأى صورةً للسجينين وأخذها، وقال إنه وجدها في غرفة النوم؛ ومن ثَم أخرجها وأعطاها للقاضي. وبذلك انتهى من الإدلاء بشهادته.

استدعى ثورندايك السجينَ السيد بلاند وبعد أن جعله يُقسِم على نفْي هذه التهمة عنه، تقدَّم وسأله عن الأرباح التي يجنيها من دور السينما الثلاث؛ وبدا أن الأرباح تزيد على ستة آلاف جنيه سنويًّا.

«في حالة وفاتك، إلى مَن ستئول هذه الثروة الكبيرة؟»

«إذا كانت زوجتي حية، كانت ستنتقل إليها، ولكنها متوفاة الآن؛ وبالتالي ستنتقل إلى شريكي ومديري السيد يوليوس ويكس.»

«مَن كان المسئول عن المنزل في ديتون حينما كانت السيدة فيليس في فرنسا؟»

«أنا، المفاتيح كانت معي.»

«هل سبق أن أخذ أحدٌ المفاتيح منك؟»

«لمدة يوم واحد فقط؛ طلب مني شريكي السيد ويكس أن أسمح له باستخدام القارب لأخْذ جولةٍ في النهر وأن يتناول وجبة في المنزل؛ ولذا أقرضتُه المفاتيح وأعادها لي في اليوم التالي.»

بعد استجواب بسيط، رجع بلاند إلى قفص الاتهام ثم جاء الدور على السيدة فيليس التي أقسمت على نفْي هذه التهمة عنها، ووصفت تحركاتِها في فرنسا وفي لندن في الفترة التي ارتُكبت فيها الجريمة. ولما سُئلت، وصفت الأحداث التي فقدت فيها شعرها.

سأل ثورندايك: «هل تتذكَّرين التاريخ الذي وقع فيه الحادث؟»

«نعم، وقع الحادث في الثلاثين من مارس. كتبتُ التاريخ كي أعرف المدة التي استغرقها شعري كي ينموَ مرة أخرى.»

عندما جلس ثورندايك، نهض المدعي العام وأجرى بعض الاستجوابات البحثية، ولكن من دون زعزعة ما أدلى به السجينان بأي شكل من الأشكال. عندما انتهى وعادت السيدة فيليس إلى قفص الاتهام، نهض ثورندايك مخاطبًا المحكمة من أجل الدفاع.

بدأ قائلًا: «السادة هيئة المحكمة الموقرة، لن أُشغلَ الوقت في سرد الأقوال ولا في مناقشة مسألة الدافع خلف ارتكاب الجريمة. إدانة السجينين أو براءتهما تعتمد على دقة ما أدلى به الشاهدان وهما برودي وستانتون أو على عدم دقة ما أدليَا به، وسأقتصر على تفنيد الأقوال.

كما لاحظتم، فهذه الشهادة تنطوي على بعض التناقضات التي لا تخفَى على أحد؛ بدايةً وصفَ الشاهدان كلاهما ما رأياه بعبارات متطابقة؛ فقد رأيَا الأشياء نفسها بالضبط في الأماكن نفسها بالضبط نسبيًّا، ولكن هذا مستحيل عمليًّا إذا كانَا ينظران حقًّا إلى داخل الغرفة؛ والسببُ أنهما كانَا ينظران من نقطتَي رؤية مختلفتين ومن خلال ثقبَين مختلفين يبعدان عن بعضهما بمقدار ستِّ بوصات، ولكنَّ هناك تناقضًا آخر مذهلًا أكثر. وصفَ الرجلان كلاهما عددًا من الأشياء في الغرفة بأوصاف واقعية وكاملة وواضحة؛ في حين أن

هذه الأشياء لا يمكن أن يراها أيٌّ منهما، وكذلك وصف كلاهما أشياءَ أخرى بأوصاف جزئية على الرغم من وقوعها في مرمى البصر بالكامل. على سبيل المثال، وصف الشاهدان كلاهما رفَّ الموقد بالشمعدانَيْن والطاولة ذات الأرجل الملفوفة بالقرب منه؛ ولم يرَ كلاهما سوى زاوية من الخِوان، ولكن إذا نظرنا إلى مخطط المهندس المعماري وجربْنا باستخدام مسطرة مستقيمة، فسنرى أنه لا يمكن لكليهما رؤيةُ رفِّ الموقد ولا الطاولة. هذا الجزء بالكامل من الغرفة كان مخفيًّا عنهما بدعامة القوس، ولكن بالنسبة إلى الخوان، نجده واقعًا في مرمى بصر برودي بالكامل بأعمدته، ونجده مرئيًّا لستانتون بالكامل ما عدا جزءًا من الجانب القريب منه. الأدهى من ذلك، إذا وضعنا المسطرة المستقيمة على النقطة «ج»، واختبرناها بمطابقة جوانب القوس، فسنجد أن الشخص الذي يقف في تلك البقعة سيرى الأوصاف التي ذكرها الشاهدان بالضبط. أرفقتُ نُسَخ المخططات مرسومًا عليها خطوط بالقلم الرصاص توضِّح ما أقول؛ وإذا وجدتم صعوبةً في تتبُّع المخططات، فقد أرفقتُ الصور الفوتوغرافية التي التقطها بولتون للغرفة. التُقطت الصورة الأولى من الثقب الذي استخدمه برودي، وتوضح تمامًا ما سيراه إذا نظر من خلال هذا الثقب؛ وترى المحكمة الموقرة أن الصورة تتطابق مع المخطط تطابقًا كاملًا وتتعارض بالكامل مع ما ذكره الشاهد. توضح الصورة الثانية الأشياءَ المرئية لستانتون، أما الصورة الثالثة التي التُقطت من النقطة «ج»، فتوضح تمامًا المشهد الذي وصفه الشاهدان بالضبط، ولكن يستحيل أن يرى كلاهما هذا المشهد في ظلِّ الظروف المذكورة.

والآن، ما تفسير هذه التناقضات غير العادية؟ أظن أن لا أحدَ يشكُّ في صدْق الشاهدين. وبالتأكيد لا أشكك أنا أيضًا. ولا أشك بأي حال أنهما قالَا الحقيقة بناءً على ما رأياه. ولكنهما ذكرَا أنهما رأيَا أشياء يستحيل رؤيتُها عمليًّا من مكان وقوفهما. فكيف يمكن التوفيق بين هذه التناقضات المذهلة؟»

توقَّف ثورندايك وخيَّم الصمت على المكان، ولاحظتُ أن القاضي يُحدق فيه وعينُه تنتظر ما سيُدلي به؛ ورأيتُ هذه النظرة في أعين هيئة المحكمة وكلِّ من حضر إلى المحكمة.

استأنف قائلًا: «سأقول لكم أيها السادة، هناك تفسير واحد للتوفيق بين هذه التناقضات توفيقًا تامًّا؛ كما أن هذا التفسير يوفق بين جميع التناقضات والتعارضات الغريبة الأخرى التي ربما لاحظتموها. إذا افترضنا أن هذين الرجلَين كانَا ينظران بالفعل إلى صورة متحركة على شاشة ممتدة عبر القوس، بدلًا من النظر من خلال قوس إلى داخل الغرفة حسب ظنهما، فستتلاشى كلُّ هذه التناقضات. وبذلك يُصبح كلُّ شيء واضحًا تمامًا ومتسقًا ومفهومًا.

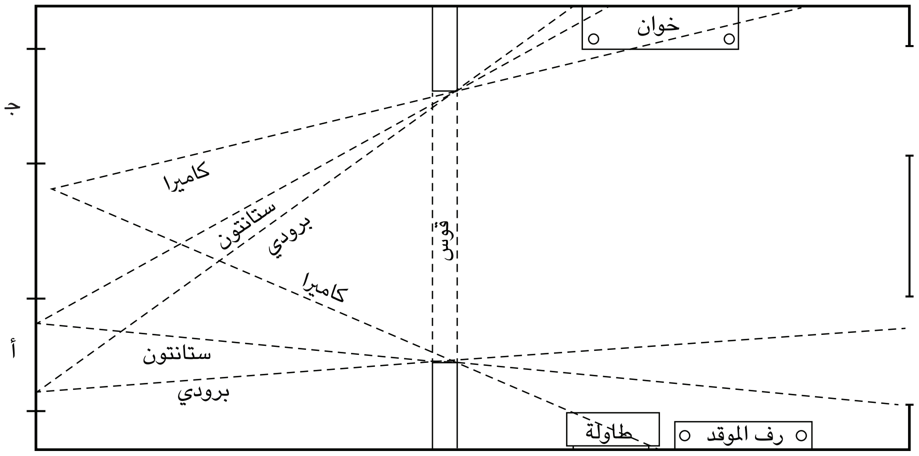


مخطط الغرفة.

من نقطتَي رؤية مختلفتين، رأى الرجلان المشهد نفسه؛ وهذا طبيعي إذا نظر كلاهما إلى الصورة نفسها، أما خلاف ذلك فمستحيل تمامًا. مرة أخرى، من النقطة «أ»، رأى الرجلان كلاهما مشهدًا لا يمكن رؤيتُه إلا من النقطة «ج». وهذا المشهد طبيعي تمامًا إذا نظر كلاهما إلى صورة التُقطت من النقطة «ج»؛ والسببُ أن الصورة لا تتغير بتغير زاوية الرؤية التي تُرى منها. ولكنَّ خلافَ ذلك مستحيلٌ عمليًّا.

يمكنكم الاعتراضُ استنادًا إلى قدرة الرجلين في التمييز بين الصورة والغرفة الحقيقية. ربما يمكنهما ذلك حتى في الإضاءة الخافتة، ولكن إذا نظرَا إلى المشهد بالعينين وليس بعين واحدة، لكنَّ كلَّ واحد منهما لم يكن ينظر إلا بعين واحدة من خلال ثقبٍ صغير. الأمر يتطلب استخدام العينين كلتيهما للتمييز بين الشكل المجسم والصورة المسطحة. لا يوجد فرقٌ من منظور الأعور — وربما كان هذا السبب في كون الرسام الأعور أدقَّ في رسم أعماله الفنية — فهو يرى العالم من حوله على أنه صورة مسطحة، تمامًا كما يرسمها، في حين أن الرسام السليم العينين يضطر إلى تحويل الشكل المجسم إلى صورة مسطحة. وللسبب نفسه، إذا نظرنا إلى صورة بعين واحدة وأغلقنا العين الأخرى، فغالبًا ما سنراها مجسمة، والسبب في الحقيقة هو تحوُّل الإطار والأشكال المجسمة من حولها إلى صورة

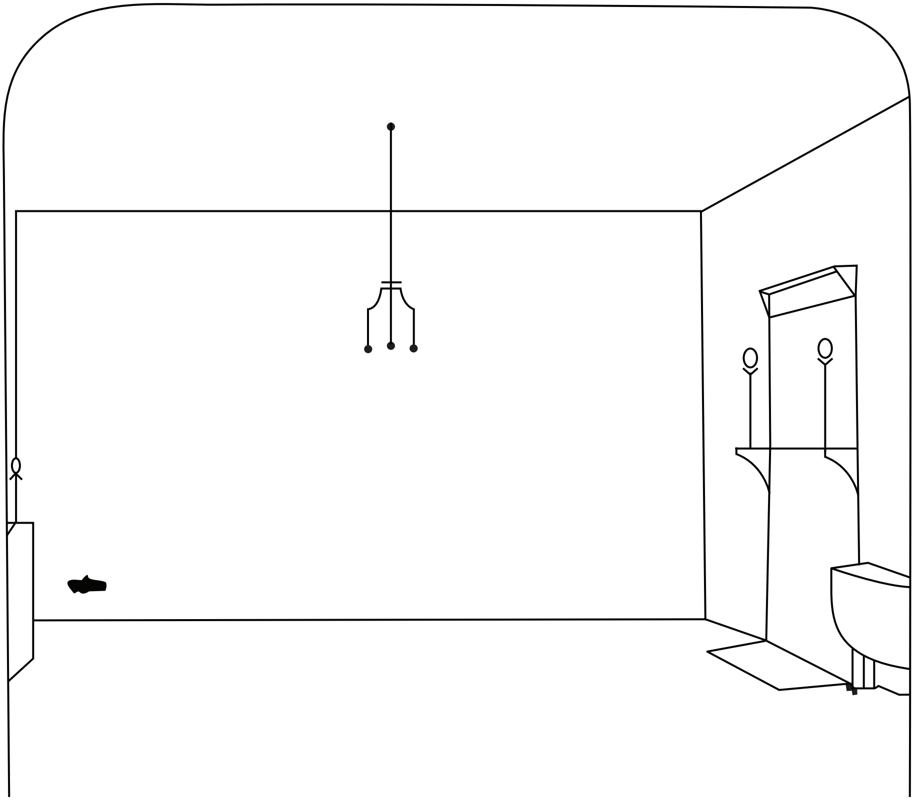

الغرفة حسب وصف برودي.

مسطحة. ولذا، إذا لُوِّنت هذه الصورة — ولا بد أنها لُوِّنت — فلن يتمكن شخصٌ ينظر بعين واحدة أن يميزَها طالما الواقع من حوله مجسم.

إذن، لنتعرف كيف تتلاشى التناقضات الأخرى. هنا تظهر السجينة السيدة فيليس. شوهدت في يوم الثامن عشر من مايو أو بعده بشعرها الطويل الملفوف أعلى رأسها، ولكن في ذلك التاريخ كان شعرها قصيرًا جدًّا. وسمعتم هذا في أقوالها ورأيتموه في الصورة التي التقطها المصور في الثالث والعشرين من أبريل وهي تظهر بشعر قصير، بطول شعر

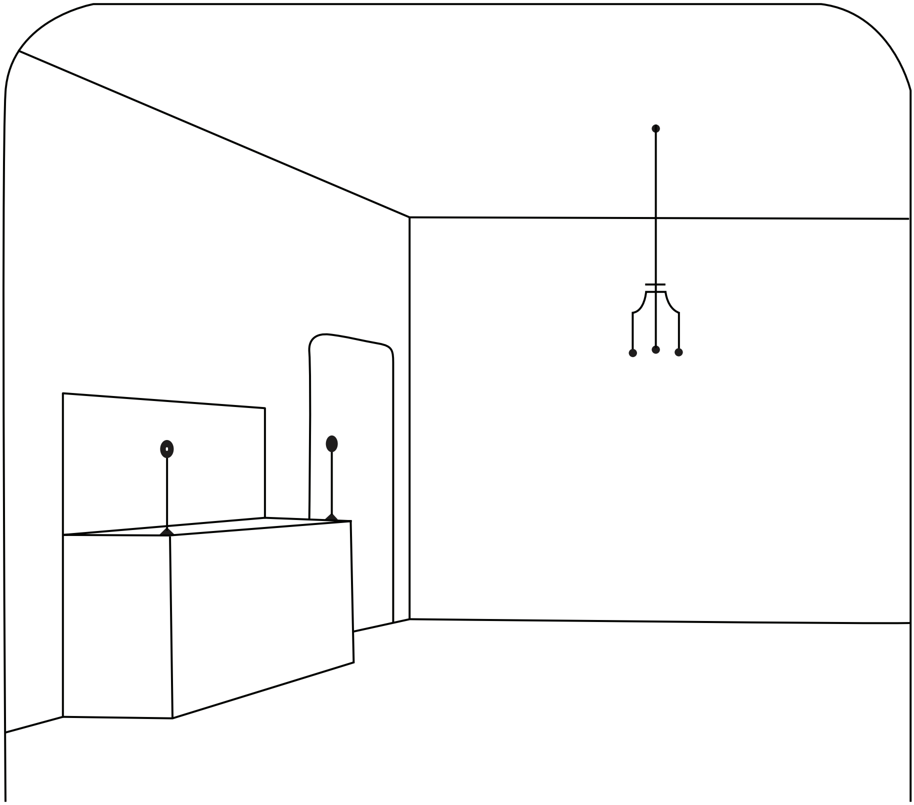

الغرفة من الثقب الذي تجسس منه برودي.

الرجل. يذوب هذا التعارض من مجرد معرفة أن هذين الرجلين لم ينظرا إلى السيدة فيليس على الإطلاق، وإنما رأيَا صورة فوتوغرافية لها التُقطت منذ ما يزيد على عام.

كلُّ الشواهد تتطابق مع هذا الافتراض. تبيَّن أن مظهر السيدة فيليس الذي ذكره الشاهدان يتطابق مع مظهرها في هذه الصورة الفوتوغرافية، وهذه الصورة كانت موجودةً في المنزل وبإمكان أيٍّ شخص يدخل إلى المنزل أن يطبع نسخة منها. صورتُها كانت ساكنةً تمامًا. ظهرت السيدة فيليس فجأة في القوس ثم اختفت؛ أي لم تُرَ تجيء وتروح. وظلَّ

الضوء يتَّقد وينطفئ، وكانت هناك فتراتٌ من الظلام لا تفسيرَ لها، ولكن هذا يتناسب تمامًا مع مرات ظهور السيدة ومرات اختفائها. ثم أُلقي ضوءٌ ساطع على الصورة، على الرغم من أن الغرفة كانت مظلمة تقريبًا. بالطبع سُلِّط قدر كبير من الضوء عليها. فكان لا بد أن يتعرف عليها مَن بالخارج. وبالطبع كانت الإضاءة في باقي الغرفة خافتة؛ لأنه لا ينبغي التعرُّف على ممثلي الفيلم في الخلفية.

أيضًا، يوجد ملبس غير عادي؛ المئزر المخطط ذو الياقة البيضاء وسترة الرسام التي يرتديها السيد بلاند. لماذا هذا التنكُّر السخيف؟ الغرض منه واضح. الغرض هو جعلُ مَن ينظر من الخارج يصدق أن الصور التي عند القوس — التي أخطآها واعتقدَا أنها أناسٌ حقيقيون — هي لأشخاص مثل ممثلي الفيلم في الخلفية، الذين لا يمكن تمييزُ ملامحهم. وقد أوضح لنا السيد بولتون طريقة تدبُّرِ أمر الملابس في الصور.

هناك إضاءة الغرفة كذلك. كيف كانت إضاءتُها؟ لم تُضَأْ أيٌّ من المصابيح الكهربائية، ولكن عُثر على قلم رصاص كربوني من لمبة في القوس — مثل الذي يستخدمه المصور السينمائي — بالقرب من النقطة «ج» التي التُقطت منها الصورة وعُرضت؛ وفي يوم قريب من هذا التاريخ، أظهر عدادُ الكهرباء أن هناك تسريبًا غير مبرَّر في التيار وهو ما يمكن تفسيرُه باستخدام مصباح القوس.

ثم إن أقوال الشاهدَين توضح وجود الحفرة في الأرضية في المكان الخطأ. بالطبع لا يمكن أن تكون حفرةً حقيقية؛ لأن مفاتيح الغاز والكهرباء تحتها مباشرة. ربما كانت الحفرة عبارة عن مستطيل من الورق الأسود، ولكن لماذا وُضعت في المكان الخطأ؟ أظن أن السبب هو أن الصورة التُقطت قبل ارتكاب جريمة القتل (وربما عُرضت أيضًا قبل الجريمة)؛ وهذه البقعة الموضحة كانت هي البقعة المزمع دفن الجثة فيها، ولكن لما رُفعت الألواح بعد جريمة القتل، اكتُشفت المفاتيح تحت الأرضية وبات لزامًا اختيارُ مكان آخر.

في النهاية، وفيما يتعلق بالتناقضات، ما الذي حلَّ بالمُشاهد الثالث؟ أين هو الرجل الغامض الذي أتى إلى البوابة ونادى على الرجلين من الممر الذي يمران به كلَّ يوم في الوقت نفسه تقريبًا؟ مَن هو هذا الشخص الغامض؟ وأين هو؟ هل يمكن أن نعرف اسمه؟ هل يمكن القول بأنه موجود في هذه اللحظة في هذه المحكمة، ويجلس بين الحضور، ويستمع إلى توسُّلات الضحيتَين البريئتَين اللذين سُجنَا ويقفان خلف القضبان وهما ينتظران خلاصَهما؟ أؤكد لكم أيها السادة أنه هنا. وإلى هنا تنتهي مرافعتي ولا أزيد على ذلك.»

توقف ثورندايك وخيَّم صمت غريب ومثير للدهشة على قاعة المحكمة. استرق الرجال والنساء النظرَ من حولهم؛ حدقت هيئةُ المحكمة النظرَ في قاعة المحكمة وأخذ القاضي يبحث في أوراقه، ويبحث متفحصًا أسماء مَن شاهدوا الحادث. وفجأةً، وقعت عيني على السيد ويكس وخطيبته. رأيتُه يمسح العرق الذي يتصبَّب على وجهه الشاحب المرتاع؛ وألقت المرأة برأسها على يدَيها وأخذت ترتجف وكأنها مصابة بنوبة قلبية.

لم أكن الوحيد الذي لاحظ هذا. التفتت جميعُ الأعين في المحكمة إليهما، عينًا تلو الأخرى بمن فيهم الحاضرون والحاجب وهيئة المحكمة والمستشارون والقاضي؛ إذ لاحظ الجميع الرعب في أعينهما. خيَّم الصمت على المكان وكأن على رءوسنا الطير.

كانت لحظةً مأساوية. توترت الأجواء وأبدى الحاضرون الذين يعجون بالمحكمة التعاطف. وقف ثورندايك ينظر لبرهة بشخصيته القيادية ووجهه الشديد الانفعال في سكونٍ دون حَراك وكأنه يجسِّد «القدر والعدالة»؛ ومن ثَم ترك العواطف تتوج مرافعته.

استأنف ثورندايك مرافعته بعد فترة. بدأ قائلًا: «قبل الختام، يجب أن أقول بعض كلمات بشأن جانب آخر من جوانب القضية. قال المدعي العام المستنير وهو يُشير إلى الدافع وراء ارتكاب الجريمة: إن السجينَين عمدَا إلى إزالة عقبةٍ في طريق زواجهما، ولكن تبيَّن بالدليل أن هناك أشخاصًا آخرين لديهم دافع أقوى وأوضح للتخلُّص من المرحومة لوسي بلاند. سمعتم أنه في حالة وفاة السيد بلاند، فسيرث شريكُه السيد يوليوس ويكس تركةً تُدِرُّ عليه ستةَ آلاف جنيه سنويًّا، ولكن بشرط أن تكون زوجة السيد بلاند متوفاة. الآن، تحقَّق الشرط الأول للحصول على التركة وهو موت السيدة لوسي بلاند، وفي حالة الحكم بالإدانة على السجين السيد بلاند، فبموته على حبل المشنقة سيتحقَّق الشرط الثاني؛ وبالتالي ستنتقل التركة إلى شريكه يوليوس ويكس، هذه نقطة غاية في الأهمية، وهناك حقيقة أخرى لا تخفى عليكم وهي أنه منتجٌ سينمائي خبير ومدير دار سينما وثبت أنه دخل إلى المنزل في ديتون وأنه خطيب ممثلة سينمائية.

في الختام، أقول بأن شهادةَ كلٍّ من برودي وستانتون تؤكد أنهما كانَا يُشاهدان صورةً متحركة، وأقول بأن جميع الأقوال الأخرى تُثبت هذا التأكيد. وأيضًا الأقوال بشأن الصورة المتحركة دليل على تبييت أمرٍ بليل لرمي التهمة على السجينَين، ولكن المؤامرة لا بد لها من متآمرين. ولا شك في أن هؤلاء المتآمرين هم القتلة الحقيقيون الذين قتلوا السيدة لوسي بلاند. ولكن إذا كان الأمر كذلك، وأنا أؤكد أنه لا ريب كذلك، فسيتبع ذلك براءة المتهمين من الجريمة المنسوبة إليهما؛ وبناءً عليه أطلب الحكم بالبراءة.»

لما جلس ثورندايك، ارتفعت أصوات الهمهمة في المحكمة، ولكن لا تزال جميعُ العيون موجهة نحو ويكس ويوجينيا كروب. وبعد لحظة، نهض الاثنان ومشيَا بخُطًى متخبطة باتجاه الباب، ولكن في هذا الوقت، لاحظتُ المشرف ميلر ظهر فجأةً ووقف عند المدخل ومعه شرطيٌّ يرتدي الزيَّ الرسميَّ. لما وصل ويكس ويوجينيا إلى الباب، رأيتُ الشرطيَّ يهزُّ رأسه. وسواء كان معه إذنٌ أو لم يكن معه، كان سيمنع هروبهما من المحكمة. كانت هناك وقفة وجيزة. فجأةً، اندلع صخبٌ فوضوي وأصوات عالية وصوت طلقات نارية وكسرٌ في زجاج؛ رأيت ميلر يُمسك معصم الرجل ويُثبته على الحائط، وكانت المرأة تصيح وتصارع الشرطي كي تصلَ إلى الباب.

بعد إدخال المشاغبين إلى الحجز، تطورت الأحداث بسرعة. كان ردُّ المدعي العام مقتضبًا وحياديًّا، وبعيدًا عن توجيه الاتهام، ولكن لخَّص القاضي مرافعة ثورندايك مع توجيه واضح إلى الحكم بالبراءة. لم يكن هناك حاجة إلى المزيد؛ فهيئة المحكمة حسمت أمرها لدرجة أن كاتب العدل لم يكد يتفوَّه بالطعن عندما ردَّ رئيس المحكمة بالحكم «بعدم الإدانة». بعد دقيقة وعندما هدأ التصفيق وبعد تهنئة قصيرة من القاضي، خرج المتهمان من قفص الاتهام ونزلَا إلى ساحة المحكمة وعيناهما تذرفان الدموع والابتسامة بادية على وجهَيهما. صافحَا ثورندايك وشكرَاه على تخليصهما من هذه التهمة.

أخذ مايفيلد يمسح دموعَه خفيةً، وقال: «نعم، تلك هي الحقيقة. كان الأمر رائعًا ومع ذلك كان كلُّ شيء واضحًا جدًّا عندما عرفت.»

الفصل الخامس

# ناشر الأوبئة

لا تزال الصداقة الحميمة بين ثورندايك وتابعِه المخلص بولتون قائمةً — على الأقل جزئيًّا — ربما بفضل أوجه تشابه معينة في شخصيتَيْهما. بولتون حرفي بارع ومتعدد المواهب، رجل يمكنه فعلُ أيِّ شيء، بل يُتقن كلَّ ما يفعله؛ ولا يبرح ثورندايك عن قوله بأنه لو لم يتخصص بولتون في العلوم، لاختار أن يُصبح حرفيًّا ماهرًا. ومهما كانت الأعمال، فهو يمتاز ببراعته في العمل على جميع أجهزة وأدوات البحث، كما أن بإمكانه ابتكارَ عمليات وأجهزة جديدة ويتعاون مع مساعده في تنفيذها.

حدث هذا التعاون عند فتح القضية الجديدة. خطر على عقل ثورندايك أن الطباعة الحجرية يمكن أن يُفيدَ تطبيقها في البحوث الطبية القانونية، وفي هذا الصباح بعينه كان هو وبولتون يُجريان تجربة في فنِّ الطباعة على الحجر. وفي وسط العمل، سُمع رنين الجرس من الطابق السفلي؛ ومن ثَم وضع بولتون بكرةَ الطباعة بالحبر على مضض وهو يمسح يديه في طرف سرواله وغادر كي يفتح الباب.

ولما عاد، قال: «إنه السيد راباج، ويقول إن لديه موعدًا معك يا سيدي.»

ثورندايك: «نعم صحيح، وحسبما فهمت، سيعرض علينا لغزًا عميقًا كي نحلَّه، ومن الأفضل أن تأتيَ معنا يا جيرفيس وتسمع ما سيقوله.»

السيد راباج رجلٌ نبيل مسنٌّ، ولما دخلنا نظر إلينا من خلف نظارته المقعرة وألقى علينا التحية «بابتسامة لطيفة وطفولية». نظر إليه ثورندايك ودخل إلى الموضوع بلباقة.

راباج: «ما أتى بي إلى هنا إلا مسألة شديدة الغموض. عرضتُ الأمر بالفعل على ضابط تحقيقات بارع للغاية وأعرفه معرفة سطحية وهو السيد بادجر، ولكنه قال إن الأمر أكبرُ من قدراته ونصحني أن أستشيرك.»

ثورندايك: «هذا الإطراء الطيب من حسن أخلاق بادجر.»

«نعم، قال إنه متأكد من أنك ستحلُّ هذا اللغزَ من دون أيِّ صعوبة؛ ولذا أتيتُ إليك. وربما من الأفضل أن أعرِّفَكم بنفسي إذا لم تكونوا تعرفونني. أنا مدير دار «سانت فرانسيس» لرعاية القطط المسنة والمريضة والتي لا مأوى لها؛ هذه المؤسسة معنية بتحويل حياة هذه الحيوانات البائسة من خريف تتساقط فيه الأوراق إلى ربيع ينبض بالحياة بفضل توفير سُبُلِ الراحة. يمكن القولُ بأن الدار هي مشروعي الخاص. وأنا أوفر الدعم لها من مصادري الخاصة، ولكني لا أمانع تلقِّي المساهمات؛ وتحقيقًا لهذا الغرض، ثبَّتُّ صندوقًا كبيرًا في قضبان الحديقة بفتحة عريضة مكتوب عليه عبارة تدعو إلى التبرُّعات بالأموال أو التبرُّعات العينية أو بالطعام أو الأطعمة المخصصة للقطط.»

سألتُ: «هل تجمع مبلغًا كبيرًا؟»

ردَّ: «من المال، مبلغ زهيد للغاية. من التبرُّعات العينية، لا شيءَ على الإطلاق. أما من تبرعات الطعام، فأجمع العديد منها، ولكن المتبرعين يُظهرون جهلًا غريبًا بعادات القطط المنزلية. على سبيل المثال، قد أجد أنواعًا من المخللات وقشور الموز، وعلى الرغم من عدم شكِّي في حسن النية، فإنها لا تُناسب طعام القطط، ولكنَّ أغربَ تبرُّعٍ تلقيتُه على الإطلاق ذاك التبرع الذي وجدتُه في الصندوق أول أمس. وجدتُ عددًا من التبرُّعات العينية، ولكن يبدو أنها جميعًا من متبرع واحد؛ وكانت لها سمةٌ غريبة للغاية مما دفعني إلى عرضها على السيد بادجر كما أخبرتُك وتحيَّر هو الآخر في شأنها ومن ثَم دلَّني عليك. تضمنتِ المجموعة ثلاثَ حقائب يد للسيدات ومحفظة من الجلد المغربي وعلبة صغيرة من الألومنيوم. أحضرتُها معي كي أريَها لك.»

سأل ثورندايك: «ما الذي يوجد في حقائب اليد؟»

اتسعت حدقةُ السيد راباج وهو ينظر إلينا وقال: «لا شيءَ. وجدتُها فارغةً تمامًا. وهذا ما يذهلني.»

«وماذا عن المحفظة الجلدية؟»

«كانت فارغةً أيضًا، باستثناء بعض الأوراق الغريبة.»

«وماذا عن العلبة الألومنيوم؟»

السيد راباج متعجبًا: «نعم، هذا أكثر شيء أذهلني على الإطلاق. إنها تحتوي على عددٍ من الأنابيب الزجاجية! وهذه الأنابيب موجودة فيها الآن، فما قولك فيها؟» توقَّفَ عن الحديث مندهشًا، وعندما لم يقدِّم أيٌّ منا اقتراحًا، أتت الإجابة عن سؤاله: «البراغيث والقمل! نعم بالتأكيد! البراغيث والقمل! أليس هذا تبرعًا غير عادي؟»

ثورندايك: «بالتأكيد، ربما يعرف الجميع أن مسكن القطط قد تملؤه البراغيث من تلقاء نفسه.»

راباج: «بالضبط، هذا ما جال بخاطري على الفور، ويمكن القول إنه جال بخاطر السيد بادجر أيضًا، ولكن دعْني أُرِك هذه الأشياء.»

أخرج مجموعة من الأشياء من حقيبة يده وبسطها على الطاولة ومن الواضح أنها متعلقات «أشخاص مسروقين» نشلها بعضُ النشالين الفاسدين ممَّن يمثِّل لهم صندوقُ التبرعات الذي وضعه السيد راباج هديةً من الله. تناول ثورندايك حقائبَ اليد واحدةً تلو الأخرى وأخذ يُمعن النظر بداخلها الفارغ، ثم وضعها جانبًا. نظر إلى محفظة الأوراق بمزيد من الانتباه، لكن من دون أن يُفرغ محتوياتِها، ثم أخذ العلبة الألومنيوم وفتحَها. كانت هذه العلبة لغزًا محيرًا. كانت تُفتح مثل علبة السجائر. أحدُ الجوانب مثبَّت عليه ستة أنابيب عينات وكلُّ أنبوب مزود بغطاء ورقي محكم الغلق، وكلُّ غطاء مثقوب بعدد من ثقوب الإبر، أربعة من الأنابيب الستة تحمل براغيث — حوالي عشرة براغيث في كل أنبوب — كان بعضُها ميتًا والبعض الآخر على قيد الحياة، أما الأنبوبان المتبقيان فكانَا يحتويان على قمل وكان القمل كلُّه ميتًا. في الجانب الآخر من العلبة، كان مثبتًا عليه مقبض ولوح ملاحظات من السليلويد مكتوب عليه بعض الأرقام بالقلم الرصاص.

عند الانتهاء من الفحص، قال السيد راباج: «هل يمكنك اقتراحُ حلٍّ لهذا اللغز؟»

هزَّ ثورندايك رأسَه متأسفًا. ردَّ قائلًا: «كلَّا يا رجل، فهذه المسألة ستحتاج إلى دراسة متأنية. اترك هذه الأشياء لي لإجراء المزيد من عمليات الفحص وسأُخبرك بالنتيجة التي توصلتُ إليها في غضون بضعة أيام.»

نهض السيد راباج ومدَّ يدَه مصافحًا وقال: «شكرًا لك، أظن أن معك عنواني.»

نظر في ساعته وانتزع حقيبةَ يده وخرج من الباب وبعد لحظات سمعناه ينزل على الدرج مسرعًا ولاهثًا وكأنه شخص قضى معظم حياته من دون نشاط.

عندما ذهب الرجل، قلت: «أنا مندهش منك يا ثورندايك على تشجيع مزحة سخيفة من بادجر في العمل. لماذا لم تَقُل لهذا العجوز الأحمق إن ما عليه سوى الذهاب إلى أماكن هؤلاء النشالين وينتهي الأمر؟»

«هذا لأنني لم أتوصَّل إلى حلِّ اللغز أيها المثقف. ينتابني بعضُ الفضول بخصوص صاحب المسروقات، وما عملُه بمجموعة من البراغيث والقمل؟»

قلت: «لا أرى أن شيئًا من هذا يهمُّك، وما أرى صاحب الحشرات سوى عالم حشرات متخصص في علم الطفيليات الحيوانية الخارجية. ربما كان يجمع عدة أنواع وفصائل.»

فتح ثورندايك العلبة وناولها لي ثم قال: «ما قول صديقي المثقف في رائحة اليانسون الخفيفة التي تفوح من هذه المجموعة؟»

قلت: «لا أرى لها تفسيرًا على الإطلاق، إنها رائحة كريهة. شممتُ الرائحة عندما فُتحت العلبة للمرة الأولى. لا يمكنني القولُ سوى أن تاجر البراغيث يحبُّها، أو أنه يظن أن البراغيث تحبُّها.»

ثورندايك: «الاقتراح الثاني هو الأقرب، فأنت لاحظت أن الرائحة تنبعث في الأساس من الأغطية الورقية للأنابيب الأربعة التي تحتوي على البراغيث. ومن الواضح أنه لا توجد رائحة من الأنابيب غير المغطاة. لننظر الآن عن كثب إلى محفظة الأوراق.»

فتح المحفظة وأفرغ محتوياتِها ولم تكن هذه المحتويات ذات أهمية بالغة. من الواضح أن النشال أفرغ الأشياء الثمينة ولم يترك سوى الأشياء التي لا قيمة لها. فاتورة أو فاتورتان تُسجِّلان المشتريات من محلات وجدول وخطاب مختصر بالفرنسية ليس معه مظروفٌ ولا يحمل عنوانًا أو تاريخًا أو توقيعًا، بالإضافة إلى مجموعة من الخرائط الصغيرة المثبتة على بطاقة رفيعة، كان هذا كل ما في المحفظة ولم يكن في المحتويات أيُّ شيء يعطي تلميحًا ولو بسيطًا لتحديد هوية صاحب المحفظة.

تملَّك الفضول من ثورندايك وهو ينظر إلى الخطاب وأخذ يقرؤه بصوتٍ عالٍ.

ثورندايك: «هذه مجرد لفتة بسيطة بأن الخطاب ينبغي ألا يحملَ اسم المخاطب وينبغي ألا يحملَ العنوان أو التاريخ أو التوقيع وأن يكون من دون مظروف. من الواضح أنه تجنَّب أيَّ وسيلة لتحديد الهوية. وعلى الرغم من ذلك، فالمسألة بسيطة وخالية من التعقيد؛ مجرد موعد للاجتماع في قصر «مايل إند بيكشر بالاس» ولكن في الواقع، هذه الخرائط تُثير الاهتمام أكثر، فالألغاز تحيط بها من كل جانب.»

أفرغ محتوياتِ المحفظة ولاحظتُ أنه يُمسكها بحرص من الحواف ويضعها على الطاولة. تضمَّنت المحفظة سبع بطاقات وكلُّ بطاقة عليها خريطة أو بالأحرى مقطع ملصق على جانبَي البطاقة كليهما. أُخذت المقاطع من إحدى خرائط الشوارع لمدينة لندن، وتبلغ أبعادُ كلِّ بطاقة ثلاث بوصات في أربع بوصات ونصف، وكلُّ مقطع يمثل مساحة ميل في ميل ونصف. أُعدَّت هذه المقاطع باحترافية بالغة ورُصَّت بعناية على البطاقات ودُهنت بطبقة ورنيش، ويحمل كلُّ مقطع حرفًا مميزًا، ولكن السمة الأغرب هي عدد الدوائر الصغيرة المرسومة بالقلم الرصاص على مختلف أجزاء الخرائط، وكلُّ دائرة تحيط برقم.

سألتُ: «ما الذي تستنتجه من هذه الدوائر يا ثورندايك؟»

ردَّ: «ليس عندي سوى فرضية تخمينية. وأنا أميل إلى ربطها بالبراغيث والقمل. تلاحظ أن جميع الخرائط تمثِّل معظمَ الأجزاء القذرة في شرق لندن — مثل سبيتالفيلدز وبيثنال جرين ووايت تشابل وغيرها — وهذه الأماكن تكثر فيها البراغيث والقمل، وتلاحظ أيضًا أن لوح السليلويد في علبة الحشرات مكتوبٌ عليه بعضُ الملاحظات بالقلم الرصاص التي ربما تُشير إلى هذه الخرائط. على سبيل المثال، انظر إلى هذه الملاحظة «ب ٢١ أ + ب …»، وستلاحظ أن كلَّ قيدٍ يتضمن الحرف «أ» والحرف «ب» توجد بينهما إما علامة الجمع أو الطرح. وإذا افترضنا أن الحرف «أ» يعني البراغيث وأن الحرف «ب» يعني القمل، أو العكس، فيمكن أن تُشكِّل الخرائط والملاحظات معًا سجلًّا لعمليات جمع أو تجاربَ على أساس جغرافي.»

قلت موافقًا: «ربما، ولكن لا يوجد أيُّ دليل على ذلك على الرغم من كونها فرضيةً رائعة للغاية. نحن لا نعلم ولا يوجد سببٌ يجعلنا نفترض أن علبة الحشرات والمحفظة يمتلكهما شخصٌ واحد. ولا توجد لدينا وسائلُ لمعرفة ما إذا كان شخصٌ واحد يمتلكهما أم لا.»

ثورندايك: «أنت تجور علينا يا جيرفيس. ألسنا مصمِّمي مطبوعات حجرية؟»

قلت: «لا أرى من أين تأتي الطباعة الحجرية هنا.

ثم ينبغي أن تجرب. فهذه قضية اختبار. هذه الخرائط عليها طبقة ورنيش؛ ومن ثَمَّ تعتبر ورقًا شفافًا للطباعة الحجرية، وكذلك لوح السليلويد به سطحٌ لا يمتصُّ المياه. وإذا تعاملتَ مع الورق الشفاف بلا مبالاة عند الرسم عليه، فغالبًا سيترك إصبعُك بصمتَه عليه مثل الرسم عند الشفِّ على الحجر؛ وعليه إذا طبعنا هذه الخرائط ولوحَ الملاحظات على الحجر، فربما نتمكَّن من كشف بصمات الأصابع التي تعاملَت مع هذه الخرائط؛ ومن ثَم يمكننا أن نعرف هل تخصُّ شخصًا واحدًا أم أكثر بناءً على بصمات الأصابع.»

قلت: «ستكون هذه التجربة مثيرةً للاهتمام، على الرغم من أنني لا أرى أيَّ أهميةٍ أن نعرف هل المتعلقات تخصُّ شخصًا واحدًا أو أكثر.»

ثورندايك: «ربما، على الرغم من احتمالية أهميتها، ولكن لدينا طريقة جديدة وينبغي أن نجربها.»

أخذنا الأشياء إلى المختبر وشرحنا المسألة لبولتون، وقد انخرط في النقاش متحمسًا. بعدما أخرج حجارة جديدة من الدولاب، أفرغ محتويات المحفظة واحدة تلو الأخرى

(بالإضافة إلى ملاقيط يستخدمها المختصون بإصلاح الساعات)، وسرعان ما بدأ العمل في كشف البصمات غير المرئية — وربما غير الموجودة — من الخرائط ولوح الملاحظات إلى الحجر. لاحظتُه وهو يتنقَّل بين مختلف العمليات بدقته وحرصِه وبراعته، ورجوتُ ألَّا تذهبَ كلُّ هذه الجهود أدراج الرياح. ولم تذهب؛ لأنه عندما بدأ في الطباعة على الحجر بحذرٍ، اتضح أن هناك شيئًا، على الرغم من عدم اتضاح كُنهِ هذا الشيء، ولكن في الوقت الحالي، اتخذت العلامات الغامضة شكلًا محدَّدًا أكثر، وأصبح يمكن التعرُّف على ثماني كُتَل غامضة من بصمات الأصابع المتروكة من دون تحديدٍ وبعضها كان غيرَ مكتملٍ وكانت جميعُها مختلطةً ومتراكبة بحيث قد يستحيل تحديدُ هوية أيٍّ واحدة منها.

تفحَّصها ثورندايك سريعًا وهو متشكك في أمرها. قال: «هذا الاختلاط فظيع، ولكن أعتقد أنه يمكننا اختيارُ البصمات الواضحة بدرجة كافية لتحديد هوية صاحبها إذا تطلَّب الأمر. أيٌّ من هذه البصمات مأخوذ من لوح الملاحظات يا بولتون؟»

ردَّ: «البصمة في الركن العلوي جهة اليمين يا سيدي.»

ثورندايك: «يا له من خبر! إذن ستُجيب هذه البصمة عن سؤالنا. على الرغم من تداخل البصمات، فإنه يمكن رؤيةُ بصمة الإبهام الأيسر بوضوح تام على أنها بصمة الإبهام نفسها المطبوعة على الخرائط.»

بعد المقارنة، قلت: «نعم، لا أشك كثيرًا في تماثُل البصمتين. والسؤال هو، ماذا بعد ذلك؟»

ثورندايك: «نعم، هذا هو السؤال.» عندئذٍ خرجنا من المختبر وتركنا بولتون مستمتعًا باستخراج الأدلة.

في الأيام القليلة التالية، امتلأ عقلي بالتساؤلات عما يفعله زميلي في هذه القضية، حتى إنه يعمل مع كائن لا يمكنني تخيلُه. مسألة السيد راباج بالغة التفاهة لدرجة أنها لا تستحقُّ أن تُؤخذ على محمل الجد، ولم يكن ثورندايك يسعى إلى حلِّ قضية كما هي عادته ولكنه كان يسعى لمجرد التجربة، ولكن بعد يوم أو يومين، تجلَّت القضية الأصلية وأصبحت تشغل بالَنا من أجل الوصول إلى غرض معين.

كانت الساعة تقارب السادسة مساءً عندما اتصل السيد نيكولاس بالكومب علينا يطلب موعدًا، وبدأ في عرض قضيته بأسلوب شبه رسمي.

قال: «نصحني صديقي ستولكر من شركة «جريفين» لتأمينات الحياة أن أستشيرَك. يقول ستولكر إنك أخرجتَه من مصاعب لا حصر لها، وأرجو أن تتمكن من مساعدتي في

الخروج من مشكلتي، على الرغم من أنها خارج منطقة سلطتك حسبما قال لي ستولكر، ولكنك ستعرف حلَّها أفضل مني.

أنا مدير بنك رذرفورد — فرع كورنهيل — ومررت بتجربةٍ أثارت قلقي للغاية. في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر يوم أمس، تسلَّمنا صندوقًا لحمل الصكوك ومعه خطاب من أحد عملائنا وهو السيد بيلتشر — محامٍ يعمل في بيلتشر وماركهام وسادبيريز — وطلب منا إيداعَه في غرفة الخزينة وإعطاءَ حامله إيصالًا به. بالطبع نُفذ هذا الأمر بالطريقة المعتادة للأعمال، ولكن وقع ظرفٌ غير عادي تبيَّن أنه من حسن حظنا على ما يبدو. بسبب زيادة الأعمال، أصبحت غرفةُ الخزائن غيرَ كافية لاحتياجاتنا؛ ومن ثَم بنينا غرفة أخرى مؤخرًا بأحدث التقنيات بالإضافة إلى مواد ممتازة مضادة للحريق. لم تكن الغرفة استُخدمت بعدُ حينما وصل صندوق السيد بيلتشر لحفظ الصكوك، ولكن كانت الغرفة القديمة ممتلئةً عن آخرها، فُتحت الغرفة الجديدة وأُودِع صندوق الصكوك فيها.

لم يحدث شيءٌ حتى غادرتُ البنك، ولكن في حوالي الساعة الثانية صباحًا، لاحظ الحارس الليلي رائحةَ احتراق، وبعد البحث، تبيَّن أن الرائحة تنبعث من باب غرفة الخزائن الجديدة. أبلغ كبيرَ العمال على الفور الذي كان دورُه النومَ في المنشآت، وفي الحال اتصل كبيرُ العمال بمركز الشرطة. وصل ضابط الشرطة في غضون دقائق مع اثنين من رجال إطفاء الحريق وطفاية حريقة يدوية. أنزلهم العامل إلى غرفة الخزائن وفتح قفل الباب. وبمجرد أن انفتح الباب، اندلعت كتلةٌ من الدخان وخرجت من الباب، ثم رأوا صندوق الصكوك، أو بالأحرى البقايا المتبعثرة منه على الأرض. أخذ الشرطي ما تبقَّى من الصندوق، ولكن أظهر فحصٌ سريع للغاية أُجريَ على الموقع أن الصندوق كان في حقيقته قنبلةً حارقة مزودة بفتيلِ توقيت بطيء أو إجراء مشابه.»

سأل ثورندايك: «هل لحق تلفٌ بأيِّ شيء؟»

بالكومب: «لحسن الحظ لا، ولكن فكِّر في الأشياء التي كانت ستحدث! لو وُضع الصندوق في غرفة الخزائن القديمة، فلا بد أنه كان سيدمر ممتلكات تبلغ قيمتُها آلاف الجنيهات. أو لو كان الصندوق يحتوي على مادة متفجرة بدلًا من المادة الحارقة، فلربما تناثر المبنى كلُّه إلى قِطَعٍ صغيرة.»

«ما تفسير بيلتشر للحادث؟»

«كان ردُّه غايةً في البساطة. قال إنه لا يعرف شيئًا عنه. وقال إن شخصًا ما زوَّر الخطاب، وإن الورقة من أوراق الشركة التي تتضمَّن ترويستها أو ربما ورقة مقلدة

تمامًا لها.» تابع السيد بالكومب: «وتخيَّل أن الحادث لم يقع في هذا الفرع وحده. فقد سألتُ مديري الفروع الأخرى كلًّا بشخصه، واكتشفتُ أن العديد منهم تعرَّض فرعُه لمثل هذه الاعتداءات، وبعضُها أدَّى إلى نتائجَ خطيرة. وربما وقعت حوادثُ أكثر. فكما تعلم، هم لا يتحدثون عن هذه الأشياء. ثم هناك هذه الحرائق؛ حريق هائل في الأشجار في ستيبني وحرائق أخرى في المستودع الكبير بالقرب من أرصفة لندن، هناك شيء غريب بشأن هذه الحرائق. إنها تبدو وكأن عصابةً كانت تعمل لأجل الضرر التام والتدمير.»

«بالتأكيد تشاورتَ في ذلك مع الشرطة، أليس كذلك؟»

«بلى، وأشعر من داخلي بأنهم يعلمون شيئًا، ولكنهم مُتحفِّظون للغاية؛ ولذا أظنُّ أنهم لا يعرفون ما يكفي. على أية حال، أريدك أن تحقِّق في القضية بعيدًا عن مساعدة الشرطة كما أن المديرين لديَّ يريدون ذلك؛ فالوضع منذرٌ بخطرٍ بالغ.»

سأل ثورندايك: «هلَّا أريتني خطاب بيلتشر؟»

بالكومب: «لقد أحضرتُه معي. حسبتُ أنك قد تريد الاطلاع عليه. سأتركه معك، وإذا كان باستطاعتنا تقديمُ أيِّ معلومات أخرى أو مساعدة، فسيُسعدنا ذلك.»

سأل ثورندايك: «هل أُحضر الصندوق إليك تسليمًا باليد؟»

بالكومب: «نعم، ولكني لم أرَ حامله. يمكنني أن أعرف الوصف من الرجل الذي استلم الطرد، إذا كان هذا سيُفيد.»

ثورندايك: «يمكننا معرفةُ أوصاف الرجل الذي أعطى الصندوق واسمه وعنوانه، لربما نحتاج إليه بوصفه شاهدًا.»

نهض بالكومب وأخذ قبعته ثم قال: «سأُحضر تلك المعلومات. سأبحث عنها بنفسي. وستُخبرني بأي معلومات تتوصل إليها في المدة المحددة.»

قطع ثورندايك على نفسه الوعد الذي طلبه الرجل ثم غادر عميلنا.

لما اختفى صوت الخطوات المتسارعة على السلم، قلت ضاحكًا: «وصل إلى أُذُنَيك إطراءٌ طيب اليوم. يبدو أن صديقنا يظنُّ أنك واحد من أصحاب المعجزات، وكأنك حرفيٌّ بارع يمكنه صناعةُ الطوب ليس من دون قشٍّ فحسب، بل من دون طين أيضًا. ليس هناك أساسٌ ننطلق منه على الإطلاق.»

ثورندايك موافقًا: «من المؤكد أن هناك شيئًا ما. بيدِنا هذا الخطاب وأوصافُ الرجل الذي ترك الطرد عندما تصلُنا، ولا أظن أن شيئًا منها سيساعدنا كثيرًا.»

اطَّلع على الخطاب وعلى المظروف ورفع الخطاب في النور ثم ناولهما لي.

لما اطلعتُ على الخطاب والمظروف من دون الوصول إلى أيِّ سمة مميزة في أيٍّ منهما، قلت: «ينبغي أن نعرف ما إذا كانت هذه الورقة ورقةً أصلية من بيلتشر أم أنها مزورة؛ لأنه إذا كانت من الأوراق الأصلية، فلا بد أن الرجل المجهول على اتصال بشخص أو موظف داخل المؤسسة.»

ثورندايك: «لا بد أن هناك صلةً على أية حال. حتى الورقة المزورة تنمُّ عن امتلاكه للورقة الأصلية، ولكنك محقٌّ تمامًا. إنها سلسلة من التحريات، وهذا هو السبيل العملي الوحيد لحلِّها.»

أُجريت التحريات في اليوم التالي، وتبينت الحقيقة واضحةً بأن الورقة كانت من أوراق بيتشر، ولكن الحبر لم يكن من عنده. بدا أن خطَّ اليد غيرُ معروفٍ صاحبُه، ولم يتمكن أحدٌ ممن له صلة بالشركة من التعرف على صاحبه. وجدنا الموظفين كلَّهم — حتى القائمين بالأعمال — يتصفون بالاحترام الكبير وفوق مستوى الشبهات في تورطهم في أعمال من هذا النوع.

السيد بيتشر: «على كلٍّ، هناك مئاتُ الطرق التي يمكن أن تضيعَ بها الورقة إذا أرادها شخص ما، سواء بأخذها من الطابعة أو القرطاسية أو حتى من المكتب، فدائمًا ما تكون هناك أوراقٌ على رفِّ الأوراق على المكتب.»

بذلك المفتاح الوحيد الذي معنا — إذا جاز أن نسمِّيَه مفتاح لغز — وصلنا إلى حلقة مفرغة، وانتظرتُ والفضول يحيط بي كي أرى ما قد يفعله ثورندايك بعد ذلك، ولكن حسبما أرى، فهو لم يفعل شيئًا ولم يتحدث بأيِّ حال عن هذه القضية الغامضة في الأيام القليلة التالية. كنا مشغولين بقدر كبير من الأعمال، وحسبتُ أن هذه الأعمال استحوذت على تفكيره.

وبعد مرور أسبوع تقريبًا وفي إحدى الليالي، تكلَّم للمرة الأولى عن القضية وبدا لي أن الحديث مليءٌ بالألغاز.

قال: «خطَّطتُ لرحلة تفقدية قصيرة غدًا. وأقترح قضاء يوم أو بعض يوم في المنطقة الريفية لمدينة بيثنال جرين.»

سألت: «أي قضية ترتبط بتلك المنطقة؟»

ردَّ: «قضية بالكومب. أجريتُ بعض التحريات الحذرة بمساعدة بولتون، وركزتُ في المقام الأول على الباعة المتجولين وأصحاب المقاهي، وأعتقد أني أمسكتُ طرف خيط.»

سألت: «ما نوع التحريات التي تُجريها؟»

«أنا أبحث عن رجل — أو رجال — يقدِّم عروضًا ترفيهية في الشارع. هذا ما تقترحه البيانات التي لَدَيْنا، بالإضافة إلى احتمالات أخرى.»

تعجبتُ: «البيانات التي لدينا! لا أعلم أن لدينا أيَّ بيانات.»

«لدينا المقدار الذي أعطاه لنا بالكومب بشأن محاولة إحراق البنك. هذا أعطانا بعض التلميحات عن عمل الرجل الذي نبحث عنه. وهناك بيانات أخرى محددة، يمكن أن يتذكَّرها صديقي المثقف.»

قلت: «لا أتذكر أيَّ شيء يُخبر عن رجل يقدم عروضًا ترفيهية في الشارع.»

ردَّ قائلًا: «ليست بيانات مباشرة. إنها فرضية ضمن عدة فرضيات، ولكن المرجح أنها الافتراضية الصحيحة لأنني سمعتُ عن هذا الشخص كلامًا يوافق افتراضي، وتأكدت من أنه يمكن أن يوجد في أيام معينة. وأقترح أن أذهب إليه في مكانه على أملِ أن أراه. وإذا كنتَ تفكر في المجيء معي، فيجب أن أذكِّرَك بأن المنطقة ليست راقية.»

انطلقنا في حوالي الساعة العاشرة في الصباح التالي، ولأن الملابس غير المألوفة في بيثنال جرين يمكن ملاحظتُها بسهولة في المعبد، دخلنا من شارع تيودر وسلكنا طريقنا إلى محطة بلاكفريرز. وبدلًا من «التحري المعتاد في القضية»، لاحظتُ أن ثورندايك كان يحمل حقيبةَ أغراض مصنوعة من ألياف الخشب، وأنه ليس معه عصاه. دخلنا إلى ألدجيت ومنه سلكنا شارع فالانس باتجاه بيثنال جرين، ومشينا بخُطًى سريعة في الطريق الذي سلكناه، ورأيت أن ثورندايك يسير نحو هدفٍ محدد، ولكن عندما دخلنا إلى متاهة الشوارع الضيقة المتاخمة لطريق بيثنال جرين، تباطأتْ خُطانا ومشينا الهوينَى، وأخذ ثورندايك يتوقف عند الزوايا ومفترقات الطرق من وقت إلى آخر؛ وكان يرجع في بعض الأحيان إلى بطاقةٍ في جيبه مكتوبٍ عليها أسماء الشوارع وأيام الأسبوع.

مرَّ حوالي ساعتين في هذا التجول الذي بدا بلا هدف في الشوارع الخلفية.

علقتُ وأنا أكتم التثاؤب: «يبدو أن الحظَّ لن يُحالفَك كثيرًا. وبدَورنا، فلستُ متأكدًا من أننا لسنا تحت «المراقبة»؛ فقد لاحظتُ رجلًا نحيلَ الجسم ورثَّ المظهر يُبقينا على مرأًى منه من بعيد، ولكنني لا أراه الآن.»

ثورندايك: «هذا احتمال واردٌ للغاية. هذا الحي مريبٌ وأيُّ شخصٍ من سكَّانه سيعرف أننا لسنا من هنا. صباح الخير! هلَّا شممتَ بعض الهواء النقي؟»

طُرح السؤال السابق على رجلٍ كان يقف على عتبة مقهى صغير، ومن الواضح أنه خرج كي يأخذ قسطًا من «الراحة».

ردَّ: «لا أعلم شيئًا عن الهواء النقي، ولكنَّ الهواء هنا هو الأفضل. على أية حال، رأيتُ أحدَهم يحجب الهواء الذي أخبرتُكَ عنه، ولكنه مشى من توِّه. غريبٌ معه فئران. إذا أردتَ أن تُشاهد عرضه، أظن أنك ستجده في تلك البقعة التي تعجُّ بالنفايات بالقرب من مساكن الإيجار في شارع بولتر.»

ثورندايك مرددًا كلامه: «مساكن الإيجار في شارع بولتر؟ أليس هذا الشارع متفرعًا من شارع سالكومب؟»

ردَّ: «نعم هو. ستجده في منتصف الطريق على الجهة اليمنى.»

بفضل المعلومات التي لدينا، خرج ثورندايك من الشارع ولما دخلنا المنعطف التالي نظرتُ خلفي. في هذه اللحظة، خرج صاحب الجسم النحيل الذي لمحته قبل ذلك من مدخل ومشى خلفنا بخُطًى توحي أنه يخشى أن نغيب عن ناظره.

تبيَّن أن مساكن الإيجار في شارع بولتر عبارةٌ عن زقاق عريض مرصوف، يطلُّ أحد جوانبه على مقلب نفايات وفيه عددٌ من المنازل القديمة المهدمة. أعجزُ عن وصف القذارة في هذا المكان؛ ولم يقتصر الأمر على ترك حطام المنازل المهدمة في شكل أكوام بغيضة، بل من الواضح أن الحيَّ اتخذ المكانَ بقعةً عامة لرمي النفايات المنزلية. يتناثر على الأرض بقايا الخضراوات وحتى الحيوانات ويحوم البعوضُ والذباب الكبير الحجم حول القمامة ويقف عليها بالمئات، وكان الهواء تنتشر فيه رائحةٌ تُشبه رائحة صناديق القمامة القديمة المصنوعة من الطوب.

ولكن على الرغم من هذه الأجواء المزرية، وجدنا حشدًا كبيرًا يتألَّف معظمه من النساء والأطفال، وكان في وسط الحشد رجلٌ يقدِّم عرضًا ترفيهيًّا مع مجموعةٍ من الفئران المدربة على تقديم العروض. أخذنا نتجوَّل بين مساكن الإيجار وتوقفنا كي نشاهد العرض. في تلك اللحظة، شاهدنا فأرًا أبيض اللون يتسلَّق عمودًا معلَّقًا فيه علم صغير محشور في تجويف. شاهدْناه وهو يتسلَّق العمود بسرعةٍ ويُمسك سارية العلم بأسنانه ويُخرجه من التجويف، وينزل من على العمود ويُعطي العَلَم لمدرِّبه. بعد ذلك أُحضرت عربةٌ صغيرة وأسرع الفأر ودخل إلى العربة، كان هناك فأرٌ آخر أبيض يرتدي عباءةً وجالس على مقعد، وقد أُخذ هذا الفأر في جولةٍ حول المسرح وقُدِّم للجمهور باسم السيدة مورفي.

في أثناء العرض الترفيهي، تفقدتُ المنشأة وصاحبها. يتألَّف المسرح من ألواحٍ معلقة خفيفة ويطلُّ على عربة يدوية صغيرة بأربع عجلات، ومن الواضح أنها مصنوعة في المنزل. في أحد طرفَي العربة، يوجد صندوقٌ كبير منقسمٌ إلى جزأين يفصل بينهما لوحٌ سلكي

ويحتوي كلُّ جزءٍ على عددٍ من الفئران البيضاء والمرقطة، وكانت الفئران في القسم الثاني كلها فئران برية، ولكني لاحظتُ أنها ليست من الفئران البنِّيَّة الشائعة أو النرويجية، بل فئران سوداء بريطانية تنحدر من سلالةٍ قديمة. ذكرتُ تعليقاتي حول ما رأيناه لثورندايك.

قال: «نعم، ربما أمسكها من أماكن محلية؛ فالمجاري هنا تسكنها الفئران البنية، أما المنازل في حي قديم مثل هذا الحي فستجدها موبوءة بالفئران السوداء أكثر من سواها. ما قولك في صاحب العرض؟»

رأيتُ الرجل من قبل، وكنت أسترق النظر إليه مرة أخرى الآن. الرجل ذو جسم متوسط البنية وله عينان غائرتان وسوداوان أنهكهما التعبُ — وكان يُديرهما تجاهنا من وقت لآخر — ولم يكن يرتدي قبعة وأشعَث اللحية.

كان ردِّي: «أعتقد أنه من الصقالبة، ربما من روسيا أو لاتفيا، ولكن تلك اللحية ليست مقنعةً البتة.»

ثورندايك موافقًا: «لا، ولكنها مكياج جيد. ربما من الأفضل أن نتحرك الآن؛ فلدينا نائبٌ هنا وأنت لاحظتَه.»

عندما كان يتحدث، رأيتُ الرجل النحيل الذي لاحظتُه وهو يتبعنا يتجوَّل بين مساكن الإيجار؛ ولما أخذ يقترب، حدقت مُذهَلًا عندما انكشف أمامي رجلٌ لا يمكن أن يكون سوى مساعدنا البارع في المختبر وهو بولتون. تغيَّر مظهرُه تغييرًا غريبًا حقًّا إذ رأيت مخترعنا الذي اعتاد على الأناقة والهندام بملابس رثَّة ويد قذرة، وعندما كان يتجول وهو لا يأبه بوجودنا، مرَّت على مخيلتي ذكرياتٌ خافتة لابتسامته التي تُظهر التجاعيد المألوفة على وجهه.

لما أوشكنا على الرحيل، اندلعت موجةٌ من الصراخ الممتزج بالضحك من المتفرجين الذين سرعان ما تبعثروا يمينًا وشمالًا، ووقعت عيناي في لحظتها على فأر أسود كبير يقفز في المكان ثم اختفى في كومة من أكوام الحطام الكثيرة. اكتشفتُ أن صاحب العرض فتح الصندوق وأخرج أحد الفئران السوداء، وعندئذٍ انتهز أحدُ الفئران المنتظرة لتقديم العرض الفرصةَ وقفز خارج الصندوق وهرب، يبدو أنه كان قد أُمسك حديثًا.

قالت لي امرأةٌ بابتسامة لطيفة: «هناك الكثيرُ من الأماكن التي تأتي منها هذه الفئران. ينبغي أن ترى هذا المكان في ضوء القمر ليلًا! سترى عرضًا مباشرًا معها!»

تجوَّلنا في مساكن الإيجار وبطول الشارع المتقاطع. وفي طريقنا، فكَّرتُ في التحريات الفريدة التي بدا أن ثورندايك منغمسٌ فيها. كان مظهرُ مروِّضِ الفئران مريبًا؛ فمظهرُه

واضح أنه ليس حقيقيًّا، وبالتأكيد كانت لحيته مصطنعة، ولكن بمهارة؛ إذ لم تكن سوى لحيةٍ «مستعارة»؛ وعيونُه مجهدة ويظهر فيها المكرُ وهناك غرابة مكبوتة في بعض سلوكه مما يلمح إلى شيء أبعدَ مما هو عليه في الظاهر، ولكن إذا كان هذا هو الرجل الذي أثار استفزازَ السيد بالكومب، فكيف توصل ثورندايك إلى هُويته، وفوق كلِّ هذا، ما نوع الاستدلال الذي اتبعه كي يربطَ حريق البنك بفئران مدربة على تقديم العروض الترفيهية؟ كشف الإجراء المنهجي أنه توصَّل إلى المتهم، ولكن كيف؟ فقد بدَا لي أنه لا توجد واقعةٌ واحدة كي يبدأَ التحقيق من عندها.

قطعنا الشارع المتقاطع ووقفنا قبل أن ننعطف حينما ظهر جمعٌ من الأطفال من مساكن الإيجار. ثم أتى صاحبُ العرض وهو يجرُّ عربته والقفص عليه قطعة قماش، ثم أتى المزيدُ من الأطفال، وفي النهاية بولتون على مسافة قصيرة وهو يتسكع محاولًا إخفاءَ نفسه وإبقاءَ العربة على مرأًى منه.

ثورندايك: «أظن أننا قد نستفيد من إلقاء نظرة على مكان العرض الأخير وكأننا ندرس الصرف الصحي في المنطقة.»

رجعنا إلى مساكن الإيجار في بولتر التي أصبحت شبهَ مهجورة الآن وتجولنا في قطعة الأرض المنثورة بالقمامة وبأكوام الطوب والخشب المتعفن والبيوت المتهدمة.

ثورندايك: «صديقتُك كانت محقَّة؛ فهذه جنة مثالية للفئران. مساكن مريحة بين الخرابات والمؤن التي لا حصر لها ويمكنها الانتقاءُ منها كيفما شاءت.»

قلت: «من الواضح أنك أيضًا كنتَ على حقٍّ فيما يتعلق بالفصائل التي تسكن هذه المنشآت المهيأة لها. يبدو أن هذا فأرٌ أسود.» وأشرتُ إلى فأر ميت وملقًى على مدخل أحدِ الجحور.

اندفع ثورندايك نحو جثة الفأر الصغيرة وبعد فحصٍ مختصر، ارتدى قفازًا في يده اليمنى.

قال: «نعم، هذا الفأر من جنس الفئران المنزلية، على الرغم من أن لونه الفاتح غيرُ مألوف. أظن أنه من الأفضل أَخْذُ هذا الفأر وفحصُه في وقت فراغنا.»

بعد أن ألقى نظرةً من حولنا للتأكد من أننا غيرُ مراقَبين، فتح حقيبة الأغراض وأخرج منها علبة صفيح كبيرة نوعًا ما وأزال الغطاء ولاحظتُ أنه مدهون بالفازلين في مكان إحكام غلقه. اندفع والتقط الفأر الميت من ذيله بيده التي يرتدي فيها القفاز وأسقطه في العلبة وأحكم الغطاء ووضع العلبة في حقيبة الأغراض. وبعد ذلك نزع القفاز ورماه على كومة القمامة.

قلت: «إنك بحرُ علمٍ عظيم.»

قال: «الفأر الميت شيء قذر، وكان القفاز قديمًا.»

في طريقنا إلى المنزل، قمتُ بعدة محاولات حذرة لاستخراج بعض التلميحات من ثورندايك بشأن الهدف من التحقيقات وطريقته في الإجراءات، ولكني لم أخرج منه بشيء باستثناء بعض الأمور العامة.

قال: «عندما يُدخل رجلٌ قنبلةً حارقة إلى غرفة خزائن البنك، من المنطقي أن نتحرى عن دوافعه. وعندما نتوصل إلى نتيجة واضحة نوعًا ما بخصوص ماهية هذه الدوافع، يمكن أن نسأل أنفسنا ما نوع السلوك الذي يمكن أن تؤديَ إليه هذه الدوافع؛ وهذا يكشف نوعية الأنشطة التي ربما يكون لها صلة بتلك الدوافع وبالحالة العقلية الملائمة لتلك الدوافع. وأيضًا، عندما نقرر بشأن الدوافع، يمكن أن نبحث عن شخص يقوم بهذه الأنشطة؛ وإذا وجدنا هذا الشخص، فمن هنا يمكن أن تتضح ملابساتُ القضية. وما تبقَّى ما هو إلا مسألة تحقق.»

قلت معترضًا: «هذا جيد جدًّا يا ثورندايك، ولكن إذا عثرتَ على رجلٍ يريد أن يُضرمَ النار في بنك، فلن أستنتج على الفور أن مهنته المعتادة تقديمُ العروض الترفيهية بالفئران في الشوارع الخلفية في بيثنال جرين.»

ضحك ثورندايك ضحكة هادئة. «ملاحظةُ صديقي المثقف منطقية تمامًا. إنها ليست قاعدة عامة. ولكننا نتعامل مع قضية محددة وفيها وقائع أخرى نعرفها. وأصبح يجب العثور على الصلة، إذا كانت هناك صلة. فمن الممكن ألا يكونَ صاحبُ هذا العرض هو الرجلَ الذي يقصده بالكومب بعد كلِّ هذا.»

«وإذا لم يكن هو؟»

«أظن أننا سنحتاج إليه في كل الأحوال، ولكني سأتأكد من ذلك في غضون ساعتين.»

في هذا الوقت، لم أستطع اكتشاف ما حدث في هاتين الساعتين لأنني كنتُ على موعد عشاء مع بعض الزملاء في المهنة وكان يتعين عليَّ الإسراع في أقرب وقت بعدما أنفضُ غبار هذه الرحلة من «الشرق» غير النظيف. عندما عدتُ إلى السكن في حوالي الساعة العاشرة والنصف، وجدتُ ثورندايك جالسًا على كرسيه الهزاز ومنهمكًا في دراسة عن الآلات الموسيقية القديمة. من الواضح أنه انتهى من القضية.

سألتُ: «ما الذي توصَّل إليه بولتون؟»

ثورندايك: «لقد أثار إعجابي، تعقَّب صديقُنا صاحبَ العروض الترفيهية من بيثنال جرين إلى شارع جانبي في راتكليف، واتضح أنه يقطن فيه، ولكنه فعل ما هو أكثر. أعدْنا

كتابًا صغيرًا من عشرات أوراق الشف التي كتبتُ فيها باللغة الفرنسية بعض القواعد الناجحة في ترويض الفئران. وعندما كان الرجل ذاهبًا إلى بيته، أوقفه بولتون وطلب منه رأيَه في هذه التوجيهات بصفته خبيرًا. أظهر الغريبُ النبيلُ عدمَ صبر واضطراب في البداية، ولكن عندما نظر في الكتاب، أصبح مهتمًّا ومستمتعًا كثيرًا وفي النهاية قرأ مجموعةَ القواعد كلها باهتمام. بعد ذلك، أعاد الكتاب إلى بولتون وأوصاه أن يتبعَ القواعد بحذافيرها وعرض عليه أن يقدِّمَ له بعض الفئران كي يُجريَ تجاربَ عليها، ولكن طلب منه بولتون أن يُعلِّقَ العرض لمدة يوم أو يومين.

بمجرد أن وصل إلى المنزل، قطع بولتون أوراقًا من الكتاب ووضعها على الحجر، وكانت هذه هي النتيجة.»

أخذ من مفكرة جيبه عددًا من قصاصات الورق، وكلُّ قصاصة محددة ببصمات أصابع مطبوعة طباعة حجرية بقدرٍ من الوضوح قد يزيد أو ينقص، ووضعها على الطاولة. تصفحتُها باهتمام وراودني شعورٌ بأني شاهدتها قبل ذلك.

قلت: «أليست هذه البصمةُ للإبهام الأيسر تُشبه البصمةَ على الخرائط التي أخرجناها من محفظة الأوراق التي أعطاها لنا السيد راباج؟»

ردَّ: «إنها نسخة مطابقة منها، وها هي أدلة البصمات على الخرائط ولوح الملاحظات. وإذا قارنتها، فيمكن معرفة أن التماثل لا يقتصر على الإبهام الأيسر فحسب، بل في بصمات الأصابع الأخرى.»

بالمقارنة المتمعنة، تبيَّن أن الأمر كذلك.

قلت متعجبًا: «ولكني لا أفهم شيئًا من هذا على الإطلاق. هذه بصمات أصابع عالم الطفيليات المجهول الذي يبحث عنه السيد راباج. وأحسب أنك تبحث عن رجل بالكومب.»

ردَّ: «إحساسي يقول إنهما شخص واحد، على الرغم من أنه لا يوجد دليل قاطع بذلك، ولكن سنعرف قريبًا. تحققتُ من معلومة عن الرجل الغريب، ورتَّب ميلر لمداهمة المنزل في راتكيلف في صباح الغد الباكر؛ ونظرًا إلى الأهمية التي يُنبئ بها الحدث، فأنا أقترح أن تكون حاضرًا. فهل سأحظى بصحبة صديقي المثقف؟»

رددتُ: «بلا شك إطلاقًا، على الرغم من أنني لا أفهم شيئًا من هذه القضية برمَّتها.»

ثورندايك: «لذا أُوصيك بالاطلاع على سجلِّ القضيتين بطريقة منهجية في فترة الراحة.»

في السادسة من صباح اليوم التالي، كنا في منزل مهجورٍ في حارة أولد جرافيل في راتكليف، بصحبة مدير قسم الشرطة ميلر وثلاثة رجال أقوياء البنية بملابس مدنية منتظرين إشارة من خفير. ارتدينا جميعنا سترات مهندسين وكانَت تفوح منها رائحةُ النفثالين. كانت السراويل مدسوسةً في الجوارب وكانت الجوارب والأحذية ملطخةً بكمية كبيرة من الفازلين وكذلك أساور المعصم وكانت الأكمام محكمةَ الربط بشريط. أعطتني هذه الاستعدادات، بالإضافة إلى المسدس الآلي الذي أُعطيَ لكل فرد منَّا، بعضَ التلميحات الطفيفة عن طبيعة القضية، على الرغم من أنها لا تزال غيرَ محددة المعالم في عقلي.

بعد السادسة والربع، وصل مرسالٌ وقال إنهم داهموا المنزل المستهدف وفتحوه. عندئذٍ انطلق ميلر وواحدٌ من رجاله وتتابع الآخرون على فترات قصيرة. عند الوصول إلى المنزل الذي كان على مسافة قريبة من مكان تجمُّعِنا، وجدنا رجلًا ذا ملامح حادة وبملابس مدنية يحرس الباب المفتوح وامرأةً بملابس رثَّة تحمل إبريقًا من الحليب تطلب الدخول إلى منزلها بلهجة غاضبة ولغة إنجليزية ليست سليمة بدرجة كبيرة. لما تجاوزنا مدبرة شئون المنزل الغاضبة، دخلنا إلى ممرٍّ مظلم ووجدنا أن ميلر يخرج من غرفة في الطابق الأرضي.

قال: «تلك هي حجرة المرأة، والمطبخ أشبه بحديقة الفئران. الأفضل أن نرى الطابق الأول.»

سار وصَعِد السُّلَّم وعندما وصل إلى بسطة السُّلَّم، جرب فتح مقبض باب الغرفة الأمامية. ولما وجد الباب مغلقًا بقفل أو مزلاج، انتقل إلى الغرفة الخلفية وحاول فتح الباب ولكنه وجده مغلقًا أيضًا. ولما رفع إصبعه بإشارة التحذير، بدأ في إصدار صفير بنغمة مشهورة ذات صوت جميل وعالٍ، وبالنقر بقدمَيه كلتيهما على الأرض العارية. وعلى الفور سُمع صوتٌ غاضب من الغرفة الأمامية، وصوتُ خطوات نعل تتبدل بسرعة عبر الغرفة. ثم سُمع صوتُ سحبِ المزلاج ومن ثَم انفتح الباب، وعلى الفور وقعت عيناي على الرجل صاحب عرض الفئران مرتديًا منامةً شديدة الاتساخ، ولكن لم يستغرق الأمر سوى بضع لحظات. وحتى لما تقابلتْ أعيُننا، حاول أن يُغلقَ الباب بقوة ولكنه فشل بسبب دخول أحدِ رجال الشرطة عنوة؛ وبالتالي اندفع الرجل إلى الخلف وقفز إلى الفراش وانطلق عبرَ مدخل متصل بالغرفة الخلفية وأغلق الباب بالمزلاج.

ميلر: «هذا مؤسف، سنواجه مشكلة الآن.»

كان مديرُ قسم الشرطة محقًّا. وفي أول محاولة لاقتحام الباب، أحدثتْ رصاصةُ مسدس من الداخل ثقبًا في اللوح العلوي وتحدَّث مَن بالداخل من خلال الثقب مع المقتحم

المحتمل. ردَّ المقتحم من خلال الثقب وسُمع بعد ذلك صوتُ زمجرة وتحطيم زجاج. ولما تنحَّى الشرطي جانبًا ثم توالت الرصاصات من الداخل وامتلأ البابُ بالثقوب المبعثرة عليه. مشيتُ أنا وميلر وثورندايك على أطراف أصابعنا إلى أن وصلنا إلى بسطة السلم وابتعدنا أبعد مسافة ممكنة ودفعنا بأنفسنا على الفور نحو باب الغرفة الخلفية. كان حمْلُ الرجال الثلاثة بالغَ الثقل على هذا الباب الخشبي الضعيف. عندما اندفعنا على الباب، تحطَّم وكأنه تعرَّض لانفجار وطارت مفصلاتُه وسقط أمامنا ومن ثَم اندفعنا داخل الغرفة.

كان المرُّ ضيقًا بالنسبة إلى بعضنا. وقبل أن نقف على أرجلنا، التفت إلينا صاحبُ العرض موجهًا المسدس إلى رأس ميلر مباشرة. القوة الدافعة لثورندايك رمتْه إلى منتصف الغرفة، وفي لحظة خاطفة قبل أن تنطلق الرصاصة، أمسك المسدس في خطفة واحدة ووجَّهَه إلى أعلى وخرجت الرصاصة مما أدى إلى تساقط الجبس من السقف ولكن من دون أن يؤذيَ أحدًا. وتسبَّب عراكُنا في تغيير تكتيكاته على الفور. ترك المسدس في قبضة ثورندايك واندفع قاطعًا الغرفة باتجاه منضدة العمل وكان عليها صفٌّ من العلب الأسطوانية الواقفة. أوشك الرجل على سحب واحدة من هذه العلب الصفيح ولكن جذبه ثورندايك من المنامة من بين كتفيه وسحبه مرة أخرى وهنا اندفع ميلر إلى الأمام وقبض عليه. احتدم الصراع واستشاط لبضع دقائق وأخذ الرجل يُصارع بيدَيه وقدمَيه وأسنانه وكأنه مفترس بريٌّ؛ ومن ثَم تغلَّب على الرجلَين وظلَّ يجرُّهما باتجاه المنضدة. وفجأةً، انطلقت رصاصة من المسدس ثم خيَّم السكون. كان المسدس لا يزال في قبضة ثورندايك ولكنه وقع في يد الرجل ولا أعرف إن كان مصادفةً أو بالإصرار؛ ومن ثَم ضغط على الزناد واخترقت الرصاصةُ رأسَه من فوق أذنه مباشرة.

انذهل ميلر ورفع جبهته وأخذ يمسحها وقال: «أفٍّ! كانت هذه الرصاصة قريبة. وإذا لم توقفه يا دكتور لتطايرنا جميعًا وكأننا ضُربنا بقذيفة.»

قلت: «أتظنُّ أن هذه العُلَب الصفيح عبارة عن قنابل؟»

قلت مكررًا: «أتظنُّ؟! أزلتُ اثنتين مثلهما تمامًا من مكتب البريد العام، وتبيَّن أنها ممتلئة بمركَّب ثلاثي نترات التولوين. وهذه العُلَب المربعة على الرف ليست سوى عُلَب من عينة العلبة التي اندلعت في بنك رذرفورد.»

لما كنَّا نتحدث، أخذتُ أنظر من حولي على الممر وتفاجأتُ لما رأيتُ المرأة التي رأيناها بالأسفل لا تزال تُمسك بإبريق الحليب وتحدق بعين يملؤها الرعب إلى الثائر الميت. لاحظها

ثورندايك أيضًا؛ ومن ثَم مشى إلى حيث تقف وسألها: «هلَّا أخبرتِني هل أُصيب أيُّ شخصٍ بمرضٍ في هذا المنزل، أو مصابٌ حاليًّا؟»

أجابت المرأة من دون أن ترفعَ عينها عن الرجل الميت: «نعم، يوجد رجلٌ نبيل مريض في الطابق العلوي، اسمه ديري. أنا لم أرَه؛ فقد اعتاد أن يرعاه.» وأشارت إلى جثة مقدِّم العروض.

ثورندايك: «أعتقد أننا سنصعد إلى الطابق العلوي ونُلقي نظرة على الرجل المريض. من الأفضل ألَّا تأتيَ يا ميلر.»

بدأنا في صعود السلم، وفي طريقنا سألتُ: «هل تظن أن هذه حالة مصابة بالطاعون؟»

ردَّ: «لا، أظن أن قسم تخليق الطاعون في المطبخ، ولكن سنرى.»

تجوَّل على البسطة التي وصلنا إليها الآن ثم فتح باب الغرفة الأمامية، وعلى الفور وقعت عيناي على غريبٍ وشممتُ رائحةً تفوح قذارتُها ونظرتُ في الغرفة فوجدت رجلًا مستلقيًا على الفراش غائبًا عن الوعي ومغطًّى بملاءة فراش لا يمكن وصفُ قذارتها. دخل ثورندايك واقترب من الفراش، ثم تبعتُه. كان الضوء خافتًا، ولم نتعرف على المرض حتى أصبحنا على مقربة من المريض.

قلت منذهلًا: «لطفك يا رب!»

نظر ثورندايك إلى ملاءة الفراش ونظر إلى رقبة الشيطان البائس، قال: «نعم، يمكننا الآن معرفة كيف جمَع هذا الشريرُ عيناتِه.»

انحنيت على الرجل البائس وكان فاقدًا للوعي فقيرًا، ويتمتم بكلمات، وتملَّكني الرعبُ. كانت ملاءة الفراش والوسادة والمريض كلها تعجُّ بالحشرات الزاحفة.

في طريق عودتنا إلى المنزل، قلتُ: «بالطبع أفهم الانحراف العام لهذه القضية، لكن ما لا يمكنني فهمُه هو كيفية ربط الحقائق.»

ثورندايك: «لنُنَحِّ الجدال جانبًا ونتتبع العلاقات. نقطة البداية هي علبة الألومنيوم التي أحضرها السيد راباج. كان واضحًا أن أنابيب البراغيث والقمل لم تكن ظاهرةً طبيعية. وفقًا لاقتراحك، فربما جُمعت من أجل غرضٍ علمي، ولكن هذا الاحتمال مستبعد. كانت البراغيث على قيد الحياة وتعمَّد جامعُها أن تظلَّ على قيد الحياة حسبما تدلُّ الأغطية المثقوبة للأنابيب، ووجدنا القمل ميتًا؛ لأن القمل يموت بسرعةٍ إذا لم يحصل على غذاء. لم يبدُ أنه تعرَّض للقتل، ولكن على عكس وجهة نظرك، كانت هناك حقيقتانِ مذهلتان،

وأحسبُ أنك لم تلحظ أيًّا منهما. لم تكن البراغيث هي البراغيث الشائعة التي تُصيب الإنسان، بل كانت براغيثَ من فئران آسيوية.»

قلت معترفًا: «أنت محقٌّ تمامًا. لم ألحظ هذا.»

تابع: «ثم كانت هناك رائحة اليانسون التي تعطَّرَت بها أغطيةُ الأنابيب. ونحن نعلم أن رائحة اليانسون لا تقاومها الفئران. فهو طُعم لا يخيب، ولكنه ليس جذابًا للبراغيث. فما هو الغرض من الرائحة؟ كان لا بد من قبول الإجابة المؤقتة؛ لأنها كانت الإجابة الوحيدة التي تطرح نفسها، وتبيَّن صحتُها. وإذا عُرضت واحدة من هذه الأنابيب للفئران — كأن تُرمى في جُحر فأر على سبيل المثال — فمن المؤكد أن الفئران ستقضم الأغطية الورقية. وعندئذٍ تنطلق البراغيث، لأنها براغيث فئران؛ وبالتالي ستُمسك في الفئران على الفور؛ وبالتالي تُصبح الأنابيب جهازًا لنشر براغيث الفئران.

ولكن ما الذي يجعل أي شخصٍ يريد نشر براغيث الفئران؟ خرج من رحم السؤال حقيقة مدهشة وهي أن هذه الأنابيب المحملة ببراغيث الفئران وقمل الجسم كانت تحمل مرضًا مميتًا. تحمل براغيث الفئران الطاعون ويحمل قمل الجسم حمَّى التيفوس. كانت مصادفة رائعة؛ ومن ثَم بات محتملًا أن انتشار براغيث الفئران ربما يكون سبيلًا لنشر الطاعون، وإذا انتشر القمل أيضًا، فهذا يعني انتشار حمى التيفوس أيضًا.

والآن، فكِّر في الخرائط. تُشير الدوائر جميعُها إلى مناطق عشوائية قديمة استأجرها غرباء من طبقة فقيرة. والمناطق العشوائية القديمة تكثر فيها الفئران والغرباء الفقراء يكثر لديهم القمل. وهنا تكمن مصادفة أخرى. توافر معنا أيضًا لوح الملاحظات الذي يحمل أرقامًا مرتبطة بالحرف «أ» والحرف «ب» وعلامة الجمع وعلامة الطرح. قد يُشير الحرفان «أ» و«ب» إلى الفئران والقمل أو الطاعون وحمى التيفوس، وقد تُشير علامات الجمع والطرح إلى نجاح التسبُّب في تفشي المرض أو الفشل في ذلك. لم يكن هذا سوى تخمين، ولكنه كان متسقًا تمامًا.

حتى الآن، نتعامل مع فرضية قائمة على ملاحظة بسيطة، ولكن هذه الفرضية قد تتأكد أو تُدحَض. والسؤال هو: هل كانت هذه الحشرات مصدرَ مرض أم لا؟ للإجابة عن السؤال، أخذتُ برغوثًا من كل أنبوب من الأنابيب الأربعة وزرعته في مادة الأجار، وكانت النتيجة أن حصلت على مزرعة نموذجية من جرثومات الطاعون وتحققت من الأمر باستخدام اختبار ترسبات هافكين. فحصتُ أيضًا إحدى القملات من كلِّ أنبوب من الأنبوبين، وفي كل حالة وجدتُ تفاعلًا محددًا لحمى التيفوس؛ وبالتالي وجدت الحشراتِ مصابةً وتأكَّدتِ الفرضية.

الشيء التالي هو العثور على صاحب الأنابيب. أشارت الدوائر على الخرائط إلى نوع ما من الأنشطة، وأظن أنه مرتبط بالفئران وينفَّذ في هذه المناطق.

زرتُ هذه الأماكن وأجريتُ محادثاتٍ مع السكان حول الفئران وصيادي الفئران وحفر الفئران والمجاري وكل ما له علاقة بالفئران؛ وبعد فترة سمعتُ عن مقدم عروض بالفئران. وأنت تعرف الباقي. وجدنا الرجل، ولاحظنا أن جميع الفئران التي معه — باستثناء الفئران البيضاء — كلها من فصيلة الفئران السوداء التي تحمل الطاعون كما وجدنا في تلك البقعة فأرًا ميتًا، وتأكدت من أنه مات بالطاعون لما فحصت الجثة. وأخيرًا، كان معنا كتاب بولتون الصغير الذي دلَّنا على بصمات أصابع صاحب العلبة الألومنيوم. وبذلك اكتمل تحديدُ الهوية، وأظهرت التحريات لدى مجلس الحكم المحلي أن هناك حالات إصابة بالطاعون والتيفوس في المناطق المحددة.»

سألت: «ألم تتخذ السلطات أيَّ خطوات بشأن هذه المسألة؟»

رد: «بلى؛ فقد أجروا حملة تطهير شاملة ضد الفئران في أرصفة لندن، وهي أرجح مصدر محتمل للعدوى. وبطبيعة الحال، لن يفكروا في مجرم مجنون يجدُّ في نشر الطاعون.»

«وكيف ربطت بين الرجل وحريق البنك؟»

ردَّ: «لم أفعل ذلك البتة. فغالبًا كانت مسألةَ استنتاج. فأنت ترى أن الجريمتَين متماثلتان تمامًا. كانتَا جريمتَين من النوع نفسه. تندرج الجريمتان كلتاهما تحت الأعمال التخريبية الغبية، ومن الواضح أن المنفذ في كلٍّ منهما يعاني عتهًا أخلاقيًّا ولا تخفى عداوتُه للمجتمع. يندر وجودُ هؤلاء الأشخاص في المجتمع، وعندما يوجدون، فعادة ما يكونون غرباء وغالبًا ما يكونون من روسيا أو شرق أوروبا أو مناطق مشابهة. كان المفتاح الفعلي الوحيد هو التاريخ على خطاب بيلتشر؛ إذ كانت طريقة كتابته غريبة نوعًا ما مثل الكتابة على الخرائط ولوح الملاحظات. ومع ذلك، لم يكن الأمر أكثر من مجرد تخمين، على الرغم من أنه تبيَّنت صحتُه.»

«وكيف تفترض أن هذا الشخص تجنَّب الإصابة بالطاعون والتيفوس؟»

«من المرجح أنه كان مصابًا بكليهما، ولكن يسهل تجنُّبُ الإصابة بالتيفوس عن طريق المواظبة على النظافة والتعقيم، وبالنسبة إلى الطاعون، فربما استخدم إجراءات هافكين للوقاية من الطاعون ثم أعطاها للمرأة. يبدو أنه لم يجدر به التسبُّب في إصابة حالة بالطاعون وجعل مسئول الصحة يفتش المبنى.»

وصلنا إلى نهاية القضية، ولكن ينبغي أن أُدرجَ ضمن أحداثها مكافأةً مالية كبيرة أرسلها رئيسُ مجلس الحكم المحلي لزميلي.

ثورندايك: «أعتقد أننا كسبنا هذه المكافأة ولا أظن أن السيد راباج مخولٌ للحصول على حصة منها.»

في الواقع، عندما اتصل هذا الشخص الخيِّر بعد بضعة أيام لاستلام تقرير غامض بعضَ الشيء ولدفع الرسوم، خرج مبتهجًا وهو يحمل تبرعًا معه كي يهبَ به فراشًا إضافيًّا للأطفال أو سلة في دار سانت فرانسيس لرعاية ذوي الحاجات.

الفصل السادس

# ريكس في برنابي

جرت العادة في ممارسات الطب بوجه عام أن سرعان ما يترقَّى طبيب العائلة ويصبح صديقًا للعائلة. كانت عائلةُ برنابي ولا تزال على قائمة مرضاي، وسرعان ما تحوَّلت العواطف المتبادلة إلى علاقة أعمق. الأسرة تغمرها السعادة وتحوطها أجواءُ المودة وعلى وجه الخصوص ثقافة الانتماء إلى المنزل وعدم التكلف. ما يُثير الاهتمام في هذه الأسرة هو الفارق في العمر بين الرجل وزوجه؛ وبالتالي كانت الأجواء داخل المنزل غيرَ عادية نوعًا ما مما يُثير حفيظة التأمُّل والتفكير فيها. المنزل به أمور أخرى سيُشار إليها في الوقت الحاضر.

فرانك برنابي رجلٌ مرهف الحس إلى حدٍّ ما ويُشارف على الخمسين من عمره؛ هادئ أو بالأحرى خَجِل ولطيف وعطوف، ومن الواضح أنه ساذَجٌ ويثق بالآخرين. شغل منصبًا في مكتب السجلات مما أكسبه عاداتٍ غريبة وطريفة من تعامله مع الوثائق القديمة؛ مختارات كان يسردها في محيط الأسرة بمزيج من الخيال التصويري وقدرٍ من الفكاهة الهادئة والساخرة مما يبعث البهجة لدى المستمع. لم أقابل في حياتي مَن هو في جاذبيته، ولم أحبَّ أو أحترم شخصًا أكثر منه.

زوجتُه لا تقلُّ عنه جاذبية، ولكنَّ جاذبيتَها مختلفة؛ فهي امرأة ذات جمال أخَّاذ كما أنها دون الثلاثين من عمرها — تخطَّت كونها فتاةً بقليل — إنها في الحقيقة ودودة ومفعمة بالحيوية والمرح، ومع ذلك فهي بارعة ومثقفة وتهتم بشئون زوجها اهتمامًا بالغًا. بديَا لي أنهما زوجان ينعمان بالسعادة وتربط بينهما المشاعر وتجمعهما عاطفةٌ غامرة. أنجب برنابي أربعة أطفال من زوجته الأولى — ثلاثة أولاد وبنت — ويدلُّ حبُّهم الخالص لزوجة أبيهم الصغيرة على أنها تُوليهم قدرًا كبيرًا من الرعاية.

ولكن لم يخلُ هذا الوئام المنزلي مما يُنغصه، على الأقل هذا ما شعرتُ به. كان هناك صديقٌ آخر للأسرة، وهو رجل صغير في السن اسمه سيريل باركر. لم أكنَّ له في نفسي أيَّ شيء ضده من الناحية الشخصية، ولكني لم أطمئنَّ بشأن العلاقة. كان رجلًا حسنَ المظهر ولطيفًا وذكيًّا ومثقفًا للغاية؛ نظرًا لكونه شريكًا في دار نشر ويعمل مصححًا للمطبوعات لدى الشركة، وما حدث أنه — مثل السيد برنابي — اكتسب مادةً دسمة من الأمور المثيرة بفضل مهنته في القراءة. ولكنني لم أستطع أن أتغاضَى عن وصول إعجابه وانجذابه إلى زوجة برنابي إلى مرحلة خطرة، وبالتأكيد كانت المشاعر العاطفية — من جانبه — تتزايد بدرجة تُنذر بالسوء. ومن جانبها، لم تتخطَّ العلاقة حدودَ الصداقة الصريحة، على الرغم من قوتها، ولكني نظرتُ إلى العلاقة بارتياب. زوجة برنابي امرأةٌ يقع أيُّ رجل في حبِّها، ولم أحبَّ التعبير الذي كنتُ ألاحظه أحيانًا في عين باركر عندما ينظر إليها. وعلى الرغم من ذلك، لم ينمَّ سلوكُ أيٍّ منهما عن أدنى قدرٍ من الخروج على الإطار الطبيعي للصداقة ولم يُنذرْ بأي حالٍ من الأحوال عن الكارثة الرهيبة التي تكاد تقع.

بدأت المأساةُ بحدثٍ تافهٍ نسبيًّا. بسبب كثرة الانكفاء على المخطوطات ذات الحروف الصغيرة والمتشابكة، أُصيب السيد برنابي بأعراض إجهاد العين مما دفعني إلى إرساله إلى طبيب عيونٍ للكشف وتحديد مقاسات نظارة مناسبة. في مساء اليوم الذي استشار فيه طبيبَ العيون، تلقيتُ استدعاءً عاجلًا من زوجة برنابي وعند وصولي إلى المنزل، وجدتُ زوجَها يعاني مرضًا خطيرًا نوعًا ما. الأعراض محيرة قليلًا لأنها لا ترتبط بأي مرض معروف. وجدتُ وجهه محمرًّا وارتفعت درجةُ حرارته قليلًا وزادت سرعةُ نبضاته على الرغم من تباطؤ التنفس وأُصيب حلقه بجفاف بالغ واتسعت حدقتَا عينَيه. كانت حالةً استثنائية، وعلى حدِّ علمي فهي لا تدل على شيءٍ سوى التسمُّم بالأتروبين.

سألت: «هل تناول أيَّ أدوية من أي نوع؟»

هزَّت زوجة برنابي رأسها: «لم يتناول أيَّ عقاقير أو أدوية إلا ما تصفُه له؛ ولا يمكن أن يكون تناول شيئًا لأن الأزمة أصابتْه بعدما دخل المنزل مباشرةً قبل أن يأكل أو يشرب شيئًا.»

الأمر اكتنفه الغموضُ والمريض نفسه لم يستطع أن يتعرف على السبب الأساسي في الإصابة بالأزمة. ولما كنتُ أفكر في المسألة، تصادف أن وقعتْ عيناي على رفِّ الموقد ولاحظتُ عليه قطرةً مكتوبًا عليها «قطرة العين» وروشتة وصفة طبية. لما فتحت الروشتة، وجدتُ أن طبيب العيون وصف قطراتٍ عبارة عن محلول ضعيف من كبريتات الأتروبين.

سألتُ: «هل وضع أيَّ شيءٍ من هذه القطرات؟»

زوجة برنابي: «نعم، وضعتُ بضع قطرات في عينه بمجرد أن دخل، قطرتان في كل عينٍ حسب تعليمات الطبيب.»

هذه الحالة بالغة الغرابة. كمية الأتروبين في هذه القطرات الأربع أقلُّ من واحد بالمائة من وحدة القمحة؛ وبالتالي يستحيل أن تتسبب جرعةٌ صغيرة في إحداث هذه الأعراض، ولكن كل الأعراض تُشير إلى تناول جرعة سامة، ومن الواضح أن هذا لم يحدث لأن زجاجة القطرة كانت ممتلئة تقريبًا. لم أستطع التوصل إلى استنتاج، ولكني تعاملتُ مع الحالة على أنها تسمم بالأتروبين ولمَّا أحدث العلاج تحسنًا ملموسًا، رجعت إلى المنزل وقد زادت الحيرة لديَّ أكثر من ذي قبل.

عندما اتصلتُ في الصباح التالي، علمتُ أنه تعافى بالفعل وأنه ذهب إلى مكتبه، ولكني تلقيتُ رسالة عاجلة أخرى في تلك الليلة، وعندما أسرعتُ إلى منزل السيد برنابي، وجدته يُعاني أزمة مشابهة ولكنَّ حدَّتَها أشدُّ من حدة الأزمة التي تعرَّض لها في اليوم السابق. وعلى الفور حقنتُه بالبيلوكاربين وأعطيتُه علاجاتٍ مناسبة أخرى واطمأننتُ لما رأيتُ تحسنًا سريعًا في حالته، ولكن عندما أثبتتْ فاعليةُ العلاج أن الأعراض ناتجة بالفعل عن التسمم بالأتروبين، تبيَّن أنه لم يتناول أتروبين إلا بالقدر الضئيل جدًّا المتضمن في قطرات العين.

المسألة غامضة. لم تنجح الاستفسارات التفصيلية في اقتراح أيٍّ مصدر محتمل للتسمم باستثناء قطرات العين؛ لأنَّ كلَّ أزمة تحدث بعد فترة وجيزة من استخدامها، يستحيل تجاهلُ العلاقة الواضحة على الرغم من الجرعة الضئيلة التي لا تُذكَر.

قلت مخاطبًا زوجةَ برنابي والسيد باركر الذي اتصل كي يطمئن: «ليس لديَّ تفسيرٌ سوى أن برنابي مصابٌ بتحسس ذاتي، أي أنه يعاني حساسية مفرطة تجاه هذا الدواء.»

باركر: «هل هذه حالة معروفة؟»

رددتُ: «نعم، يتفاوت الأشخاص تفاوتًا كبيرًا في الطريقة التي يتفاعلون بها مع الأدوية. بعضهم لا يتحمل أدوية معينة على الإطلاق — مثل اليود — لدرجة أن الجرعات الطبية العادية تُحدث تأثيراتٍ سامة، في حين أن البعض الآخر يتمتع بدرجة تحمُّل استثنائية. يذكر كريستيسوري في أطروحته عن السموم حالةَ رجل غير معتاد على الأفيون تناول أونصة تقريبًا من اللودانيوم من دون ظهور أيٍّ تأثيرات، وهذه الجرعة كفيلة بقتل رجل عادي. هذه العقاقير شَرَكٌ خطير للأطباء الذين لا يعرفون مرضاهم.

فكِّر في الاحتمالات التي كان سيتعرض لها برنابي إذا أعطاه شخصٌ جرعةَ دواء كاملة من البيلادونا.»

سألت الزوجة: «هل البيلادونا لها تأثير الأتروبين نفسه؟»

رددتُ: «نعم، الأتروبين هو العنصر النشط للبيلادونا.»

قالت متعجبة: «الحمد لله أننا اكتشفنا هذا التحسُّس الذاتي في الوقت المناسب. هل من الأفضل أن يتوقف عن استخدام القطرات؟»

أجبتُها: «نعم، بالتأكيد، وسأكتب إلى السيد هينز وأُخبره أن الأتروبين غير عملي.»

وعليه راسلتُ طبيب العيون الذي شكَّكَ بلباقة في أن تكون هناك صلةٌ بين القطرات والتعرض لتلك الأزمات. ومع ذلك، اتخذ برنابي قرارَه في المسألة ورفض تناول المزيد من قطرات الأتروبين رفضًا قاطعًا؛ قرارُه له مبرراته في ذلك الوقت؛ إذ إنه لم يتعرض لأزماتٍ وقتَ التوقف عنها.

مرَّ شهران. تلاشت الحادثة من عقلي إلى حدٍّ بعيد، ولكن انتعشت هذه الحادثة في عقلي مرة أخرى ولم تُصبني بالذهول فحسب، بل أصابَتْني بقلقٍ بالغ. كنتُ على وشك الانطلاق إلى جولتي الصباحية حينما قابلتْني خادمةُ برنابي عند باب منزلي وهي تلهث وتحمل خطابًا. كان الخطاب من زوجة برنابي تتوسَّل فيه أن آتيَ على الفور وتُخبرني أن زوجها تعرَّض لأزمة صحية شبيهة بالأزمات التي تعرَّض لها من قبل. هُرعت لأُحضرَ حقيبة الطوارئ ثم أسرعتُ إلى المنزل ووجدتُ برنابي ممدَّدًا على أريكة ووجهه محمر كالدم — بل يُنذر بسوء — وتظهر عليه أعراضٌ لا تدل إلا على التسمم بالأتروبين، لكن لم تكن هذه الأزمة حادة، وسرعان ما تحسنت الحالة إلى الأفضل بعد تناول العلاجات الملائمة.

لما جلس وهو يتنفس الصعداء، قلت: «الآن يا برنابي، ما الذي فعلتَه؟ هل كنت تستخدم هذه القطرات مرة أخرى؟»

ردَّ: «لا، لماذا آخذُها مرة أخرى؟ لقد انتهى هينز من علاج عيني.»

«لقد تناولت شيئًا يحتوي على الأتروبين.»

«أحسبُ أني تناولت شيئًا، ولكن لا يمكنني أن أخمِّنَ ما هو. فأنا لا أتناول أيَّ أدوية من أي نوع.»

«ألم تتناول أيَّ حبوبٍ أو أقراصٍ للمص أو دهان أو أشرطة لاصقة أو مرهم؟»

ردَّ: «لم أتناول أيَّ علاج من أي نوع. في الحقيقة، لم يدخل جوفي أيُّ شيء اليوم سوى إفطاري؛ وأُصبت بالأزمة بعده مباشرة على الرغم من أنه كان بسيطًا للغاية — والله وحده يعلم — إذ تكوَّن من بيضتَي حمام وجزء من رغيف توست والشاي.»

قلت بابتسامة عريضة: «بيض حمام، لماذا لم تتناول بيض عصافير؟»

شرحت زوجةُ برنابي: «أظن أن سيريل أرسلهما على سبيل المزاح (تقصد السيد سيريل باركر)، ولكن يجب القولُ إن فرانك استمتع كثيرًا. فكما تعلم، بدأ سيريل مؤخرًا في تربية الحمام والأرانب وغيرها من الحيوانات الصالحة للأكل، وأظنُّ أنه أرسلها في الأصل من أجل فرانك لأنك طلبتَ منه اتباعَ نظامٍ غذائي خاص. دائمًا ما يُرسل لنا سيريل بعضًا من هذه الحيوانات — خاصة الحمام والأرانب — وبعمر أصغر بكثير مما نجده في المحلات.»

برنابي: «إنه رجل سخيٌّ. أعتقد أنه يُرسل لي أكثر من نصف نظامي الغذائي. ونادرًا ما أحب أن أقبل منه قدرًا كبيرًا.»

زوجة برنابي: «إنه يسعد بإرسال هذه الهدايا لنا، ولكني أتمنى أن يسعد بذبح هذه الحيوانات أولًا. دائمًا ما يُحضرها أو يُرسلها حية، والطاهية تكره ذبحَها. وأنا لا أذبحها أبدًا، على الرغم من أنني أتعامل مع الحيوانات المذبوحة بعد ذلك. وأحضِّر لفرانك بنفسي جميع طعامه تقريبًا.»

نظر برنابي إلى زوجته بنظرةٍ يملؤها الحب، وقال: «نعم، مارجريت فنانة في الأكلات الشهية والرخيصة وأنا أحب هذا التفنُّن في المأكولات. يمكنني أن أُخبرَك يا دكتور أنني أعيش مثل ديك مقاتل.»

كل هذا جيد، ولكن يبقى السؤال وهو: من أين جاء الأتروبين؟ إذا لم يدخل إلى جوف برنابي شيءٌ سوى الإفطار، فلا بد أن الأتروبين كان في هذا الإفطار. أشرتُ إلى هذه النقطة.

برنابي: «ولكنك تعلم يا دكتور أن هذا غير ممكن. يمكننا تنحية البيض جانبًا. فلا يمكنك إدخالُ السمِّ في البيض من دون إحداث ثقب في القشرة، وكانت البيضتان سليمتَين. وبالنسبة إلى الخبز والزبد والشاي، فجميعُنا تناول هذه الأشياء ولم يُصَب الآخرون بأي سوء.»

قلت: «هذا الرأي ليس حاسمًا؛ فجرعة الأتروبين التي قد تكون سامة بالنسبة إليك، قد لا يكون لها تأثيرٌ في الآخرين، ولكن اللغز الحقيقي هو كيف يمكن أن يدخل الأتروبين على الأرض إلى أي طعام.»

برنابي: «لا يمكن أن يدخل.» وهذا ما أُومن به، لكن النتيجة غير مرضية؛ لأن اللغز لا يزال من دون تفسير. وعندما هممتُ بالرحيل كي أتابعَ زياراتي، شعرتُ بعدم الارتياح؛ لأنني لم أتمكن من وضْع يدي على مكمن الخطر ولم أحمِ مريضي من التعرض له مرة أخرى.

لم أجد تفسيرًا لعدم ارتياحي. مرَّ ما يزيد على الأسبوع عندما أتاني استدعاءٌ جديد إلى منزل برنابي المليء بالحيرة والتخوف. وبالفعل كان هناك سببٌ وجيه لهذا التخوف، عندما وصلتُ إلى المنزل وجدتُ برنابي مستلقيًا غيرَ قادر على الكلام وتحولت عيناه الزرقاوان إلى قرصين فارغين سوداوين يشعُّ منهما «البيلادونا». وعندما شعرتُ بتسارع نبضه وجهوده العبثية لابتلاع رشفة ماء، بدأتُ أسأل نفسي إن كان علاجه مستحيلًا. السؤال نفسه رأيتُه في أعين زوجته المرعوبة التي نهضت من جانب الفراش وكأنها شبح عندما دخلت الغرفة، ولكنه استجاب للعلاج مرة أخرى على الرغم من بطء الاستجابة هذه المرة، وبعد مرور ساعة شعرتُ بالارتياح عندما رأيتُ أن الخطر العاجل قد زال، على الرغم من أنه لا يزال يعاني مرضًا شديدًا.

في هذه الأثناء، لم تنجح الاستفسارات في توضيح أيِّ تفسير لسبب حدوث الأزمة. ظهرت الأعراضُ بعد العَشاء بوقت قصير؛ وكان العَشاء عبارةً عن وجبة بسيطة تتكوَّن من حمامٍ مطهوٍّ في طبق خزفي أعدَّتْه زوجةُ برنابي بنفسها وخضراوات وبودينج خفيف تَشارك في تناوله جميعُ أفراد الأسرة وكمية قليلة من مشروب الشابليز من زجاجة فتحوها في غرفة الطعام. لم يتناول شيئًا آخر ولم يتناول أيَّ أدوية من أيِّ نوع. وعلى الجانب الآخر، تأكَّدتْ أيُّ شكوك بشأن طبيعة حدوث الأزمة عندما أجريتُ اختبارًا كيميائيًّا وتأكدت النتيجة لدى جمعية البحوث السريرية؛ وكانت النتيجة أنه لا شك في وجود الأتروبين على الرغم من أن الكمية كانت قليلةً نسبيًّا، ولكن ظلَّ مصدرُ الأتروبين لغزًا غامضًا.

كان الوضع مزعجًا للغاية. تجاوزُ الأزمة الأخيرة كان شديدَ الصعوبة ولا يزال مصدرُ السمِّ غيرَ معروف. ويمكن التعرضُ لجرعةٍ جديدةٍ من المصدر غير المعروف نفسه في أي وقت، ولكن مَن يستطيع التنبؤ بالنتيجة؟ كان برنابي المسكين في حالةٍ من الرعب المزمن وبدأ مظهرُ زوجته يتغير إلى الأقبح بسبب استمرار الخوف والقلق. وأنا لم أكن في حالة أفضل منهما، ومهما كان ما حدث، فالمسئولية تقع على عاتقي. أرهقتُ عقلي بالتفكير من أجل الوصول إلى بعض التفسيرات المحتملة ولكن لم أصِلْ إلى أي نتيجة، على الرغم من تسلُّلِ بعض الأفكار المروعة إلى عقلي في بعض الأحيان، وما كان مني إلا أن أطردَها ساخطًا.

في ليلةٍ بعد الأزمة الأخيرة بعدة أيام، زارني أخو برنابي وهو اختصاصيُّ علمِ أمراضٍ يعمل لدى إحدى مستشفيات لندن، ولكنه متقاعد. الدكتور جيم مختلف عن أخيه اللطيف والودود اختلافًا كبيرًا؛ إذ كان أخوه قويًّا وحازمًا وحيويًّا وأقلَّ منه في دماثة الأسلوب. إننا على دراية بالموضوع بالفعل وبالتالي لم يتطلب الأمرُ أيَّ مقدمات ودخل إلى صلب الموضوع مباشرةً.

«يمكنك تخمينُ ما توصلت إليه يا جاردين، هذه مسألة أتروبين. ما الإجراءات التي تُتَّخذ حاليًّا في هذه المسألة؟»

أجبتُه بنبرة إحباط: «لا أعلم أن هناك إجراءاتٍ قيد التنفيذ. لا يمكنني التوصُّل إلى استنتاج.»

«ما يتم هو الانتظار حتى التعرُّض لأزمة أخرى، أليس كذلك؟ وكما تعلم، فهذا لن يُجديَ نفعًا. يجب إيقاف هذه المسألة قبل فوات الأوان. إذا لم تكن على علمٍ بمصدر السم، فهناك شخص يعرف. همممم! وقد حان الوقت لمعرفة هذا الشخص؛ فهم ليسوا كُثُرًا كي تحتارَ في الاختيار من بينهم. سأذهب الآن كي أتفقدَ المكان وأُجريَ بعض التحريات. ومن الأفضل أن تأتيَ معي.»

سألتُ: «هل ينتظرون قدومك؟»

أجاب بنبرة خشنة: «لا، ولكنني لستُ غريبًا ولا أنت أيضًا.»

قررتُ الذهاب معه، على الرغم من عدم حبي لأسلوبه كثيرًا. وبدا واضحًا أنه تعمَّد أن تكون الزيارة مفاجئة، ولم أواجه صعوبةً كبيرة في تخمين ما يدور برأسه. وعلى الجانب الآخر، لم أشعر بالأسى على مشاركة المسئولية مع رجل بمكانته وقرابته للمريض. وبناءً على ذلك، انطلقتُ معه بطيب خاطر مني، وبدا لي أنه من الأفضل أن آخذَ حقيبة الطوارئ معي.

عندما وصلنا، وجدنا السيد برنابي وزوجتَه على وشك الجلوس لتناول العشاء — تناول الأطفال وجبةَ العشاء بأنفسهم — ورحَّبَا بنا بكرم الضيافة الذي أضفى السعادة على هذا المنزل. جلس الدكتور جيم على المقعد المقابل لي، وشعرت بسعادةٍ خافتة عندما لاحظتُ عينَيه تتجوَّلان خفيةً على الطاولة، ومن الواضح أنه يقيِّم كلَّ صنفٍ من الطعام ليعرف إن كان ناقلًا للأتروبين أم لا. عندما اكتمل الجمع، قالت زوجة برنابي: «لو أنك أخبرتَنا بقدومك يا جيم، لكنا أعددْنا لك طعامًا أفضل من ظهر الضأن، ولكن بما أن الأمر كذلك، فلا مفرَّ من تناول الموجود.»

ردَّ الدكتور جيم: «ظهرُ الضأن شهيٌّ وأحبُّه.» ولما رفع برنابي الغطاء من على طبق خزفي صغير، سأل: «ولكن ما الطعام الموضوع على الأرض الذي تناوله فرانك؟»

أجابت: «هذا لحمُ أرانب مقلي. هذا الحيوان النحيل كان لا يزال صغيرًا. ربما بكتِ الطاهية عند ذبحه.»

تعجَّب الطبيب: «ذبحه! هل تشترون الأرانب حية؟»

ردَّت: «لم نشترِ هذا الأرنب. بل أحضره السيد سيريل باركر، أنت تعرفه.» أضافت هذه الجملةَ بسرعةٍ بوجنتَين محمرتَين؛ إذ إنها رمقت نظرةً متجهمة تنفذ منها التساؤلات. «إنه يُرسل الكثيرَ من الدواجن والأرانب وغيرها من الحيوانات من مزرعته من أجل فرانك.»

قال الطبيب وعينُه لم ترتفع من فوق الطبق الخزفي: «أها! هممم! يضع لها الغذاء بنفسه، أليس كذلك؟ أين تقع مزرعته؟»

«في إلثام، ولكنها ليست مزرعةً فعلية. إنه يربي الأرانب والدجاج والحمام في مكان خصَّصه لها في نهاية الحديقة.»

سأل الدكتور جيم وعينُه تُحملق من جديد في الطبق الخزفي: «هل الطاهية امرأة إنجليزية؟ تلك المسألة لها ذوق فرنسي لدى فرانك.»

برنابي: «يرحمك الله يا جيم، أنا لا أعتمد على أيِّ طهاة. فأنا الذواقة المدلل. تُحضِّر مارجريت معظمَ غذائي بيدَيها المباركتين. لا يستطيع الطهاة صنْعَ مثل هذه المأكولات.» ثم تناول قدرًا جديدًا من الطعام بنفسه من الطبق الخزفي.

بدا أن الدكتور جيم يفكر تفكيرًا عميقًا في هذا التفسير. بعد ذلك غيَّر الموضوع من فنِّ الطهي إلى أناجيل ليندسفارن وبالتالي جذب انتباه أخيه إلى موضوع جديد تمامًا. برنابي ميوله متجهة نحو مخطوطات القرنين السابع والثامن وكانت معرفته بهما كبيرة بقدر حماسه تجاههما.

قالت زوجة برنابي: «أوه، تناول عشاءك يا فرانك، فأنت تتحدث في كلام كثير. سيبرد الطعام.»

قال معترفًا: «نعم يا عزيزتي، ولكني لن أدخل في التفاصيل. ما أريد سوى أن أُريَ جيم هذه المطبوعات من «كتاب دورهام». اعذريني.»

نهض من على الطاولة ومشى إلى المكتبة المجاورة، ثم عاد بعد فترة وجيزة ومعه محفظة مستندات صغيرة.

لما سلَّم محفظة المستندات لأخيه قال: «هذه هي اللوحات. تصفَّحْها إلى أن أنتهيَ من طعامي.»

أخذ السكينة والشوكة وبدا أنه سيستأنف تناول طعامه. ثم وضعهما على الطاولة واتكأ بظهره على الكرسي. قال: «أظن أنني لا أريد المزيد من الطعام.»

اللهجة التي تحدث بها جعلتني أنظر إليه بعين الانتقاد؛ لأن حديثي مع أخيه جعلني متوترًا ومتخوفًا من حدوث مزيد من المشكلات. ما أراه الآن لم يكن مطمئنًا بأي حال من الأحوال. بدا الاحمرار على وجهه ودفعني قلقٌ في تعبيراته إلى التساؤل بهدوء من الخارج وغليان من الداخل: «هل أنت بخير برنابي؟ أرجو أن تكون بخير.»

ردَّ: «لستُ بخير. توشك عيناي ألَّا ترى وحلقي ...» وهنا حرَّك شفتَيه وابتلع ريقه ولكن بدا أنه يبتلعه بصعوبة.

نهضتُ مسرعًا وأنا أرى الرعب البادي في عينَي زوجته، وذهبتُ إليه ونظرت في عينيه. وعندما نظرت إليهما، انخلع قلبي. وجدتُ أن حجم حدقة العين وصل إلى ضعف الحجم الطبيعي ويشعُّ البريق المألوف من عينَيه الداكنتين. تملكني الرعبُ ولما كنتُ أنظر إلى وجه برنابي الذي لا يكاد يخفي ذعره، تردَّدت في أذني كلماتُ أخيه المشئومة. هل انتظرت حتى أتت «أزمة أخرى كي أستفسرَ عن الأسباب»؟

بمجرد أن ظهرت الأعراض، تطورت بسرعة. ومع كل دقيقة تمرُّ، كانت الأعراض تتفاقم، وكذلك كان تسارع اتساع حدقة العين يُنذر بشدة التسمم. أسرعتُ بالخروج إلى الصالة لأجلب حقيبتي ولما دخلتُ مرة أخرى رأيتُه ينهض ويتلمس بيديه من دون أن يرى إلى أن أمسكت زوجتُه ذات الوجه الشاحب والمرتعب يدَه وقادته إلى الباب.

قلت: «كان من الأفضل أن أعطيَه حقنة بيلوكاربين على الفور.» كنتُ أُخرج محقنة للحقن تحت الجلد وأنظر إلى الدكتور جيم الذي أخذ يراقبني برباطة جأش.

قال موافقًا: «نعم، وقليل من المورفين أيضًا! وربما يحتاج إلى قدر من مادة منبهة. لن أذهب للتحدث إليه؛ فقط سأفكر في الأمر.»

تابعتُ المريض إلى غرفة النوم وأعطيتُه الترياق على الفور. ولما شرع في خلع بعض ملابسه بمساعدة زوجته، نزلتُ إلى الطابق السفلي بحثًا عن زجاجة براندي وماء ساخن، أوشكتُ أن أدخل غرفة الطعام ووجدتُ أن الباب مفتوحٌ جزئيًّا ورأيتُ الدكتور جيم يقف بجانب الموقد فاتحًا حقيبةَ يده التي جلبها من الصالة إلى الطاولة أمامه ورأيت في يده وعاءً زجاجيًّا بوهيميًّا أخذه من رفِّ الموقد. توقفتُ للحظة لا إراديًّا؛ ولما فعلتُ ذلك، وضع الزجاجة التي في يده في الحقيبة وأغلقها، ثم أقفلها بمفتاح صغير ثم وضعه في جيبه.

كان إجراءً غريبًا ولكنني بالطبع لم آبَهْ له، ولكن بدلًا من الدخول إلى غرفة الطعام، تسللتُ خفية إلى المطبخ وأحضرت الماء الساخن بنفسي. عندما عدتُ، وجدت الحقيبة على الطاولة في الصالة مرة أخرى ووجدتُ الدكتور جيم يغدو ويروح في غرفة الطعام وهو متجهم الوجه. طرح عليَّ بعض الأسئلة لما كنت أبحث عن البراندي ثم تفاجأتُ بعضَ الشيء عندما اقترح الصعود لمساعدة المريض.

حينما دخلتُ إلى غرفة النوم، وجدتُ برنابي البائس مستلقيًا بنصف ملابسه على الفراش وفي حالة يُرثى لها؛ إذ كان مرعوبًا ومتعبًا جسديًّا ويهذي في بعض الأحيان. ركعتْ زوجته بجانب الفراش بوجه شاحب وعينَين حمراوين وجسدٍ يرتجف من الرعب، على الرغم من أنها كانت هادئة تمامًا ومنضبطة النفس. لما دخلنا، نهضت لإفساح الطريق لنا وفي أثناء فحص نبضات المريض وسماع سرعة نبضات القلب، شغلتْ نفسها في صمت بإحضار المواد المنبهة.

لما ناولني الدكتور جيم سماعتي الطبية، همستْ قائلة: «لا تظن أنه سيموت، أليس كذلك؟»

ردَّ بنبرة جادة، أو بالأحرى قاسية: «لا فائدة من التفكير، سنرى.» وبذلك أدار لها ظهرَه ونظر إلى أخيه مقطب الجبين.

ظل هذا السؤال من دون إجابة لمدة تزيد على الساعة. ومن لحظة إلى أخرى، توقعتُ أن أشعر بتلاشي نبضات القلب المتسارعة؛ ومن ثَم أسمع اضطراب التنفس وهو يختفي مع حشرجة الموت. ومن وقتٍ لآخر، كنا نزيد جرعة الترياق ونعطيه الأدوية المقوية ولكن بحذر، بيْد أنه يجب أن أعترف بأن الأمل لديَّ كاد أن يندثر. ولم يُخفِ الدكتور جيم تشاؤمَه. ومع انسلاخ لحظات القلق، ولما كنتُ أتوقع وصول ملك الموت، لم يَغِب عن خاطري سؤالٌ لم أجرؤ على البوح به. ما معنى هذا كلِّه؟ متى أتى السمُّ؟ ولماذا لم يجد السمُّ في المنزل طريقَه إلا إلى برنابي، وهو الشخص الذي لا يتحمل جرعة صغيرة منه؟

بعد مدة ليست بالقصيرة، حدث تغييرٌ لا يكاد أن يُدرَك في البداية أو يُرى بقليل من الثقة. ولكن بعد فترة أصبح التغييرُ أوضح؛ إذ سرعان ما بدأت الأعراضُ في الاختفاء. ابتلع المريض فنجان قهوة بسهولة وتلذذ بمذاقه؛ تباطأت نبضاتُ القلب وأصبح التنفس طبيعيًّا وبدأ مفعول المورفين في هذا الوقت؛ ومن ثم غَطَّ في غفوة كانت تتفاوت درجاتُ هدوء النوم فيها.

الدكتور جيم: «أعتقد أنه سينام الآن؛ ولذا لن أبقى أكثر من ذلك، ولكن كان الرجل قاب قوسَيْن أو أدنى من الموت يا جاردين، كان قريبًا لدرجة لا يطمئن معها القلب.»

مشى إلى الباب ولما خرج، استدار وانحنى بشدةٍ لزوجة أخيه احترامًا لها. تبعتُه وهو ينزل على السلم، بل كنتُ أتوقَّع أن يعود إلى الموضوع الذي زارني من أجله، ولكنه لم يتحدث عنه، وفي الحقيقة لم يَقُل أيَّ شيء إلى أن وقف على عتبة الباب وحقيبته في يده. ثم أدلى بملاحظةٍ غامضةٍ نوعًا ما: «حسنًا يا جاردين، لقد أنقذه «كتاب دورهام»، ولكن بسبب هذه المطبوعات، كان سيُصبح ميتًا.» مشى بعد ذلك وتركني عازمًا على تفسير هذه الملاحظة الغامضة بقدر ما أستطيع.

بعد ربع ساعة، ولما كان برنابي ينام في سلام وتأكَّدنا من زوال الخطر، غادرتُ وبمجرد أن أصبحت خارج المنزل، عكفت على وضع خطة كانت تجول في عقلي على مدار الساعة الأخيرة. هذه القضية يحوطها بعضُ الغموض ومن الواضح أن حلَّها يفوق قدراتي، ولكن يجب حلُّها إذا كنا نريد حمايةَ برنابي وحتى لا تُمسَّ سمعتي؛ ولذا قررتُ أن أضع الوقائع أمام صديقي ومعلمي السابق الدكتور ثورندايك وأطلب مشورتَه ومساعدته إذا لزم الأمر.

كانت الساعة في هذا الوقت بعد العاشرة، ولكني قررتُ أن أنتهز الفرصة وأبحث عنه في مسكنه؛ ومن ثَم وجدتُ سيارة أجرة وأمرت السائق أن يوصلني إلى مدخل إنر تمبل لين. بُعث فيَّ الأمل بفضل خبرتي السابقة بعادات ثورندايك، وبالطبع لديَّ ما يُبرر آمالي في هذه المناسبة؛ ومن ثَم اضطررتُ إلى التوجه إلى المنزل رقم A5 الكائن في كينجس بنش واك، وطرقتُ على الباب الداخلي وشعرتُ بالارتياح عندما لم أجده في المنزل فحسب، بل وجدتُه بمفرده ولم يكن مشغولًا. لما تصافحنا، قلت: «أتاك مَن يُقلق راحتك، ولكنني في ورطة والمسألة عاجلة؛ ولذا ...»

قال: «لذا أهديتَني مجاملة طيبة بوصفي صديقًا. تصرُّفٌ لبق منك. ما طبيعة مشكلتك؟»

«المشكلة هي أن لديَّ مريضًا تكرَّر تسمُّمُه بالأتروبين ولا أستطيع أن أصلَ إلى أي استنتاج.»

وهنا بدأت أُعطي تلخيصًا عن الوقائع، ولكنه أوقفني بعد دقيقة أو دقيقتين.

قال: «لا تختصر يا جاردين. فلا يزالُ الليل طويلًا. لنُكمل تاريخ الحادثة بالتفاصيل عن جميع الأشخاص المعنيين والعلاقات المشتركة بينهم. فلا تتجنب ذكرَ التفاصيل.»

جلس ووضع كراسة على ركبته ولما أشعل الغليون، شرعتُ في سرد أحداث القضية وبدأتُ بقطرة العين وانتهيتُ بالأحداث التي تُنذر بالسوء في ليلتنا هذه.

استمع بآذان صاغية، ولم يقاطعْني في الحديث إلا في بعض الأحيان كي يسألَ عن تاريخ الواقعة؛ إذ كان يكتبه وبجانبه بعض التفاصيل. لما انتهيتُ، وضع كراسته جانبًا ولما أطفأ غليونه قال: «قضية لافتة للنظر يا جاردين، وما يُثير الاهتمام فيها هو طبيعة السم غير العادية.»

قلتُ متعجبًا: «أوه، إنها مسألة مثيرة للقلق! أنا لستُ اختصاصيًّا في السموم. أنا ممارس عام وأريد أن أعرف ما الذي ينبغي لي فعلُه.»

قال: «أعتقد أن واجبك واضحٌ وضوحَ الشمس. يجب أن تُبلغ الشرطة، سواء بمفردك أو بالتعاون مع أحد أفراد العائلة.»

نظرتُ إليه متوجسًا. وقلت متلعثمًا: «ولكن ما الذي ينبغي أن أقوله للشرطة؟»

ردَّ: «ما أخبرتني به، ولكن اختصر الوقائع، قلْ ما يلي: تعرَّض فرانك برنابي لثلاث أزمات من التسمم بالأتروبين، من دون أن تذكر قطرات العين. وكل أزمة يبدو أنها مرتبطة ببعض أصناف الطعام التي تُعدُّها زوجتُه ويُقدِّم مكوناتِها السيدُ سيريل باركر.»

قلت متعجبًا: «ولكن، يا ربي! أنت لا تشك في زوجة برنابي، أليس كذلك؟»

ردَّ: «أنا لا أشك في أحد. ربما لا تكون القضية محاولةَ قتلٍ بالسمِّ على الإطلاق، ولكن يجب حمايةُ السيد برنابي وبالتأكيد يجب التحقيق في القضية.»

سألت مقترحًا: «أليس من الأفضل أن أُجريَ بعض التحريات بنفسي أولًا؟»

هزَّ ثورندايك رأسه وردَّ قائلًا: «الخطر كبير للغاية. قد يموت الرجل قبل أن تصل إلى استنتاج، ولكن من المحتمل أن تتسبب بعضُ التحريات التي تُجريها الشرطة في تعطيل المسألة، إلا لو كان التسمم غيرَ متعمدٍ بطريقةٍ لا يمكن تخيُّلها.»

كانت هذه مشورته التي تفضَّل بها، وشعرتُ أنه على حق، ولكنها تضعُ على عاتقي واجبًا كبيرًا؛ ولما كنتُ عائدًا إلى المنزل، حاولتُ أن أتوصل إلى بعض الوسائل التي تُخفِّف من وطأة هذا الواجب. وفي النهاية قررتُ أن أحاول إقناع زوجة برنابي أن تنضمَّ إليَّ في إبلاغ الشرطة.

لم تكن هناك ضرورة للتحدث إليها على الإطلاق. عندما أجريتُ زيارتي الصباحية، وجدتُ سيارة أجرة واقفة أمام الباب وبدت الخادمة التي فتحت لي الباب وكأنها رأت شبحًا.

لما قادتني إلى غرفة الاستقبال بوجه مكتئب، سألت: «لماذا، ما الأمر يا مابيل؟»

هزَّت رأسها. «لا أعلم يا سيدي. أنا أخشى من أن يكون هناك مكروه. سأُخبرهم بأنك هنا.» بذلك أغلقت الباب وغادرت.

أسلوب الخادمة والاستقبال الرسمي غير المعتاد أثارَا هواجسي بأن هناك سوءًا في الأمر. ولكن حتى لما كنتُ أتساءل ما الذي ربما حدث، تلقيتُ الإجابةَ عن السؤال بدخول رجلٍ طويل وكأنه حارسٌ بملابسَ مدنية.

سألني: «هل أنت الدكتور جاردين؟» ولما أومأتُ برأسي، عرَّفني بنفسه وأراني بطاقته: «أنا المحقق لين. أُمرت بإجراء بعض التحريات بشأن بعض معلومات وصلتْ إلينا. تقول المعلومات إن السيد فرانك برنابي يُعاني تأثيراتِ سمٍّ. في حدود علمك، هل هذا صحيح؟»

رددتُ: «أرجو أن يكون قد تعافَى الآن، ولكن ما يبدو لي أنه تعرَّض ليلة أمس للتسمم بالأتروبين.»

سأل الرقيب: «هل تعرَّض لأي أزمات مشابهة من قبل؟»

أجبتُ: «نعم، هذه كانت الأزمةَ الخامسة، ولكن أول أزمتين كان من الواضح أنهما نتيجة بعض قطرات العين التي استخدمها.»

«وبالنسبة إلى الثلاث حالات الأخرى، هل لديك أيُّ فكرة عن مصدر السم؟ هل كان في الطعام، على سبيل المثال؟»

«ليس لدي فكرة أيها الرقيب. لا أعلم شيئًا أكثر مما أخبرتُك به؛ وبالطبع لن أضع أيَّ تخمينات. هل تسمح لي أن أسأل عمن أعطاك المعلومات؟»

رد: «أستميحك عذرًا؛ فهذا غير مسموح به يا سيدي، ولكن ستعرف قريبًا. لدينا اتهامٌ محدَّد ضد زوجة برنابي — وأُلقيَ القبض عليها — وسنحتاج إلى شهادتك في التحقيقات.»

حدَّقتُ إليه وأنا في حالة ذعر تام. قلتُ لاهثًا: «أتقصد أنك ألقيت القبض على زوجة برنابي؟»

ردَّ: «نعم، بتهمة تسميم زوجها.»

صُعقتُ تمامًا، ولكن عندما تذكرتُ كلماتِ ثورندايك وتذكرتُ تخميناتي المشئومة التي نبذتُها على الفور، لم يكن هناك ما يفاجئني في هذا التحول الصادم في الأحداث.

سألتُ: «هل يمكنني التحدثُ قليلًا مع زوجة برنابي؟»

ردَّ: «ولكن ليس بمفردكما، ومن الأفضل ألا تتحدثَ معها على الإطلاق، ولكن إذا كانت لديك أيُّ مسألة ...»

قلت: «نعم لديَّ مسألة معها.» ومن ثَم أخذني إلى غرفة الاستقبال وهناك وجدتُ زوجةَ برنابي جالسةً متخشبة على كرسي ووجهها شاحب كأنها جثةٌ هامدة، ولكنها كانت هادئة تمامًا على الرغم من حالة الذهول التي اعترتْها. في الجهة المقابلة لها، كان هناك رجل بزيٍّ عسكري يجلس بجانب الطاولة وكأنه لا يدري بوجودها ولم يُبدِ ملاحظة عندما مشيتُ إلى سجينته وأمسكتُ يدها بصمت.

قلت: «لقد أتيتُ يا سيدة مارجريت لأسأل إن كان هناك ما ينبغي لي القيام به. هل يعلم برنابي بهذه الفاجعة؟»

أجابت: «لا، سيتوجب عليك إخبارُه إذا كان في حالةٍ تسمح له بذلك، وإذا لم يكن في حالةٍ تسمح له بمعرفة الخبر، فأريدك أن تُخبرَ أبي في أقرب وقتٍ ممكن. هذا كل ما أريده منك، ومن الأفضل أن تذهب الآن، لأنه يجب ألَّا نُعيقَ عمل هؤلاء الرجال. مع السلامة.»

صافحتْني ببرود وعندما واسيتُها متلعثمًا ببعض كلمات التشجيع والتعاطف المقتضبة، خرجتْ من الغرفة ولكني انتظرتُ في الصالة لأرى آخر ما ستئول إليه الأمور.

تحلَّى ضباط الشرطة بأدب كبير وراعوا الظروف. وعندما خرجتُ، أحضروها بطريقة غاية في الاحترام. ولما كان الرقيب على وشك أن يفتح الباب المطل على الشارع، رن جرس الباب؛ ولما فُتح الباب تبيَّن أن السيد باركر يقف على العتبة. كاد أن يخاطب زوجة برنابي ولكنها تخطَّتْه بانحناء بسيط ونزلت من على الدرج وكان الرقيب من أمامها والمحقق من خلفها. أمسك الرقيب باب السيارة كي يبقى مفتوحًا إلى أن ركبت، ثم ركب هو الآخر وأغلق الباب. ركب المحقق بجانب السائق وانطلقت السيارة.

سألني باركر والانزعاجُ بادٍ على وجهه: «ما الذي يجري يا جاردين؟ يبدو أن هذين الشخصين رجالُ شرطة بملابس مدنية.»

قلت: «نعم، لقد ألقوا القبض على زوجة برنابي بتهمة محاولة وضْع السم لزوجها.»

ظننت أن باركر كاد يسقط على الأرض. فما حدث أنه ترنَّح إلى كرسي في الصالة وسقط عليه وهو في حالة انهيار. قال لاهثًا: «الرحمة يا رب! ما أبشع هذا الخبر! ولكن ليست هناك أيُّ أدلة محتملة، أي أسباب حقيقية للاشتباه بها. لا بد أنه مجرد تخمين غير دقيق. وإني أتساءل مَن طرح هذا التخمين.»

كانت لديَّ شكوك قوية بشأن هذا الموضوع ولكني لم أذكرها؛ وعندما رأيتُ باركر في غرفة الطعام وشرحتُ المسألة بمزيد من التفاصيل، صعدتُ إلى الطابق العلوي وأخذتُ أجهِّز نفسي للمهمة التي فُرضت عليَّ من دون رغبة فيها.

وجدتُ أن برنابي تعافى تمامًا، على الرغم من خمول حركته بسبب المورفين، ولكن الأخبار التي جلبتُها جعلتُه يفيق بالكلية. وفي لحظة نهض من فوق الفراش وأسرع كي يرتديَ ملابسه؛ وعلى الرغم من أن وجهَه الشاحب والمحدد التعبيرات يُنبئ عن مدى صدمته من سماع هذه الكارثة، إلا أنه كان مستجمعًا لقواه وعقله تمامًا.

ردًّا على تعبيرات التعاطف التي أبديتُها، قال: «لا فائدة من انفعالنا يا دكتور. مارجريت في موقف خطير للغاية. ما عليك سوى أن تفكر فيما هي عليه — امرأة شابة جميلة — وما أنا عليه، لتُدرك ذلك. يجب أن نتصرف بسرعة. سأذهب وأرى والدها، فهو محامٍ قدير ويجب أن نعثرَ على محامٍ مخضرم.»

بدتْ أن هذه فرصةٌ لذكر مؤهلات ثورندايك المميزة في القضايا من هذا النوع، وهذا ما فعلتُه. استمع برنابي منتبهًا، وبدا أنه غيرُ متأثر، ولكنه ردَّ بكلمات حذرة: «ينبغي أن نترك اختيار المحامي لهارات، ولكن إذا كنتَ تهتمُّ باستشارة الدكتور ثورندايك في هذا الوقت، فأنا أفوضك في ذلك. وأنا سأخبر هارات.»

انطلقتُ مغادرًا بعد هذه الكلمات، ولم أرتَحْ بعضَ الشيء للطريقة التي تعاطى بها مع الأخبار السيئة؛ وبمجرد أن انتهيتُ من أهم جزء في عملي، ذهبتُ إلى مسكن ثورندايك بحيث ألحق به في الوقت المناسب تمامًا عند عودته من المحاكم.

لما عرف ما حدث حتى ذلك الحين، قال: «حسنًا يا جاردين، ما الذي تريد مني أن أفعله؟»

رددتُ: «أريدك أن تفعل ما بوسعك كي تُثبتَ براءة زوجة برنابي.»

ظلَّ ينظر إليَّ متسائلًا لبضع دقائق، ثم قال بنبرة هادئة ولكنها جادة: «ليس من عادتي أن أقدِّم أدلة استنتاجية. ولا يجوز للشاهد الخبير أن يتخذ صفة المحامي. وإذا أجريتُ التحقيقات في أدلة هذه القضية، فسيتعيَّن أن تكون أنت المسئول بصفتك ممثلًا عن المتهمة؛ وذلك لأنه يجب الإفصاح عن أيِّ واقعة قد يعرفها الشاهد — مهما كانت ضارة — بما يتفق مع شروط اليمين، هذا بالإضافة إلى أنه لا خلاف على أنه يجب على كل شخص أن يعمل على تحقيق أهداف العدالة. بصفتي محاميًا وبحمل الوقائع المعروفة على قيمتها الظاهرة، فلا أنصحك بأن توظفني للتحقيق في هذه القضية بوجه عام. فربما تكتشف أنك ما فعلتَ شيئًا سوى أن قويتَ يدَ النيابة في القضية.

ولكن سأضع اقتراحًا. يبدو لي أن هناك احتمالًا لافتًا للانتباه ومثيرًا للاهتمام كثيرًا في هذه القضية. دعْني أتحرَّ عن هذا الأمر وحدي. وإذا أدَّتْ تحرياتي إلى نتائج إيجابية، فسأُخبرك ويمكنك حينها استدعائي بصفتي شاهدًا. وإذا أدَّت إلى نتائج سلبية، فمن الأفضل ألا تُقحمَني في القضية.»

لم أجدْ مفرًّا من الموافقة على هذا الاقتراح، ولكن عندما غادرتُ من عند ثورندايك، غادرتُ وإحساس الإحباط والفشل يتملَّكني. من الواضح أن تلميحه «القيمة الظاهرية للوقائع المعروفة» يدل على أن تلك الوقائع ضد المتهمة، ولكن «الاحتمال اللافت للانتباه» لم ينطوِ على شيءٍ سوى أملٍ ضعيف وبالتالي لم يَبنِ عليه آمالًا كبيرة.

لست بحاجة إلى متابعة الأعمال المرهقة بالتفصيل. في الجلسة الأولى أمام القاضي، لم تُقدِّم الشرطة سوى الاتهام وأدلة القبض على المتهمة، وطلب كلٌّ من الشرطة والدفاع الحبس على ذمة التحقيق، ومن الواضح أنه لم يرغب أيٌّ منهما في الكشف عن أوراقه؛ وبناءً على ذلك، تأجَّلت القضية لمدة سبعة أيام ولما رفضت المحكمة الكفالة، احتُجزت المتهمة في الحبس.

في هذه الأيام السبعة الكئيبة، قضيتُ أطول مدة ممكنة مع برنابي وعلى الرغم من إعجابي بصلابته وتماسكه لنفسه، فإن وجهَه الشاحب والممتقع عصرَ قلبي. في هذه الأيام القليلة، ظهرت ملامحُ الشيخوخة عليه. وفي منزله، قابلتُ السيد هارات والد زوجة برنابي، إنه رجل طيب وكريم ومحامٍ كبير نمطي في إجراءاته؛ لا أستطيع أن أصف كم هو مثير للشفقة أن ترى والدَ المتهمة وزوجَها وهما يحاولان شدَّ أزر بعضهما البعض على الرغم من أن الخوف والقلق يمزِّقهما. وفي إحدى المرات، كان السيد باركر حاضرًا وبدا عليه الأسى والاكتئاب أكثر منهما، ولكن أسلوب السيد هارات معه كان شديدَ الفتور والقسوة لدرجة أنه لم يكرِّر الزيارة. في هذه الزيارات، ناقشنا القضية بحرية، مما ابتلاني بمصيبة أخرى. فلم أتمكَّن من إيجاد أيِّ دليلٍ يمكنني تقديمُه إلى المحكمة بحيث يدعم القضية مباشرةً.

مرَّ ستة أيام من السبعة، ولم يكن هناك أيُّ خبر من ثورندايك، ولكن في مساء اليوم السادس، تلقيتُ خطابًا منه مقتضبًا وبلغة جادة، ولكني لا أزال أتمسك ببصيص أمل. كانت الرسالة المختصرة كما يلي:

> لقد تحريتُ عن المسألة التي تحدثتَ معي فيها، وأظنُّ أن الأمر يستحق البحث. وبناءً عليه، كتبت إلى السيد هارات أقدم له مشورتي بشأن هذه القضية.

كان خطابًا غيرَ محدد المعالم، ولكني أعرف ثورندايك تمام المعرفة بحيث أعرف أن وعودَه عادة لا تنمُّ عن نواياه كاملة. عندما قابلتُ السيد هارات وبرنابي في الصباح التالي في المحكمة، دلَّ شيءٌ في أسلوبهما — همة وأمل جديدان — على أن ثورندايك كتب المزيد من التفاصيل في خطابه إلى المحامي. وعلى الرغم من ذلك، كان قلقهم كفيلًا بانفطار قلب المجرم عليهما، على الرغم من شجاعتهما الظاهرية.

المشهد في المحكمة عندما نُوديَ على القضية رسم صورةً في ذهني لا أستطيع أن أنسى تفاصيلَها. امتزج البؤس بالمأساة، والطيش مع الوقار المهيب — القاضي المتجهم الجالس على المنصة ورجال الشرطة متبلدو الإحساس والمحامون المنشغلون والزحام الهائج من الحاضرين المفتقرين إلى الإحساس والذين لم تُرفع عيونهم عن الواقفة في قفص الاتهام — كلُّ هذا كان مجموعةً متنوعة من التناقضات التي أرجو ألَّا أراها مرة أخرى.

بالنسبة إلى المسجونة نفسها، أصابني مظهرُها بغصَّة في حلقي. وقفتْ متصلبةً وكأنها تمثال من الرخام لا ينبض بالحياة، وقفتْ في قفص الاتهام يحرسها اثنان من رجال الشرطة وهي تنظر باندهاش لا حَراك معه على هذا المشهد المتنافر، كانت هادئة من الخارج وكأنها تنتظر الموت المحتوم. وعندما نهض محامي الادعاء كي يفتتح القضية للشرطة، نظرتُ إليه وكأنها ضحية على مقصلة الإعدام تحملق في السياف.

لما استمعتُ إلى المرافعة الافتتاحية المختصرة، انفطر قلبي على الرغم من أن مستشار التاج الملكي المحامي السير هارولد لايتون عرض قضيتَه بإنصاف دقيق للمتهمة مما يجعل محكمة العدل الإنجليزية محكمةً لا تُضاهَى على مستوى العالم، ولكن عدم ذكر سوى الوقائع المجردة من دون تعليق كان شيئًا مروعًا. لم تكن هناك حاجةٌ إلى مرافعةٍ بليغة لإظهار أنهم توجهوا مباشرة إلى الاستنتاج الملعون.

فرانك برنابي رجلٌ مسن ومتزوج من شابة جميلة، وقد أعطتْه في ثلاث مناسبات منفصلة وبدهاء سمًّا قاتلًا وهو الأتروبين. سيثبت أن الرجل عانى تأثيراتِ ذلك السمِّ وأن أعراضَ السمِّ تلت تناول أصناف معينة من الطعام التي تناولها بمفرده وأن هذه الأصناف المذكورة كانت تحتوي على السمِّ المذكور وأن الطعام الذي يحتوي على السم أعدَّتْه له زوجتُه المتهمة بيديها كي يأكلَه وحده. لا يوجد دليل حتى الآن بشأن حصول المتهمة على السمِّ أو أن السمَّ بحوزتها بأي حالٍ من الأحوال، كما أنه لا يوجد أيُّ اقتراحاتٍ بشأن الدافع وراء ارتكاب تلك الجريمة، ولكن بناءً على دليل إعطاء السمِّ بالفعل للزوج، طلب إدانة السجينة بناءً على هذا الدليل. ثم انتقل إلى استدعاء الشهود، وكنتُ أنا أولهم

بالطبع. وعندما أقسمتُ اليمين وأدليت بشهادتي، طرح المحامي بعض الأسئلة التي توضح تاريخ القضية التي لم أكن أحبُّ تكرارها. ثم تابع قائلًا:

«هل لديك أيُّ شكوك في سبب الأعراض التي عاناها السيد برنابي؟»

«لا، بالتأكيد كان سببُها التسمُّم بالأتروبين.»

«هل السيد برنابي لديه أيُّ تأثُّرٍ صحي فيما يتعلق بالأتروبين؟»

«نعم، إنه يعاني حساسية مفرطة تجاه الأتروبين.»

«هل كانت المتهمة على علم بهذه الحساسية المفرطة؟»

«نعم، سبق أن أخبرتُها عن الأمر.»

«على حدِّ علمك، هل كان أحدٌ آخر على علم بهذه المعلومة؟»

«السيد باركر كان حاضرًا عندما أخبرتُها والسيد برنابي وأخوه الدكتور جيم أيضًا كانوا على علم.»

«على حدِّ علمك، هل هناك أيُّ طريقة تستطيع بها المتهمةُ الحصول على الأتروبين؟»

«ليست هناك طريقةٌ سوى وصفة طبيب العيون لقطرات عين تحتوي على الأتروبين.»

«هل تعلم أن هناك أيَّ وسيلة أخرى — غير الطعام — يمكن أن يصل بها الأتروبين للسيد برنابي؟»

رددتُ: «لا أعلم.» بذلك اختتمتُ شهادتي، ولكن لما نزلتُ من فوق منصة الشهود، انتابني ضيقُ الصدر وفكَّرتُ أن كل كلمةٍ خرجت من فمي أحكمت الاتهامَ ضد المسكينة الصامتة في قفص الاتهام.

نُوديَ على الشاهدة التالية وهي الطاهية. شهدتْ بأنها ذبحت الأرنب وسلخته وسلَّمته إلى المتهمة التي طهتْه بالقلي بحيث أصبح جاهزًا للأكل. لم تُشارك الشاهدة في عملية الطهي ولم تكن حاضرةً في المطبخ في إحدى المرات ولو لعدة دقائق، وتركت المتهمة بمفردها.

عندما اختتمت الطاهيةُ شهادتَها، نُوديَ على اسم جيمس برنابي وصعِد الطبيب إلى منصة الشهود، وبدا عليه عدمُ الارتياح ولكنه كان متجهمًا وحازمًا. استوضحت الأسئلة الأولية ملابسات الزيارة إلى منزل أخيه والإصابة المفاجئة بالمرض. عرف من الوهلة الأولى أن المرض بسبب جرعةٍ كبيرة من الأتروبين، وافترض أن السمَّ كان في الطعام الذي أُعدَّ له خصِّيصى.

سأل المحامي: «هل اتخذتَ أيَّ إجراءاتٍ للتأكُّد من حالة التسمُّم؟»

«نعم، بمجرد أن أصبحتُ وحدي، أخذتُ جزءًا مما تبقَّى من الأرنب ووضعتُه في علبة زجاجية وجدتُها على رفِّ الموقد كنتُ قد شطفتها بالماء أولًا. ثم حملتُ عينة الطعام إلى البروفيسور بيري؛ ومن ثَم حلَّلها في وجودي واكتشف أنها تحتوي على الأتروبين. حصل منها على كميةٍ من كبريتات الأتروبين تساوي جزءًا من ثلاثين جزءًا من وحدة القمحة.»

«هل هذه الجرعة سامة؟»

«ليست سامَّةً للشخص العادي، على الرغم من أنها تتجاوز الجرعة الطبية بكثير، ولكنها يمكن أن تكون جرعةً سامة بالنسبة إلى فرانك برنابي. إذا ابتلع هذه الجرعة بالإضافة إلى ما تناوله مسبقًا، فلا شك عندي أنها ستقتله.»

بذلك اختُتمت القضية بالنسبة إلى النيابة، ولا شك أن القضية أصبحت تتجه نحو الأسوأ. لم يكن هناك استجواب، ولما وصل ثورندايك قبل نفاد الوقت وتشاور مع السيد هارات ومحاميه، بالتالي استنتجتُ أن الدفاع قد يتخذ شكلَ الهجوم المرتد عن طريق إثارة قضيةٍ جديدة. وهذا ما حدث بالفعل. عندما صعِد ثورندايك إلى منصة الشهود وانتهى من الإجراءات الأولية، تركه محامي الدفاع «يتحدث بحريته».

أبدى ثورندايك موافقته وقال المحامي: «أجريتَ تحقيقاتٍ معينةً بشأن القضية، أليس كذلك؟ لن أطرح أسئلة معينة، ولكن سأطلب منك وصْفَ التحقيقات ونتائجها وأن تُخبرنا عن الدوافع التي جعلتْكَ تُجريها.»

ثورنداايك: «أتتني القضيةُ بناءً على إخطار من الدكتور جاردين الذي أخبرني بجميع الوقائع التي يعرفها. كانت هذه الوقائع لافتةً للنظر بدرجة كبيرة وتُشير إلى تفسير محتمل لمصدر التسمم عند جمْعها مع بعضها. تضمنت القضيةُ أربعَ نقاط تُثير الدهشة. أولًا: الطبيعة غير العادية للسم. ثانيًا: الحساسية المفرطة غير العادية التي يعانيها السيد برنابي تجاه هذا السم. ثالثًا: حقيقة أن الطعام الذي يحتوي على السم أتى من المصدر نفسه؛ أي أرسله السيد سيريل باركر. رابعًا: كون الطعام من بيض الحمام ولحم الحمام ولحم الأرانب.»

سأل المحامي: «وما اللافت للنظر في ذلك؟»

«اللافت للنظر أن الحمام والأرانب تتمتع بمناعة غير عادية تجاه الأتروبين. معظم الحيوانات والطيور التي تتغذى على الأعشاب يرتفع لديها مستوى المناعة أو يقلُّ تجاه السموم في الخضراوات. تتمتع العديدُ من الحيوانات والطيور بمناعةٍ كبيرةٍ ضد الأتروبين، ولكن الحمام يتمتَّع بمناعةٍ استثنائية بين الطيور، والأرانب تتمتع بأقصى مناعة بين

الحيوانات. بإمكان الأرنب تناول جرعة من الأتروبين تساوي ١٠٠ ضعف الجرعة التي تقتل الإنسان من دون أن تضرَّه؛ وعادة ما تتغذى الأرانب بحريتها على أوراق البيلادونا وثمارها أو عنب الثعلب السام.»

سأل المحامي: «هل عنب الثعلب السام يحتوي على الأتروبين؟»

«نعم، الأتروبين من العناصر النشطة في نبات البيلادونا ومن المكونات التي تجعله سمِّيًّا.»

«لو تغذَّى حيوان مثل الأرنب على نبات عنب الثعلب، فهل يُصبح لحمُه سامًّا؟»

«نعم، هناك حالات تسمم من أكل لحم الأرانب — سجلتها فيرث آند بنتلي — على سبيل المثال.»

«وهل تظن أن السمَّ في الحالة التي بين أيدينا كان في الحمام والأرانب نفسَيهما؟»

«نعم، كانت صدفةً مدهشة أن يحدث التسمم بعد تناول هذين الحيوانين اللذين يتمتعان بمناعة استثنائية، ولكن كان هناك سببٌ آخر لربط حالة التسمم بهما. كانت الأعراض متناسبة تناسبًا صادمًا مع كمية السم المحتملة في كل حالة. وبالتالي كانت الأعراض خفيفة بعد تناول بيض الحمام، ولكن لا يمكن لبيض الحمام المسمم أن يحملَ سوى كمية ضئيلة من السمِّ. بعد تناول الحمام، ارتفعت حدةُ الأعراض كثيرًا؛ لأن لحم الحمام الذي تغذَّى على البيلادونا يمكن أن يحتويَ على كمية أتروبين أكبر من الكمية المحتملة في البيضة. وأخيرًا، بعد تناول الأرنب، أصبحت الأعراضُ مرعبةً إلى حدٍّ بعيد، ولكن الأرنب يتمتع بأعلى مستوى من المناعة وغالبًا تناول كمياتٍ كبيرة من أوراق البيلادونا.»

«هل اتخذتَ أيَّ إجراءات لاختبار نظريتك؟»

«نعم، يوم الاثنين الماضي، ذهبت إلى إلثام وتأكدت من أن السيد سيريل باركر يعيش هناك، واستعرضتُ المنشآت من الخارج. في نهاية الحديقة، يوجد حقل صغير محاط بجدار. اقتربت نحو الحقل عبر مرج ونظرتُ من فوق الجدار؛ ومن ثَم رأيتُ أن الحظيرة مزودة بمنازل للطيور الصغيرة وأبراج للحمام وأقفاص للأرانب. كلُّ هذه المساكن كانت مفتوحة وكانت الطيور والحيوانات تتجوَّل في الحقل الصغير. في أحد جوانب الحظيرة، وبالقرب من الجدار، يوجد كمية كبيرة من نباتات عنب الثعلب السامة التي تتجاوز طولَ الجدار بالكامل ويبلغ عرض مساحة الأرض التي تنبت عليها ياردتين. وفي جزء من هذا السياج الدائري المجهز بشبكة سلكية، يوجد خمسة أرانب في منتصف النضوج. كانت هناك سلةٌ تحتوي على كمية من أوراق الكرنب وغيرها من أوراق النباتات الخضراء. ولكن

لما شاهدتُ المكان، رأيت أرانب صغيرة تلعب بحريتها على نباتات عنب الثعلب وبدا أنها تفضِّلُها على الغذاء الذي يُقدَّم لها.

في اليوم التالي، ذهبت إلى إلثام مرة أخرى وأخذتُ معي مساعدًا كي يحمل الأرنب الصغير في سلة صغيرة. راقبنا الحقل الصغير إلى أن أصبح المكان خاليًا. ثم قفز مساعدي من فوق السور وسرق أرنبًا صغيرًا من داخل السياج الدائري وسلَّمه لي. بعد ذلك أخذ الأرنب من السلة التي معنا وأسقطه داخل السياج. وبمجرد أن خرجنا من المرج، ذبحنا الأرنب كي نمنعَ أيَّ زوال محتمل للسم الذي قد يكون ابتلعه. عند الوصول إلى لندن، أخذتُ الأرنب الميت على الفور إلى المختبر الكيميائي بمستشفى سانت مارجريت وبحضور الدكتور وودفورد — الأستاذ الدكتور في الكيمياء — سلختُه وجهزتُه وأزلتُ الأحشاء وكأنه سيُطهى. عندئذٍ فصلتُ العظم عن اللحم وسلمتُ الأرنب إلى الدكتور وودفورد في حضوري؛ ومن ثَم أجرى عليه اختبارًا كيميائيًّا شاملًا للتحقُّق من وجود الأتروبين. خرجت نتيجةُ الاختبار بوجود الأتروبين في جميع العضلات؛ وبإجراء اختبار كمي، ووجدنا أن العضلات بمفردها تحتوي على ما لا يقل عن ٠٫٩٣ قمحة.»

سأل المحامي: «هل هذه الجرعة سامة؟»

«نعم، هذه الجرعة سامة للرجل العادي. وفي حالة شخص يعاني حساسية مفرطة مثل السيد برنابي، فبالتأكيد ستكون جرعة قاتلة.»

بذلك اختتم ثورندايك شهادتَه. لم يستجوب القاضي ثورندايك ولم يطرح عليه أسئلة. عندما نُوديَ على الدكتور وودفورد وأدلى بشهادته التأكيدية، تقدَّم محامي زوجة برنابي لمخاطبة هيئة المحكمة، ولكن قاطعه القاضي.

قال: «في الحقيقة لا يوجد قضية كي نناقشَها. ما أدلى به الشهود الخبراء يوضح تمامًا أن السمَّ كان موجودًا بالفعل في الطعام عندما وصل إلى أيدي المتهمة؛ وبالتالي تسقط عنها تهمةُ دسِّ السمِّ ولا بد من إخلاء سبيلها. أنا متأكد من أن الجميع سيتعاطف مع هذه السيدة القليلة الحظ التي وقعت ضحيةً لهذه الظروف غير العادية كما سيبتهجون مثلي عند سبْر أغوار اللغز. وعليه أحكم بإخلاء سبيلها.»

كانت لحظةً درامية عندما خرجت زوجةُ برنابي من قفص الاتهام وسط تصفيق الحاضرين وشبكتْ يدها في يد زوجها الممتدة والمبسوطة إليها ولكن لمَّا لم يتمالكا نفسَيهما بعد هذا الخلاص المفاجئ، حسبتُ أنه من الأفضل ألا أتباطأَ في الانطلاق مع ثورندايك ولكن بعد أن أقدِّمَ لهما التهاني. غير أنه كانت هناك واقعةٌ سعيدة شهدتُها قبل أن أذهب

وهي أنه لما كان الدكتور جيم يقف بعيدًا ويبدو عليه الحرج بعض الشيء، جرتْ إليه زوجةُ برنابي ومدَّت يدَها كي تصافحَه.

قال بنبرة خشنة: «أظن يا مارجريت أنكِ تعتقدين أني وغدٌ كبير؟»

ردَّت: «في الحقيقة لا، تصرفتَ كما يجب وأحترم فيك هذه الشجاعة المعنوية. ولا تنسَ يا جيم أن تصرُّفَك أنقذ حياة فرانك. ولولاك لما وصلنا إلى الدكتور ثورندايك ولولا الدكتور ثورندايك لكان هناك أرنبٌ مسموم آخر.»

ونحن خارجون من المحكمة، سألتُ ثورندايك: «ما قولك في هذه القضية؟ هل تظن أن التسمم كان حادثًا عرضيًّا؟»

هزَّ ثورندايك رأسه وردَّ قائلًا: «لا يا جاردين. توجد العديد من المصادفات. تلاحظ أن الحيوانات التي تحمل السمَّ لم تظهر إلا بعدما علم السيد باركر منك أن برنابي يعاني حساسية مفرطة تجاه الأتروبين ومن الممكن أن يتسمم بجرعة طبية عادية. ثم إن إرسال الحيوانات حية يبدو أنه إجراء احترازي لإبعاد الشكوك عن نفسه وللتشويش على القضية. وكذلك السياج الدائري ونباتات البيلادونا لها مظهرٌ يُثير الشكوك، والنباتات نفسها لم تكن كثيرة كثرة غير عادية، بل إن الكثير منها كان صغيرًا جدًّا ويبدو وكأنه مزروع. إضافة إلى ذلك، عرفتُ مصادفةً أن شركة باركر نشرت كتابًا عن السموم منذ عام واحد فقط وورد في الكتاب مناعة الحمام والأرانب ومن المحتمل أن باركر قرأه.»

«هل تظن إذن أنه تعمَّد جعْل زوجة برنابي — المرأة التي كان واقعًا في حبها — تذوق مرارة جريمته؟ لا أكاد أصدق هذه الخسة والنذالة.»

ردَّ: «لا أظن، أحسب أن الأرنب الذي أمسكته أو واحدًا آخر كان سيُرسَل إلى برنابي في غضون عدة أيام. كانت الطاهية ستجهزه له وبالتأكيد كانت ستذبحه، وذبحه سيكون دليلًا على براءة زوجة برنابي. كانت ستحوم الشكوك حول الطاهية، ولكن لا أظن أنه سيُتَّخَذ أيُّ إجراء ضده، فمن المؤكد عمليًّا أنه لا يوجد قاضٍ يُدينه بناءً على شهادة مني.»

كان ثورندايك محقًّا في رأيه. لم تُتَّخذ إجراءاتٌ ضد باركر، ولكنه لم يدخل إلى بيت برنابي مرة أخرى.

الفصل السابع

# لغز في كثبان رملية

أتساءل في بعض الأحيان كم مرة تطرقُ الألغازُ والرومانسية أبوابَ حياتنا نحن الأشخاص العاديين ولكنها تمرُّ بنا من دون أن نُلقيَ لها بالًا. وفي كثير من الأحيان، تُساورني الشكوكُ أكثر مما يتخيَّل معظمُنا. الميول الغريبة لدى صديقي الموهوب جون ثورندايك في أن يكون في قلب الأحداث الغريبة والغامضة وغير العادية جعلته مصدرًا لصياغة النكات عليه، ولكن عندما أفكِّر، فإني أميل إلى الاعتقاد بأن تجاربَه لم تختلف اختلافًا جوهريًّا عن تجارب الرجال الآخرين فحسب، بل إن قدراتِه الاستثنائية على الملاحظة وسرعة البديهة مكَّنته من اكتشاف العناصر غير العادية في الأحداث التي تبدو عاديةً للرجل العادي. بالطبع كان الأمر كذلك في قضية روسكوف الفريدة التي لو كنتُ تولَّيتُها بمفردي، فلا ريب أنني لم أكن لأوليَها ميزةً أكثر من اهتمامٍ عابر.

ما حدث أنه في صباح أحد أيام الصيف — يوم الرابع عشر من أغسطس بالتحديد — كنا نتناقش في موضوع معين ونحن نتنزَّه سيرًا عبر ملاعب الجولف من بلدة ساندوتش باتجاه البحر. كنت أقضي إجازة في تلك البلدة القديمة مع زوجتي، حيث يمكنها أن ترسمَ لوحاتٍ للشوارع القديمة، وأقنعنا ثورندايك أن يأتيَ ويقضيَ معنا بضعة أيام. كان صباحه الأخير، انطلقنا في الوقت المناسب كي نتجولَ عبر الكثبان الرملية إلى شيلنس.

كان المكان رائعًا في تلك الأيام. عندما انتهينا من الكثبان الرملية ونزلنا إلى الشاطئ ذي الرمال الناعمة، لم نرَ أيَّ مخلوق على مدى بصرنا، وكانت آثارُ أقدامنا هي أولَ ما يطأ شريط الرمال الثابتة بين علامة ذروة المد وحافة الأمواج الهادئة.

مشينا مائة ياردة أو ما يقاربها ثم توقَّف ثورندايك ونظر إلى الرمال الجافة فوق علامات المد والجزر بطول الشاطئ المبتل.

أشار إلى بعض آثار أرجل عارية على الرمال، ثم قال بعد تأمُّل: «هل هذه آثار صائد جمبري؟ إذا كان كذلك، فلا بد أنه ليس من بيجويل؛ لأن نهر ستور يحجب الطريق، ولكنه أتى من البحر ويبدو أنه توجَّه إلى الكثبان الرملية مباشرة.»

لم أُبدِ اهتمامًا بالغًا، وقلتُ: «إذن ربما كان صائدَ جمبري.»

ثورندايك: «ولكن الوقت ليس الوقتَ الملائم لصيد الجمبري.»

سألتُ: «ماذا تقصد بالوقت غير المناسب؟» نظر ثورندايك في ساعته، وقال:

«خرج من البحر في هذا المكان، في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف من الليلة الماضية، أو في الوقت من الحادية عشرة والنصف إلى الساعة الثانية عشرة.»

قلتُ متعجبًا: «بربِّك يا ثورندايك! كيف تعرف هذا يا رجل؟»

ردَّ قائلًا: «هذا واضح يا أنستي. الساعة الآن التاسعة والنصف، وسيرتفع المد في الساعة الحادية عشرة، حسبما تأكدنا قبل أن نأتيَ. وإذا نظرتَ إلى هذه الآثار على الرمال الآن، فستجد أنها توقفت — أو بالأحرى بدأت المشي — فجأة بعد ثلثَي المسافة تقريبًا من علامة ذروة المد إلى حافة الأمواج. وبما أنها مرئية ومميزة، فلا بد أنها تُركت بعد انتهاء المد الليلة الماضية. ولمَّا لم تصل الأمواج إلى حافة مدِّ المياه، فلا بد أن الآثار تُركت عندما كان المدُّ منحسرًا، كما أن المكان الذي بدأ منه هو المكان الذي وصلتْ إليه نهاية المد عندما تُركت الآثار. وكما نرى، المكان الذي وقف فيه هو مكان وصول المدِّ بعد ذروته بحوالي ساعة؛ ولذلك عندما خرج من البحر، كان المدُّ منحسرًا عند مسافة وصوله بعد ساعة تقريبًا من ذروته. لما ارتفع المدُّ في الساعة الحادية عشرة هذا الصباح، فقد ارتفع المدُّ في حوالي الساعة الحادية عشرة إلا الثلث ليلة أمس؛ ولما خرج الرجل من البحر بعد ساعةٍ تقريبًا من ارتفاع المد، فلا بد أنه خرج في حوالي الساعة الثانية عشرة إلا الثلث أو قريبًا من ذلك. هل هذا واضح؟»

رددتُ وأنا أضحك: «فهمتُ تمامًا، يسهل فهمُ الأمور كثيرًا عند التفكير فيها مليًّا، ولكن كيف تستطيع يا رجل أن تستشفَّ هذه الأمور الواضحة بنظرة؟ معظم الناس سينظرون إلى تلك الآثار ويمرون عليها من دون تفكير ولو للحظة.»

رد قائلًا: «هذه مسألة اعتياد؛ عادةُ محاولة استخلاص المعلومات المهمة من الأمور الظاهرة البسيطة. وأصبح الأمر تلقائيًّا معي.»

في أثناء المناقشة، كنا نتمشى على مهل ونشرد إلى حافة الكثبان الرملية. وفجأةً، وفي حفرة بين الكثبان، وقعتْ عيناي على كومة من الملابس، وبناءً على طريقة وضع

الملابس المرتبة، فمن الواضح أنها لسباح. لاحظها ثورندايك أيضًا واقتربنا معًا ونظرنا إليها والفضول يتملك ألبابَنا.

قلت: «أتتْ إليك قضية أخرى. اعثر على السباح؛ فأنا لا أراه في أي مكان.»

ثورندايك: «لن تجدَه هنا. تُركت الملابس طيلة الليل. أما ترى شبكة العنكبوت على الأحذية وبها بضع قطرات من الندى لا تزال عالقةً بها؟ لم تكن هناك قطرات ندى تتشكل منذ بضع ساعات. لنُلقِ نظرة على الشاطئ.»

انطلقنا عبر الرمال الناعمة والحشائش اليابسة القصبية إلى الشاطئ الناعم، وهناك وجدنا خطَّ آثار واضحًا لأقدام عارية تمشي مباشرة إلى البحر، ولكنها تنتهي فجأة عند ثلثي الطريق إلى حافة المياه تقريبًا.

قلت: «يبدو أن هذا صائد الجمبري الذي يعمل في الليل. يبدو أنه نزل إلى البحر من هنا وخرج منه من المكان الذي كنا عنده، ولكن إذا كانت آثار الأقدام لشخص واحد، فلا بد أنه نسي ارتداء ملابسه قبل الذهاب إلى المنزل. إنها مسألة عجيبة.»

قال ثورندايك موافقًا: «إنها مسألة لافتة للنظر، وإذا لم تكن آثار الأقدام لشخص واحد، فهذا سيزيد من غموض المسألة.»

أخرج من جيبه شريط قياس صغيرًا زنبركيًّا وبه أخذ طول اثنين من أكثر الآثار الواضحة وطول الخطوة. ثم عُدْنا بطول الشاطئ إلى مجموعة الآثار الأخرى، وقاس أثرين منها بالطريقة نفسها.

بعدما أبعد شريط القياس، قال: «من الواضح أنها لشخص واحد. وفي الحقيقة يصعب أن يكون غير ذلك، ولكن السؤال هو: ما الذي حدث للرجل؟ لا يمكن أن يذهب بدون ملابسه إلا لو كان مخبولًا، وهذا ما تنمُّ عليه أفعاله. ليس هناك احتمالٌ سوى أنه نزل إلى البحر وغرق. هل سنمشي باتجاه شيلنس ونرى هل يمكننا العثور على المزيد من الآثار؟»

مشينا ما يُقارب نصف ميل بطول الشاطئ، ولكن لم يطأ أحدٌ أيَّ جزء من سطح هذه الرمال الناعمة. وبعدما مشينا مسافة، ارتددنا على آثارنا، وفي هذه اللحظة شاهدتُ رجلين يعبران الكثبان الرملية. حينما وصلنا إلى كومة الملابس الغامضة، كانَا على مسافة قريبة للغاية ولكن لم يُثيرَا أيَّ شكوك بشأن النية التي قصدنا بها الملابس؛ فقد غيَّرَا مسارهما كي يريَا ما ننظر إليه. لما اقتربَا، تعرفتُ على واحد منهما وعرفتُ أنه المحامي هاليت، جاري في تمبل وسبق أن قابلتُه في المدينة وتبادلنا التحية.

لما نظر إلى كومة الملابس ثم نظر بطول الشاطئ الصحراوي، قال: «ما هذا الشيء المثير؟ وأين هو صاحب الثياب؟ فأنا لا أراه في أي مكان.»

قلت: «هذه هي المشكلة، يبدو أنه اختفى.»

قال هاليت متعجبًا: «يا إلهي! إذا ذهب إلى منزله بدون ملابس، فسيكون حديث الساعة في المدينة! ما هذا؟»

عندئذٍ انحنى الرجل الآخر الذي يحمل مجموعة من مضارب الجولف على الملابس ونظر إليها باهتمام بالغ.

«أعتقد أنني أعرف هذه الملابس يا هاليت؛ في الحقيقة أنا متأكد من أنني أعرفها. أعرف هذه الصدرية على سبيل المثال. لا بد أنك لاحظت تلك الصدرية. رأيتُك تلعب مع هذا الرجل منذ يومين. إنه رجل طويل حليق الذقن وذو بشرة داكنة. عضو مؤقت، أنت تعرفه. ماذا كان اسمه؟ روبوف، أو اسمًا قريبًا منه، أليس كذلك؟»

هاليت: «روسكوف، بلى، أقسم على ذلك، وأعتقد أنك على حق. تذكَّرتُ الآن، ذكر لي أنه يأتي إلى هنا في بعض الأحيان من أجل السباحة. قال إنه يحب التجديف في ضوء القمر على وجه الخصوص وقلت له إنه مجنون كي يخوضَ تلك المخاطرة بالسباحة في مكان منعزل مثل هذا، خاصةً في الليل.»

ثورندايك: «يبدو أن هذا ما حدث؛ لأن هذه الملابس يبدو أنها هنا طوال الليل، بناءً على ما تراه من شبكة العنكبوت تلك.»

هاليت: «أتى إلى حتفه إذن، يا له من بائس! ربما جرفه التيار بعيدًا. يرتفع المد هنا كثيرًا لدرجة الطوفان.»

بدأ في المشي باتجاه الشاطئ، ثم تبعه الرجل الآخر بعد أن رمى مضارب الجولف.

هاليت: «نعم، هذا ما حدث. يمكن أن ترى هذه الآثار بوضوح تام وهي تنزل إلى البحر، ولكن لا توجد آثار تدل على الخروج منه.»

قلت: «توجد بعض الآثار الخارجة من البحر في مكان بعيد على الشاطئ، ويبدو أنها مماثلة لتلك الآثار.»

هزَّ هاليت رأسه قائلًا: «لا يمكن أن تكون آثارَ أقدامه لأنه من الواضح أنه لم يخرج من البحر بتاتًا. ربما كانت آثار أقدام صائد جمبري. السؤال الآن: ما الذي ينبغي لنا فعله؟ من الأفضل أن نأخذ أغراضه إلى استراحة اللاعبين ثم نُخبر الشرطة بما حدث.»

عُدنا وبدأنا في جمْع الملابس، وأخذ كلٌّ منَّا قطعة أو قطعتين.

لما رفع هاليت القميص قال: «كنتَ على حق يا موريس، ها هو اسمه، «بي روسكوف»، وأراه على السترة والسروال القصير كذلك. تعرَّفت على العصا الآن ولكن هذه المسألة ليست مهمة؛ إذ إن ملابسه تُميِّزه.»

تعرَّف بعضنا على بعض ونحن نقطع الملاعب إلى استراحة اللاعبين. كان موريس محاميًا في لندن، وكلاهما هو وهاليت يعرفان ثورندايك بالاسم.

لما دخلنا الاستراحة، قال هاليت: «سيحظى المحقق في أسباب الوفاة بشهادة خبير؛ ومن ثَمَّ لن يُهدر الوقت في قضية بسيطة كهذه. من الأفضل أن نضع الملابس هنا.»

فتح باب غرفة صغيرة مؤثثة بطاولة كبيرة ومجموعة من الخزانات، وفتح خزانة منها.

ثورندايك: «قبل أن نُغلق عليها، أقترح أن نكتب قائمةً بها وبمحتويات الجيوب ونوقِّع عليها ونضعها معها.»

هاليت: «جيد جدًّا، أنت تعرف كيف تُمسك أطراف الخيوط في هذه القضايا. سأدوِّن المواصفات، فأرجو أن تُمليَها عليَّ.»

تفحَّص ثورندايك مجموعة الأغراض وعدَّ العناصر التي احتوت على سترة من نسيج التويد، وسروال، وصدرية خفيفة من الصوف المحبوك، وقميص من القطن أزرق اللون وبه أشرطة باللونين الأسود والأصفر، وفيست وسروال قصير مطبوع عليهما اسم «بي روسكوف»، وجورب بُنِّي من صوف الميرينو، وحذاء بُنِّي، وقبعة من نسيج التويد، وعصا مشي — عصًا من قصب المالاكا بها قبضة ملتوية على شكل بوق — عندما كتب هاليت هذه القائمة، وضع ثورندايك الملابسَ على طاولة وبدأ في تفريغ الجيوب واحدًا تلو الآخر، وأخذ يُملي أوصاف الأغراض لهاليت وكان موريس يأخذها منه ويضعها على ورقة جرائد. احتوت جيوب السترة على منديل مكتوب عليه «P. R.»، ومحفظة أوراق تحتوي على عدة طوابع وفاتورة أو فاتورتين لفندق وإيصالات من متاجر محلية، وبعض بطاقات الزيارات مكتوب عليها «السيد بيتر روسكوف، فندق بيل، ساندوتش»، وعلبة سجائر من الجلد، وقلم رصاص 3B مزود بغطاء للسن، وقطعة من فحم العنب كما يسميه ثورندايك.

قال موريس وهو يحملق في جيوب محفظة الأوراق: «يبدو أنها لا تحتوي على كثير من المعلومات. لا يوجد خطابٌ أو أيُّ شيء يشير إلى عنوانه الدائم، ولكن هذه ليست المشكلة.» وضع محفظة الأوراق جانبًا وأخذ سكينًا صغيرًا أخرجه ثورندايك من جيب السروال وتفحَّصه باهتمام بالغ. قال: «سكين غريب، فهذه الشفرة المعدنية حادة للغاية،

وكذلك مبرد الأظافر وشفرة من العاج. يبدو أنها أشياء سخيفة. سكين الورق مريح أكثر في حمله، ولا يحتاج إلى مقبض.»

هاليت: «ربما كان الغرض منها تقطيع الفاكهة.» وأخذ يُضيف إلى القائمة وينظر إلى كومة صغيرة من العملات الفضية التي وضعها ثورندايك لتوِّه. أضاف: «أتساءل ما الذي حوَّل هذا المال إلى اللون الأسود. انظر! وكأنه كان يأخذ أدوية تحتوي على الكبريت. ما تقول في ذلك يا دكتور؟»

ثورندايك: «إنه تفسير مرجح، ولكننا لا نمتلك أيَّ وسائل لاختباره، ولكن توجد علبة ثقاب في الجيب الآخر، وبالأحرى تدحض نظريتك.»

أخرج علبة فضية صغيرة محفورًا عليها الحروف .P. R، ويتطابق سطحُها المصقول تطابقًا كبيرًا مع لون العملات الأسود المائل إلى البنيِّ. نظر إليها هاليت نظرةً ثاقبة ولما أدخلها ضمن القائمة وأضاف مجموعةً من المفاتيح وساعةَ يد من جيب الصدرية، وضع القلم جانبًا.

لما نهض وبدأ في جمْع الملابس، قال: «هذا كثير، أليس كذلك؟ يا إلهي! انظر إلى الرمال على الطاولة! ألم تندهشوا كيف أن ملابس شخص ممتلئة بالتراب أصبحت في النادي هنا بعد يوم؟ عندما أخلع ملابسي في الليل، تجد أرضية الحمام وكأنها أرضية لقفص طائر. هل أضع تلك الأشياء في الخزانة الآن؟»

ثورندايك: «بما أنني قد أُدلي بشهادة، فأعتقد أنه من الأفضل أن أُلقيَ نظرة عليها قبل أن تضعها في الخزانة.»

ابتسم هاليت قائلًا: «ستكون هناك شهادة من خبير في النهاية. يمكنك البدءُ وأخبِرْني عندما تنتهي. سأدخن سيجارة في الخارج.»

بذلك، خرج هو وموريس ورأيتُ أنه من الأفضل أن أخرج معهما على الرغم من أنني كنتُ مهتمًّا بعض الشيء بشأن موضوع زميلي في فحص هذه الملابس المتروكة. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يعيق فضولي، فلم يذهب أصدقائي إلى مكان أبعد من الحديقة الصغيرة التي تُحيط بالاستراحة، ومن المكان الذي وقفتُ فيه، تمكَّنتُ من النظر من النافذة ورؤية الإجراءات التي يقوم بها ثورندايك.

كانت الإجراءات منهجية للغاية. بدايةً بسط ورقة جرائد على الطاولة ووضع عليها السترة؛ ومن ثَم شرع في فحص كلِّ جزء منها بعناية، وأخرج منها بعض الأشياء من الجزء الأمامي، وأولى اهتمامًا خاصًّا بالبقعة الكثيفة للدهان؛ إذ إنني لاحظتُها على طرف

الكمِّ الأيسر. وباستخدام شريط القياس الزنبركي، قاس طولَ الأكمام وبعض الأبعاد الأساسية الأخرى. وفي النهاية قلب السترة على الجهة الأخرى وأخذ يضرب عليها برفق باستخدام عصاه مما أدى إلى سقوط قدر كبير من الرمال على الورقة. عندئذٍ وضع السترة جانبًا، وأخرج من جيبه مظروفين صغيرين (وأظن أنه كان يحملهما معه دائمًا)، ووضع في واحد منهما الرمال التي كانت على الورقة وكتب بضع كلمات عليه — أظن أنه كتب مصدر الرمال — وبالطريقة نفسها وضع الشيء الصغير الذي التقطه من فوق السترة.

تكرَّر هذا الإجراء الغريب مع الملابس الأخرى؛ إذ إنه كان يستخدم ورقة جرائد جديدة لكل قطعةٍ وكذلك مع الجورب والحذاء والقبعة. فحص القبعة فحصًا دقيقًا، خاصةً من الداخل، وأخرج منها شيئين أو ثلاثة أشياء صغيرة لم أستطع أن أراها، ولكني أخمِّن أن تكون شعرًا. حتى عصا المشي فحصها وقاس طولها ولم ينسَ بالطبع فحْص الأشياء التي أُفرغت من الجيوب من جديد، خاصةً سكين الجيب المثير للاهتمام وشفرة العاج؛ إذ فحصهما من الجوانب كلها باستخدام عدسته.

اختلس هاليت وموريس النظرَ إليه من وقتٍ لآخر، وقال هاليت:

«أحبُّ الحماس المفعم بالأمل لدى هذا الخبير النابغة بحقٍّ، والطريقة التي يرفض بها الاعترافَ بوجود شيءٍ عادي ومألوف. إني أتساءل ما الذي توصَّل إليه من هذه الأشياء، ولكن ها هو. حسنًا يا دكتور، ما الذي توصلتَ إليه؟ هل كان الأمر جنونًا مؤقتًا أم مغامرة؟»

هزَّ ثورندايك رأسَه ورد قائلًا: «سيتأجَّل الردُّ على السؤال حتى ظهور أدلةٍ جديدة. طبقتُ الملابس ووضعتُ جميع المتعلقات مع بعضها في علبة ورقية، باستثناء العصا.»

لَمَّا وضع هاليت المتعلقات في الخزانة، خرج ونظر عبر الملاعب وبدا أنه لم يقرر وجهتَه.

قال: «أعتقد أننا يجب أن نُبلغَ الشرطة. سأفعل ذلك. في رأيك، متى تطفو الجثة على السطح وأين؟»

ثورندايك: «التنبؤ بذلك مستحيل. اتجاه التيار ماضٍ نحو نهر التيمز، ولكن يمكن أن تطفوَ الجثة في أي مكانٍ بطول الشاطئ. سُجلت حالة انجراف سباح قبالة برايتون وطفَا جثمانُه بعد ستة أسابيع في مدينة ولتون أون ذا نيز، ولكن كانت هذه الحالة استثنائية تمامًا. سأُرسل بلاغًا إلى المحقق في أسباب الوفاة وقائد الشرطة يتضمَّن عنواني

وأعتقد أنه من الأفضل أن تفعلوا مثلي. وهذا كلُّ ما نستطيع فعله إلى أن يتمَّ استدعاؤنا في التحقيقات إذا أُجريت.»

اتفقنا جميعنا على هذا، وبما أن الصباح انجلى في ذلك الوقت، عُدْنا جميعًا عبر ملاعب الجولف إلى المدينة، وهناك أقنعنا زوجتي بالعودة إلى البيت مع أدوات الرسم التي معها. حملتُ أنا وثورندايك هذه الأدوات وانفصلنا عن هاليت وموريس عند باربيكان؛ ومن ثَم سلكنا الطريق إلى المنزل كي نُعِدَّ الغداء. وكان طبيعيًّا أن نقصَّ الأحداث في الصباح على زوجتي وأن نتناقش فيها جميعُنا، ولكني لاحظتُ أن ثورندايك لم يذكر شيئًا عن فحْصه للملابس؛ وبالتالي لم أقُلْ شيئًا عن هذه المسألة أمام زوجتي، ولم تأتِ مناسبةٌ لفتح الموضوع حتى المساء عندما صحبتُه إلى المحطة. ولما وصلنا إلى الرصيف وجلسنا ننتظر قطاره، طرحتُ السؤال:

«على أية حال، هل استخلصتَ أيَّ معلومات من هذه الملابس؟ رأيتُكَ تتفحصها بدقة بالغة.»

ردَّ قائلًا: «خمَّنتُ اقتراحًا منها، ولكنه اقتراح غريب وبالتالي لا أحبُّ أن أذكرَه. باتخاذ الأمور الظاهرة على المعنى الظاهري لها؛ فالاقتراح هو أن هذه الملابس ليست جميعها لشخص واحد. توجد آثار تقترح وجودَ رجلين؛ واحد منهما يبدو أنه من هذه المقاطعة، أما الآخر فيبدو أنه قادم من الساحل الشرقي لمقاطعة ثانيت بين رامسجيت ومارجيت، وبناءً على الاحتمالات، فغالبًا ينتمي إلى دامبتون أو برودستيرز.»

سألتُ: «كيف يا رجل توصَّلتَ إلى المدن المحلية؟»

ردَّ: «في المقام الأول، من خلال خصائص الرمال التي سقطت من الملابس، وهذه الرمال لم تكن متماثلة في جميع الملابس. فكما ترى يا أنستي، الرمال مشابهة للتراب. فكلاهما يتكوَّن من جزيئات دقيقة تُفصل من كتل أكبر؛ وبمجرد فحص تراب غرفة تحت المجهر، يمكنك التأكد من اللون والمادة التي صُنع منها السجاد والستائر وأغطية الأثاث والنسيج الآخر، وهذا النسيج تتكون منه جزيئات الأتربة في تلك الغرفة. وبفحص الرمال، يمكنك تحديد خصائص الجرف والصخور والكتل الكبيرة الأخرى التي تنجرف من الأرض بسبب المد وتدخل إلى رمال الشاطئ. بعض الرمال التي نزلت من هذه الملابس لها خصائص فريدة ومن المحتمل أن تكشف المزيد من المعلومات عندما أفحصها تحت المجهر.»

قلتُ معترضًا: «ولكن ألا يوجد خطأ في مسار الاستنتاج هذا؟ أليس من المحتمل أن الرجل ارتدى ملابس مختلفة في أوقات وفي أماكن مختلفة؟»

ردَّ قائلًا: «هذا احتمال ويجب ألَّا نغفلَه، ولكن قد أتى قطاري. سنؤجل هذه المناقشة حتى تعود إلى مطحنة العمل.»

في واقع الأمر، لم تُستأنف المناقشة مطلقًا؛ وعندما عدتُ إلى «مطحنة العمل»، تلاشَتِ المسألة من عقلي كما أن تراكماتِ الأعمال شغلتْ ذهني، ومن المحتمل أن تكون المسألة راحت في طي النسيان ولكن حدث أن طُرحت للنقاش من جديدٍ وبطريقةٍ فريدة، وهذا ما سنتعرف عليه فيما يلي.

في أحد الأيام بعد الظهيرة في منتصف أكتوبر تقريبًا، اتصل بي صديقي القديم السيد برودريب — المحامي المعروف — كي يعطيَني بعضَ التعليمات الشفهية. عندما انتهى من المسألة التي طلبني لها، قال:

«لديَّ عميلٌ ينتظر بالخارج وأحاول أن أعرِّفه على ثورندايك. ومن الأفضل أن تأتيَ معنا.»

سألتُ: «ما طبيعة قضية العميل؟»

قال محاولًا إخفاءَ ضحكه: «لستُ أدري؛ فهو لن يقول. وهذا هو السبب الذي جعلني آخذه إلى صديقنا. لم أعرف أن قضيةً أعجزت ثورندايك، ولكني أظن هذه القضية ستعجزه. هل ستأتي؟»

قلت: «بلا شك، هذا إن لم يعترض عميلُك.»

برودريب: «لن أطلب منه الإذن؛ وبالتالي سيظن أنك تعمل معنا. ها هو إذن.»

في مكتبي الخارجي، وجدنا رجلًا ذا مظهر محترم في منتصف العمر وقدَّمني له برودريب؛ ومن ثَم نزلنا من على السلم وانطلقنا عبر كينجز بنش واك إلى مسكن ثورندايك. وهناك وجدنا زميلي منكفئًا على دراسة وصية باستخدام نظارة عين مكبرة، وبدأ برودريب الحديثَ بدون مقدمات:

«أحضرتُ أحد عملائي السيد كيبس كي يراكَ يا ثورندايك. لديه مشكلة صغيرة ويريدك أن تحلَّها.»

أومأ ثورندايك إلى العميل ثم سأل:

«ما طبيعة المشكلة؟»

برودريب بنظرة انزعاج: «آه! هذا ما ينبغي أن تتوصَّل إليه، فالسيد كيبس رجل نبيل كتوم بعض الشيء.»

رمق ثورندايك العميل بنظرةٍ خاطفة ثم نظر إلى المحامي. لم تكن المرة الأولى التي تطغى فيها الروحُ المعنوية العالية لدى برودريب الكبير وتتحوَّل إلى شكلٍ من أشكال

الخداع المازح، على الرغم من أن ثورندايك لم يكن لديه معجبٌ مخلص أكثر من هذا المحامي الكبير الداهية المرح.

ابتسم السيد كيبس ابتسامة استنكار قائلًا: «الأمر ليس سيئًا إلى هذه الدرجة، ولكني حقًّا لا أستطيع أن أعطيَك معلوماتٍ كثيرة. فالمسألة لا تخصني كي أعطيَك المعلومات التي تريد؛ فأنا أخشى أن أفشيَ أسرار شخص آخر إذا ذكرتُ الكثير من المعلومات.»

ثورندايك: «بالطبع يجب ألَّا تفعلَ ذلك، ولكن أعتقد أنه يمكنك استخدامُ لغةٍ عامة للإشارة إلى طبيعة المشكلة ونوع المساعدة التي تريدها منا.»

السيد كيبس: «أعتقد أنه يمكنني ذلك. على أية حال، سأحاول. مشكلتي هي أن هناك شخصًا معينًا أُحب التواصل معه وقد اختفى، ويبدو لي أنه اختفى في ظروفٍ لافتة للنظر. في آخر مرة تعرفتُ على أخباره، كان يُقيم في منتجع معين على البحر وقال في خطابه إنه سيعود في اليوم التالي إلى مسكنه في لندن. وبعد بضعة أيام، اتصلتُ بمسكنه هاتفيًّا ووجدت أنه لم يَعُد بعدُ، ولكن أمتعته — التي أُرسلت من دونه — وصلتْ في اليوم الذي ذكره؛ وبالتالي أنا متأكد من أنه غادر المنتجع على البحر، ولكن منذ ذلك اليوم حتى الآن لم يتصل بي، ولم يَعُد إلى مسكنه ولم يُرسل خطابًا إلى صاحبة المسكن.»

سأل ثورندايك: «منذ متى هذا الأمر؟»

«مضى حوالي شهرين منذ آخر مرة اتصلتُ به.»

«لا تريد أن تذكر اسم المنتجع الذي كان يقيم فيه على البحر.»

أجاب السيد كيبس: «أظن أنه من الأفضل ألَّا أذكرَه. وقعت أحداث لا تهمني، ولكنها تهمُّه كثيرًا، وهذا الأمر يُلزمني بعدم البوح إلا بأقل قدرٍ ممكن.»

«ألا يوجد شيء آخر يمكنك إخبارُنا به؟»

«أظن أنه لا يوجد، إلا إذا استطعتُ أن أتصل به، فيمكنني أن أخبره بشيءٍ بالغ الأهمية له وربما يمنعه من فعل شيء ما كان له أن يفعله.»

فكَّر ثورندايك مليًّا وأخذ برودريب يُراقبه بانتباه لا يخفى على وجهه. في الوقت الحالي، فكَّر زميلي وخاطب العميل الكتوم.

«هل سبق أن لعبتَ لعبة «أسألك وتُجيب بنعم أو لا» يا سيد كيبس؟ إنها لعبةٌ تتخذ شكلًا مشروعًا وفيها يطرح اللاعب أسئلةً على الآخرين ويطلب منهم الإجابة ﺑ «نعم» أو «لا» وكأنه يقف على منصة الشهود في المحكمة.»

بدا بعضُ الارتباك على كيبس وقال: «أعرف اللعبة، ولكن …»

سأل ثورندايك بنبرة هادئة: «هل نُجرِّب مرة أو مرتين؟ أنت لا تريد أن تُدليَ بأي بيانات، ولكن إذا طرحتُ عليك أسئلة معينة، فهل تُجيب بـ «نعم» أو «لا»؟»

فكَّر السيد كيبس لبرهة. وفي النهاية قال: «أخشى أن أعدَ بذلك ولا أوفي، ولكن إذا كنتَ تريد طرحَ سؤال أو اثنين، فسأُجيب عنهما إذا أمكنني ذلك.»

ثورندايك: «جميل جدًّا، لنبدأ إذن. هل أفترض أن تاريخ الخطاب الذي تلقيتَه كان في الثالث عشر من أغسطس؟ بماذا تجيب؟ نعم أم لا؟»

جلس كيبس مشدوهًا وأخذ يحملق في ثورندايك فاغرًا فاه.

سأل متعجبًا وبنبرة يملؤها الذهول: «بربِّك، كيف خمَّنت هذا التاريخ؟ هذا تخمين غير عادي! ولكنك على حقٍّ. كان في الثالث عشر.»

ثورندايك: «بما أننا اتفقنا على التاريخ، سنحاول تخمين المكان. ماذا تقول إذا خمَّنت أن المنتجع على البحر كان في حي برودستيرز؟»

صُعق السيد كيبس للغاية. لما جلس يحملق في ثورندايك، بدا وكأن الدهشة متجسدةٌ في شخصه.

قال متعجبًا: «ولكن، لا يمكن أن يكون هذا تخمينًا! أنت تعرف! أنت تعرف أنه كان في برودستيرز، ولكن كيف عرفت ذلك؟ أنا حتى لم ألمح إلى شخصه.»

ثورندايك: «أنا أفكر في رجلٍ معين ويُحتمل أنه اختفى من برودستيرز. هل يمكنني تخمين بعض السمات الشخصية؟»

أومأ السيد كيبس باديًا رغبته ومن ثَم تابع ثورندايك:

«إذا افترضنا على سبيل المثال أنه كان فنانَ رسم بالزيت، فهل يمكننا القول بأنه كان مدققًا بشأن صبغات التلوين؟»

كيبس: «نعم، وهذا غير ضروري في رأيي، فأنا فنان أيضًا. ماذا أيضًا؟»

«هل كان يُمسك لوح الألوان بيده اليمنى ويُمسك الفرشاة باليد اليسرى؟»

نهض كيبس من مقعده ولكن ليست وقفة كاملة: «نعم، نعم، وكيف هو شكله؟»

برودريب بصوت خافت: «يا لَلحظ! لم نستطع أن نخرج منه بشيء بعد الجهد الذي بذلناه معه.»

بالتأكيد لم نستطع، تابع قائلًا: «بالنسبة إلى صفاته الجسدية، أظن أنه رجلٌ مائل إلى القصر — حوالي خمس إلى سبع أقدام — وبدين نوعًا ما وبشعر ذي لون فاتح وأصلع قليلًا، وله لحية كبيرة وشعثاء.»

أصيب السيد كيبس بالذهول — وأنا أيضًا بالنسبة إلى هذه المسألة — وخيَّم الصمت بضع لحظات حتى قطعه صوتُ برودريب الكبير الذي جلس يضحك خفية ويفرك يديه. بعد مدة، قال السيد كيبس: «وصفتَه وصفًا دقيقًا، ولكن لم تكن هناك ضرورة لإخبارك بهذا. ما لا أفهمه على الإطلاق هو كيف عرفتَ أنني كنتُ أتحدث عن هذا الرجل بالتحديد، فأنا لم أذكر اسمه. على أية حال، هل لي أن أسأل متى رأيتَه آخر مرة؟»

ثورندايك: «لا يوجد سببٌ يقول إنني رأيته على الإطلاق.» هذه الإجابة جعلت السيد كيبس في حالة ذهول وجعلت صديقنا الكبير برودريب على وشك الإصابة بسكتة. تابع ثورندايك: «هذا الرجل شخصية افتراضية بالكامل ووصفتُه بناءً على آثار معينة تركها خلفه. لديَّ ما يجعلني أظن بأنه غادر برودستيرز في الرابع عشر من أغسطس ولديَّ آراء أكيدة بشأن ما آل إليه أمرُه بعد ذلك. ولكن ستُفيد بضع تفاصيل أخرى؛ ومن ثَم سأستمر في طرح أسئلتي. والآن، أرسل هذا الرجل أمتعته في رحلة منفصلة. وهذا يفترض أنه ربما قصد قطع رحلته إلى لندن. ما قولك في ذلك؟»

كيبس: «لا أعرف، ولكن أظن أن هذا محتمل.»

«أظن أنه قطع رحلته بغرض مقابلة شخص آخر.»

كيبس: «لا يمكنني الجزمُ، ولكن لو قطع رحلته بالفعل، فستكون من أجل هذا الغرض.»

«على افتراض أن المقابلة تمت، فهل كانت مقابلة ودية؟»

«أظن أن الإجابة لا. أشك في أن صديقي ربما وضع اقتراحات معينة وكانت غير مقبولة، ولكن ربما تمكَّن من تنفيذها. غير أن هذا مجرد تخمين.» أضاف العبارة الأخيرة متعجلًا وتابع قائلًا: «في الحقيقة لا أعرف أكثر مما أخبرتُك به باستثناء اسم الرجل، وما كان لي أن أذكره.»

ثورندايك: «الاسم ليس مهمًّا، على الأقل في الوقت الحالي. وإذا وجدت أن معرفته ضرورية، فسأخبرك.»

السيد كيبس: «اممم ... نعم، ولكنك قلتَ إن لديك آراء معينة بشأن ما آل إليه أمرُ هذا الشخص.»

ثورندايك: «نعم، آراء تخمينية، ولكن سأتأكد منها. وإذا تبيَّنت صحتها — أو عدم صحتها — فسأُخبرك في غضون بضعة أيام. هل السيد برودريب معه عنوانك؟»

«نعم، ولكن من الأفضل أن تأخذَه أنت أيضًا.»

أخرج بطاقته ولما فشل في الحصول على أي معلومات أخرى من ثورندايك، عاد أدراجه.

افتُتح الفصل الثالث من هذه الدراما على المشهد نفسه في الفصل الأول؛ ففي صباح الأحد التالي، كنت أنا وصديقي نمشي في طريقنا من بلدة ساندوتش إلى البحر، ولكن لم نكن بمفردنا هذه المرة؛ فقد كان يسير بجانبنا الرائد روبرتسون، مدرب الكلاب المعروف، وكان يُسرع من خلفه واحد من الكلاب البارعة في صيد الثعالب.

وصلنا إلى البقعة نفسها التي بدأنا منها المرة السابقة على الشاطئ، واتجهنا إلى شيلنس ومشينا على الرمال الناعمة وأعيُننا حريصة على التقاط المعالم التي يصعب تمييزها. وبعد فترة، توقف ثورندايك.

قال: «هذا هو المكان. ثَبَّتُّ المكان في عقلي بتلك الشجرة البعيدة، التي تتساوى في ارتفاعها مع المدخنة في ذلك الكوخ في المستنقعات. كانت الملابس في تلك الحفرة بين اثنتين من الكثبان الرملية الكبيرة.»

تقدمنا إلى البقعة ولكن لما كانت الحفرة معلمًا لا فائدة منه، صعد ثورندايك إلى أقرب كثبان رملية وثبَّت عصاه في القمة وربط منديله في مقبض العصا.

قال: «ستمثل العصا المركز الذي نُبقي أعينَنا عليه، وإذا رسمنا سلسلة من الدوائر المتحدة المركز تدريجيًّا حولها، فسنغطي تلك البقعة بكاملها.»

الرائد: «ما المسافة التي تقترح أن نقطعها؟»

ثورندايك: «يجب أن تكون العلامة الاسترشادية لنا هي ظهور تلك البقعة، ولكن الملابسات تقول بأنه إذا كانت هناك جثة مدفونة، فلن تبعد عن المكان الذي وُجدت فيه الملابس بمسافة بعيدة. ومن المؤكد أن المكان سيكون حفرة.»

أومأ الرائد؛ وعندما ربط حبلًا طويلًا في طوق الكلب، بدأنا أولًا في تطويق قاعدة التل الرملي، ثم تتبعنا آثار أقدامنا في الرمال السائبة وبدأنا تدريجيًّا في زيادة المسافة من التل المرتفع الذي كان منديل ثورندايك يرفرف فوقه في النسيم العليل. وبذلك استمررنا في المشي ببطء ولم نرفع أعيننا عن الدائرة التي رسمناها مسبقًا بآثار الأرجل ونشاهد الكلب الذي شمَّ مساحة واسعة بالتأكيد، ولكنه بدا وكأنه مشغول بالبحث عن طريدة أرنب.

مضينا في هذا الطريق نصف ساعة، وبدأ يراودني هل ستبوء تلك المحاولةُ بالفشل أم لا، ولكن حدث تغييرٌ مفاجئ في سلوك الكلب. في اللحظة التي كنا نعبر فيها مجموعةً من الكثبان الرملية المغطاة بالحشائش اليابسة القصبية ونبات القندول القصير، وجدنا أمامنا حفرةً عميقة خالية من الغطاء النباتي وتظهر رمالُها العارية والناعمة وذات اللون

الأصفر المائل إلى الرمادي. وعلى جانب التل، ظلَّ الكلب يشمُّ ولما رفع أنفه بدأ في شم الهواء بتعبير ينمُّ عن الفضول والشك، ومن الواضح أنه ليس سعيًا وراء مطاردة أرنب. وبناءً على ذلك، ترك الرائدُ الحبل واعتمد الكلب على حواسه الخاصة ووضع أنفه على الأرض وبدأ مسرعًا في الاستكشاف ذهابًا وإيابًا، وبدأ في التعرج إلى أسفل التل وأخذت الإثارةُ في التنامي مع مرور كل لحظة. وبهذه الطريقة المتعرجة، بدأ في مسح الحفرة إلى أن وصل إلى بقعة في المنتصف؛ ومن هنا توقف فجأة وبدأ في حفر الرمال بلهفة شديدة.

قال الرائد متعجبًا: «هناك اكتشاف، أنا واثق تمام الثقة!» كانت الدهشة باديةً على عينيه، وفي أثناء حديثه، نزل من فوق التل مهرولًا وتبعتُه أنا وثورندايك، ولما وصلنا إلى السفح، أخرج ثورندايك من «جيب حقيبته» مالج سرخس كبيرًا ذا غمد جلدي. لم يكن الحفر عملية فعالة، ولكنه أخلى الرمل السائب بسرعة أكبر من حفر الكلب.

كانت الأرض سهلة الحفر. بالعمل في البقعة التي حددها الكلب، حفر ثورندايك تجويفًا صغيرًا بسرعة بلغ عمقه حوالي ثماني عشرة بوصة. وفي قعر التجويف غرز الشفرة المدببة للمالج. ثم توقف مؤقتًا وأخذ ينظر إلى الرائد وإليَّ، واشرأبَّت أعناقنا بشغف من فوق الحفرة الصغيرة.

قال: «هناك شيء ما. وأخذ يتحسس يد المالج.»

سحبتُ اليد الخشبية وأخذتُ أدفعها برفق إلى الأعلى والأسفل، وشعرت بوجود مقاومة مؤكدة غير أنها خفيفة نوعًا ما. تأكد الرائد من ملاحظتي؛ ومن ثَم استأنف ثورندايك الحفر وأخذ يوسع الحفرة وبدأ يحفر بحذرٍ أكبر. بعد عشر دقائق من الحفر الحذر، أنتج عن شكل يمكن التعرفُ عليه، كشف عن كتف والجزء العلوي من الذراع وباتباع الحفر، انكشف شكلُ الرأس والأكتاف جليًّا على الرغم من أنه لا يزال مغمورًا في الرمال. وفي النهاية، وباستخدام طرف المالج والمنديل الذي اقترضوه مني، أزيحت الرمال اللاصقة، ومن الحفرة العميقة التي تُشبه القمع، انكشف أمامنا وجهُ رجل مشوَّه وتبدو عليه أغربُ المناظر وأفظعها.

تركت الأسابيعُ التي مرَّت أثرَها في وجه الجثة، ولا أريد التحدث عنها كثيرًا، ولكن استطعنا التعرف على الملامح بسهولة، واستطعتُ من نظرة واحدة أن أعرف بأن أوصاف الرجل تتطابق تمامًا مع ما ذكره ثورندايك. الوجنتان مكتنزتان، والشعر على الصدغين بلونٍ بنِّيٍّ شاحب مائل إلى الأصفر؛ والشارب ذو لون أصفر فاتح ومبعثر الشعرات ويغطي الفم؛ وعندما أُزيحت الرمال بالقدر الكافي، رأيتُ جزءَ صلع صغيرًا يشبه الشعر

المحلوق بالقرب من قمة الرأس، ولكني استطعتُ رؤية ما هو أكثر من ذلك. على الصدغ الأيسر بعد الحاجب مباشرةً، شاهدت جرحًا مهترئًا غير محدد الشكل وكأنه نتيجة لضربة بمطرقة.

أخذ ثورندايك يضغط برفق على الجمجمة حول الجرح وقال: «ما خمَّنتُه من قبلُ بات حقيقة مؤكدة الآن. لا بد أن هذا الجرح قتله في الحال؛ فالجمجمة مهشمة وكأنها قشرة بيض. ولا شك أن هذا هو السلاح.» وأخرج مسمارًا ملولبًا كبيرًا برأس سداسي من الرمال، ثم أضاف: «دُفن مع الجثة بحكمة بالغة. وهذا كل ما يهمُّنا في الحقيقة. سنترك الشرطة تُكمل عملية النبش، ولكنك ترى يا أنستي أن الجثة عارية وليس عليها سوى الصدرية وربما ملابس داخلية. اختفى القميص. وهذا متطابق تمامًا مع ما توقعناه.»

لما شعرنا أننا أنجزنا شيئًا، سلكنا طريقنا مرة أخرى إلى المدينة على مهل، وأخذنا عصا ثورندايك في طريقنا. تركنا الرائد الآن للبحث عن صديق في ملاعب الجولف بالنادي. وبمجرد أن أصبحنا بمفردنا، طلبتُ استجلاء الأمور.

قلتُ: «أرى التوجه العام لعمليات التحقيق التي أجريتَها، ولكن لا يمكنني أن أتخيل كيف أدت إلى كل هذه التفاصيل؛ ومن هذه الأمور الصفات الشخصية للرجل على سبيل المثال.»

ردَّ: «تزامنت الأدلة في هذه القضية مع أدلة ظرفية. اعتمد الأمر على الأثر التراكمي لعدد من الوقائع، كل واقعة ليست حاسمة بمفردها، ولكن الوقائع جميعها تشير إلى النتيجة نفسها. هل سأسرد البيانات بالترتيب وبما يتفق مع عوامل الربط؟»

أجبتُ بالتأكيد على ذلك؛ ومن ثَم تابع قائلًا:

«من الطبيعي أن نبدأ بالواقعة الأولى؛ إذ إنها بالطبع هي الأهم؛ إنها الواقعة التي تأسر الانتباه والتي تقول إن هناك شيئًا بحاجة إلى الشرح وربما تطرح سلسلة من الاستفسارات. تتذكر أني قستُ آثار الأقدام في الرمال لمقارنتها بالآثار الأخرى؛ ومن ثم أصبح لديَّ أبعادُ أقدام السباح الذي افترضناه، ولكن بمجرد أن نظرت إلى الحذاء الذي افترضنا أنه يخصُّ ذلك السباح، شعرتُ أن لديَّ قناعةً بأن هذه الأقدام لا يمكن أن تدخل في هذا الحذاء.

كانت هذه الواقعة مفاجأة — إذا اعتبرناها واقعة — وتقدمت على واقعة أخرى أقل منها ذهولًا، نزل السباح إلى البحر، وليس هناك جدال في أنه خرج من البحر مرة أخرى على مسافة كبيرة. لا يوجد شك في ذلك. وجدت تطابقًا في قياس القدم وطول الخطوة في المسارين، ولم تكن هناك مسارات مشي أخرى. هذا الرجل أتى إلى الشاطئ وظل على

الشاطئ، ولكنه لم يرتدِ ملابسه. لا يمكن أن يكون غادر المكان عاريًا، ولكن من الواضح أنه لم يكن هناك. باعتبارك محاميًا في القضايا الجنائية، فيجب أن تعترف بوجود دليلٍ ظاهري على أن الأمر تحوم حوله شبهاتٌ غير عادية وربما تكون جناية.

في طريقنا إلى استراحة اللاعبين، حملتُ العصا باليد نفسها التي أحمل بها عصاي ولاحظتُ أن عصاي أقصر بقليل؛ وبالتالي كانت العصا لرجل طويل؛ ومن ثَم بات واضحًا أن العصا لا علاقة لها بصاحب الحذاء ولكنها تخصُّ الرجل الذي ترك الآثار. وعندما أتينا إلى استراحة اللاعبين، ظهرتْ واقعة أخرى مذهلة من تلقاء نفسها. تتذكر أن هاليت علَّق على كمية الرمال التي سقطت من الملابس على الطاولة. ذُهلت من أنه لم يلاحظ الخصائص المميزة في تلك الرمال؛ فهي لم تكن تُشبه الرمال التي سقطت من ملابسه البتة. الرمال في الكثبان الرملية كثيبة، أي رمال تحملها الرياح، أو وفقًا للمسمَّى الجغرافي رمال ريحية؛ وهي مميزة للغاية. ولما كانت الرمال محمولة بفعل الرياح، فبالضرورة أن تكون ناعمة. حبيبات الرمال صغيرة، وتتراكم بفعل الرياح؛ وبالتالي تجدها متسقة في حجمها. إضافة إلى ذلك، باستمرار حركة حبيبات الرمال واحتكاكها مع بعضها، تُصبح دائرية بفعل التآكل بالاحتكاك بين بعضها البعض. كذلك تمتاز الرمال الكثيبة بكونها نقيةً نوعًا ما؛ إذ إنها تتكوَّن من حبيبات السيليكا غير المخلوطة بمواد أخرى.

رمال الشاطئ مختلفة تمامًا. تتكون النسبة العظمى من الرمال من السيليكا المكسورة حديثًا وذات نصف تكوين وغالبًا ما تكون خشنة، وكما أشرت في ذلك الوقت، تختلط بها جميع أنواع الأجسام الغريبة المستخرجة من الكتل في المنطقة. هذه الرمال على وجه الخصوص محملة بالجزيئات السوداء والبيضاء، ومعظم الجزيئات البيضاء من الطباشير والجزيئات السوداء من الفحم. الآن، تحتوي الرمال في شيلنس على نسبة ضئيلة من الطباشير ولا توجد أجراف على مسافة قريبة كما أن الطباشير يختفي بسرعة من الرمال بسبب نعومته؛ ولا يوجد فحم.»

سألتُ: «من أين يأتي الفحم؟»

ردَّ قائلًا: «يأتي من جودوينز في المقام الأول. يأتي الفحم من حمولات مناجم الفحم التي يوجد حطامها في تلك الرمال، ومن غرف تخزين الفحم للبواخر المحطمة. يغوص الفحم في الرمال بطول سبعين قدمًا تقريبًا ثم يتراكم في النهاية في القاع حيث ينجرف ببطء عبر قاع البحر نحو الاتجاه الشمالي الغربي إلى أن تجرفه عاصفة شرقية على شاطئ ثانيت بين رامسجيت وفورنيس بوينت. يتراكم معظمه في دامبتون وبرودستيرز، ويمكن أن ترى الفقراء في هذا المكان في الشتاء يجمعون حصى الفحم من أجل إشعال النار.

وبالتأكيد أتت هذه الرمال من ساحل ثانيت، ولكن الرجل المفقود — روسكوف — كان يمكث في بلدة ساندوتش ويلعب الجولف على الكثبان الرملية. كان هذا فرقًا مذهلًا آخر، وهذا ما دفعني إلى فحص الملابس فحصًا شاملًا، قطعة قطعة. فحصتُها وكانت النتيجة كالتالي.

السترة والسروال والجورب والحذاء كانت تخصُّ الرجل القصير البدين، وهذا ما توضحه القياسات كما أن القبعة كانت ملكه لأنها مصنوعة من النسيج نفسه المصنوع منه السترة والسروال.

الصدرية والقميص والملابس الداخلية والعصا كانت تخصُّ رجلًا طويل القامة.

ملابس الرجل القصير وجوربه وحذاؤه كانت محملة برمال الشاطئ من ثانيت ولم تحمل رمالًا كثيبة باستثناء القبعة التي ربما وقعت على الكثبان الرملية.

الصدرية كانت ممتلئةً بالرمال الكثيبة ولم تكن محملة برمال الشاطئ، ووُجدت الرمال الكثيبة في القميص والملابس الداخلية بنسبة ضئيلة. وبذلك يمكننا القول إن ملابس الرجل القصير لم يلتصق بها سوى رمال الشاطئ، وملابس الرجل الطويل لم يلتصق بها سوى الرمال الكثيبة.

ملابس الرجل القصير كلُّها ليس عليها علامات؛ أما ملابس الرجل الطويل فكانت إما عليها علامات أو يمكن التعرف عليها بسهولة، من الصدرية وكذلك العصا.

ملابس الرجل القصير التي وجدناها متروكة هي الملابس التي لم يستطع الرجل الطويل ارتداءَها كي لا يلفتَ الانتباه على الفور ولم يتمكن من ارتداء الحذاء على الإطلاق؛ أما ملابس الرجل القصير التي اختفت — الصدرية والقميص والملابس الداخلية — فهي الملابس التي يمكن ارتداؤها من دون لفت الانتباه. كان التخمين الواضح أن الرجل الطويل غادر المكان بقميص الرجل القصير وصدريته، أما باقي الملابس فكانت ملابسه الخاصة.

نأتي الآن إلى السمات الشخصية للرجل القصير. أخذتُ خمس شعرات من القبعة. كانت جميع الشعرات شقراء اللون، وكانت هناك شعرتان من نوع الشعر القصير والمميز الذي ينمو في منطقة الصلع، وهذه أثارت استغرابي؛ وبالتالي عرفتُ أنه ذو شعر لونه فاتح وأصلع جزئيًّا. في السترة من الداخل، ولما تفحصتُ التويد الخشن، وجدتُ شعرة شارب طويلة ورفيعة وذات لون فاتح، وهذا أوحى بأن الشارب طويل وناعم. حافة طرف الكم الأيسر كانت ملطخةً بكمية كبيرة من دهان الزيت، ولكن تتراكم مادة الرسم هذه عندما تصل يدُ الرسام التي تحمل الفرشاة إلى اللوحة المحملة بألوان الزيت. وكان الاقتراح

هو أن الرجل كان رسامًا بالزيت وأعسر، غير أن هذا الاقتراح لم يكن قاطعًا بالدرجة الكافية، ولكن كان هناك تأكيدٌ قوي. وجدتُ قلم رصاص يستخدمه الفنانون — 3B — وقطعة من فحم العنب مثل التي يمكن أن يحملها الرسام بالزيت. تحولت العملات المعدنية الفضية في جيبه إلى اللون الأسود بفعل الكبريتيد وكأنه كانت معها قطعة من مطاط ناعم معالَج بالكبريت. كذلك وجدنا سكين الجيب. امتاز السكين بنصل حاد لبري القلم الرصاص، ومبرد لفحم العنب ونَصْل عريض من العاج؛ والنصل العريض استخدمه رجل أعسر.»

سألتُ: «كيف توصلتَ إلى هذه الاستنتاجات؟»

ردَّ: «بميل الحواف المتآكلة. في سكين الرسم القديم التي يستخدمها رجل أيمن اليد، يُصبح ميل التآكل في الحافة جهة اليسار من الأسفل وفي الحافة جهة اليمين من الأعلى؛ أما في حالة الرجل الأعسر، يُصبح ميل التآكل في الحافة جهة اليمين من الأسفل وفي الحافة جهة اليسار من الأعلى. ولأن السكين مصنوعٌ من العاج، فقد ظهر التآكل بوضوح شديد وثبت ثبوتًا قاطعًا أن المستخدم كان أعسر؛ ولما كان سكين الرسم المصنوع من العاج لا يستخدمه سوى الرسامين الشديدي التدقيق بشأن صبغات التلوين مثل الكادميوم الذي يمكن أن يبهت لونُه بسبب السكين المعدني، كان هناك ما يبرر الافتراض بأنه كان مدققًا نوعًا ما بشأن صبغات التلوين.»

لما كنتُ أستمع إلى شرح ثورندايك، أُعجبت بشرحه كثيرًا. وفيما يتعلق باستنتاجاته التي بدت وكأنها مجرد تخمينات تأملية، بتُّ أُدرك الآن أنها اعتمدت على تحليل الأدلة بدرجة الحرص والحيادية نفسها المتبعة في تلخيص حيثيات الحكم. كذلك استخلص هذه الاستنتاجات على الفور من الأمور الظاهرية للأشياء التي كانت أمام عيني طوال الوقت ولم أصِل منها إلى شيء.

سألتُ على الفور: «ما تقول فيما تحمله هذه القضية من معانٍ؟ ما الدافع وراء ارتكاب جريمة القتل؟»

ردَّ قائلًا: «لا يسعني سوى التخمين، ولكن بتفسير تلميحات كيبس، أشكُّ في أن صديقنا الفنان كان مبتزًّا؛ ومَن ثَم أتى إلى هنا كي يبتزَّ روسكوف — وربما لم تكن المرة الأولى — وربما استدرج ضحيتَه إلى الكثبان الرملية من أجل محادثة خاصة ثم اتخذ الوسيلة الفعالة فقط كي يخلصَ نفسه ممن يضطهده. هذه وجهة نظري في القضية، ولكن بالطبع هذا مجرد تخمين.»

كان تخمينًا، إلا أنه تبيَّنت صحتُه حرفيًّا. في التحقيق، اضطر كيبس إلى ذكْرِ كلِّ ما يعرفه وكانت معلومات قليلة للغاية، على الرغم من أنه لم يتمكن أحدٌ من الإضافة إليها. لم ينفكَّ الرجل المقتول جوزيف بيرتراند عن روسكوف ومن ثَم حقق لنفسه دخلًا منتظمًا عن طريق ابتزازه. هذا القدر عرفه كيبس، وكان يعرف أن الضحية دخل السجن وهذا هو السر، ولكنه لم يعرف مَن يكون روسكوف وما هو اسمه الحقيقي؛ لأنه من الواضح أن اسمَ روسكوف اسمٌ حركيٌّ؛ ومن ثَم لم يستطع مساعدة الشرطة. اختفى القاتل ولم يكن هناك ما يُشير إلى أي مكان للبحث عنه، وعلى حدِّ علمي، لم يُسمَع عنه أيُّ شيء منذ ذلك الحين.

الفصل الثامن

# شبح في برلينج كورت

نادرًا ما يأخذ ثورندايك إجازة رسمية. يبدو أنه لا يحتاج إلى إجازة. وعلى حدِّ قوله: «تعني الإجازة أن تحلَّ مهنةٌ تقلُّ فيها المتعة محلَّ مهنةٍ أخرى تزيد فيها المتعة. ولا توجد مهنة أكثر إمتاعًا من ممارسة الطب الشرعي.» إضافة إلى ذلك، لا يتأثر عمله بالفترات والعطلات بالقدر الذي يتأثر به عمل المحامي العادي، وغالبًا ما نجده مشغولًا حتى في العطلات الطويلة. حتى في الوقت الذي يبدو فيه وكأنه في عطلة، فغالبًا ما يكون الأمر الظاهري مضللًا، ويتبين بعد ذلك أن اختفاءَه من الأماكن التي اعتاد التردد عليها مرتبطٌ بقضية مهمة وغير عادية ولكن في مكان ناءٍ.

ما حدث أن صديقنا الكبير السيد برودريب الذي يعيش في «لينكون إن» أقنعه بقضاء أسبوعين في سانت ديفيد آت كليف، وهي قرية صغيرة تطلُّ على البحر على ساحل كينتش. وقعت جريمة مسبقًا في هذا المكان، وتبين أنها قضية لافتة للانتباه كثيرًا، على الرغم من أنني رأيتُها مسألة عادية في البداية؛ وفيما يلي ملابسات وقوعها.

في أحد أيام الصيف الحارة بعد الظهيرة، وفي بداية الإجازة الطويلة، نزل المحامي المسن من أجل احتساء كوب من الشاي والدردشة. على الأقل، هذا ما أوضحه بشأن زيارته، ولكن معرفتي بالسيد برودريب جعلتني أشكُّ في أن لديه مأربًا آخر خفيًّا في هذه الدعوة، ولما جلس بجانب النافذة المفتوحة ممسكًا بكوب الشاي متأملًا ورأيت محاميًا يتمتع بمظهر غير مساير للموضة ودمثًا، هذا بجانب بشرته الوردية الناعمة وشعره الأبيض الحريري ومظهره الذي لا تشوبه شائبة، انتظرتُ وأنا أترقب أن يبوح بسبب زيارته. وبعد برهة باح بها.

قال: «نويتُ قضاء عطلة قصيرة في سانت ديفيد. مجرد فترة أسترخي فيها بجانب البحر، كما تعلم. إنه مكان رائع؛ فالمكان يمتاز بالهدوء والراحة والهواء العليل والمنعش. هل سبقتْ لك زيارته؟»

ثورندايك: «لا، فأنا لا أعرف سوى الاسم.»

«لماذا لا تأتيان لقضاء أسبوع أو أكثر؟ تأتيان كلاكما. سأمكث في برلينج كورت، بلد عائلة لوملي. لا يمكنني دعوتُكما لأنني مجرد ضيف، ولكنني أعرف بعض الغرف المريحة في القرية ويمكنني أن أحجز لكما فيها.» وأضاف بعد التوقف لبرهة: «أتمنى أن تأتيَ يا ثورندايك. أنا لستُ سعيدًا بشأن لوملي الصغير؛ فأنا محامي العائلة كما تعرف، ومن قبلي أبي وجدِّي؛ ولذا أشعر وكأن عائلة لوملي أقاربي، ولا ريب أنني أودُّ مشورتك ومساعدتك.»

ثورندايك مقترحًا: «وما يمنع أن أقدِّم المساعدة الآن؟»

ردَّ قائلًا: «سأطلبها منك، ولكن أرغب أن تساعدنا في البلد أيضًا. أود أن تزور لوملي وأن تتحدث معه وتُخبرني ما تقول فيه.»

سأل ثورندايك: «ما خطبُه؟»

برودريب: «يبدو أنه يعاني عدمَ راحة وكأنه مصاب بجنون. إنه يعاني أوهامًا، يرى أشباحًا وأشياء من هذا القبيل. وتوجد حالات إصابة بالجنون في تاريخ العائلة، ولكن من الأفضل أن أعطيَك الوقائع بترتيبها الطبيعي.

منذ ما يقرب من أربعة أشهر، توفي جايلز لوملي، من بلدة برلينج كورت؛ ولما كان أرمل وليس لديه أولاد، انتقلت التركةُ إلى أقرب قريب ذكر، وهو موكلي الحالي السيد فرانك لوملي، وهو المستفيد الأساسي بموجب الوصية. في الوقت الذي توفي فيه جايلز، فرانك كان بالخارج، ولكن ابن عمه لويس برايس يمكث في المنزل مع زوجته باعتباره ضيفًا دائمًا تقريبًا؛ ولما كانت ظروف برايس مزرية ولما كان هو الوريث التالي للتركة، كتب إليه فرانك — إذ إنه أعزب — على الفور كي يُخبرَه أن يعتبر برلينج كورت منزلَه طوال المدة التي يرغب أن يمكث فيها.»

علقتُ: «هذا سخاء منه.»

برودريب متفقًا: «نعم، فرانك شخص كريم؛ رجل نبيل ورفيع الأخلاق وجذاب ولكنه غريب الأطوار قليلًا، وأصبح غريب الأطوار للغاية. عاد فرانك من الخارج وبدأ إقامته في المنزل، وجرت الأمور على ما يرام لفترة من الزمن. وفي أحد الأيام، اتصل بي برايس

وأعطاني بعض الأخبار غير السارة تمامًا. بدا أن فرانك الذي لم تنفكَّ عنه الإصابة بمرض عصبي ومراودة التخيلات له كان يشغل نفسه بقدر كبير من البحوث النفسية، وهراء من هذا النوع. ربما لم يكن هناك ضررٌ كبير من هذا، ولكن في الآونة الأخيرة بدأ يرى أشباحًا، والأسوأ أنه بدأ يتحدث عنها؛ لدرجة أن برايس شعر بالضيق ودعا طبيبًا في الأمراض العقلية إلى الغداء؛ ولما أجرى الاختصاصي محادثة سرية طويلة نوعًا ما مع فرانك، قال برايس: يبدو أن «فرانك» يعاني أوهامًا جنونية. وبناءً على ذلك، اتصل بي برايس كي يترجَّاني حتى أرى فرانك بنفسي وأرى ما ينبغي فعله؛ ومن ثَمَّ رتبتُ زيارة له كي يأتيَ ويراني في المكتب.»

ثورندايك: «وما رأيك فيما حدث له؟»

السيد برودريب: «كنتُ مرعوبًا، مرعوبًا، ولكني أؤكد لك يا ثورندايك بأن هذا الشاب البائس جلس في مكتبي وتحدث وكأنه يعاني جنونًا تامًّا. أتعرف، كان يتحدث بهدوء. لم يظهر منه انفعال على الرغم من ظهور القلق وعدم السعادة على وجهه، ولكنه جلس يتفوَّه بجدية بأغرب هراء يمكن أن تسمعه.»

«مثل ماذا؟»

«مثل الأشياء اللعينة التي يراها. الطيور المضيئة التي تضيء حوله في الظلام، وكذلك الرأس البشري المعلَّق في الهواء مقلوبًا، ولكن من الأفضل أن أُخبرَك قصته حسبما رواها؛ فقد دوَّنتُ ملاحظات سريعة وهو يتحدث، وقد أحضرتُها معي، على الرغم من أنني نادرًا ما أحتاجها.

يبدو أن مشكلته بدأت بعدما رجع وسكن في برلينج كورت بفترةٍ وجيزة، ولأنه شخصٌ محبٌّ للاطلاع، بدأ يتردَّد على المكتبة في أوقاتٍ منتظمة؛ ومن ثَم عكف على كتاب صغير عبارة عن مخطوطة، وتبيَّن أن الكتاب يتناول تاريخ العائلة، أو بالأحرى مجموعة حلقات من تاريخها. بل إنه كتاب صغير صادم؛ فالكتاب في المقام الأول يتحدث عن جرائم وقعت في العائلة، وعن الأشباح وحالات الإصابة بالجنون في العائلة.»

سأله ثورندايك: «هل سبق أن عرفتَ شيئًا عن هذه الموروثات؟»

«لا، كانت هذه المرة الأولى التي أعرف فيها عن هذه الموروثات. علم برايس أن هناك شيئًا من الاعتقاد في الخرافات لدى العائلة، ولكنه لم يعرف ماهيته؛ وعرف جايلز عنه ولكنه لم يأبَهْ به؛ ومن ثَم أخبرني برايس. لم يذكر هذه الأشياء أمامي مطلقًا.»

ثورندايك: «ما طبيعة هذه الموروثات؟»

أخرج برودريب دفتر ملاحظاته وقال: «سأُخبرك؛ فقد دونتُها هنا، كما ذكرها فرانك البائس من دون عناء وكأنه يعرفها عن ظهر قلب. يعود الكتاب لعام ١٨١٩ ولا يخفى أن المؤلف هو وولتر لوملي وتسير مجريات الجريمة والأشباح كما يلي:

في حوالي عام ١٧٢٠، انتقلت الممتلكات إلى جيلبرت لوملي الذي كان يعمل ضابطًا في البحرية، ثم اعتزل البحر وتزوج واستقر في برلينج كورت. بعد عام أو اثنين، نشأت مشكلات بشأن زوجته ورجل يُدعى جلين، يعمل حارسًا في الحي. سواء كان هناك سببٌ أم لا، تملَّكت غيرةٌ مرعبة من لوملي مما دفعه في النهاية إلى استدراج جلين إلى كهف كبير في الأجراف الصخرية وقتله هناك. كانت أبشعَ الجرائم وأشدَّها انتقامًا. كان الكهف يستخدمه المهربون في ذلك الوقت، وكان فيه فتحة بها بكرة لرفع حمولات القوارب؛ وفي هذه البكرة، ربط لوملي جلين من الكاحلين بعدما شدَّ وثاقه ورفعه بحيث أصبح معلقًا وأصبح رأسُه إلى الأسفل وأصبح بينه وبين أرضية الكهف ارتفاع قدم أو ما شابه. تركه معلقًا في الكهف إلى أن غمر مدُّ البحر المرتفع الكهف وأغرقه.

اكتُشفت جريمة القتل في اليوم التالي، ولما كان لوملي هو أقرب قاضٍ للصلح، أبلغه المكتشفون بالجريمة وأخذوه إلى الكهف كي يرى الجثة. عندما دخل إلى الكهف، وجد الجثة لا تزال معلقة على الحال التي تركها عليه وقت أن كان الرجل حيًّا، ووجد خفاشًا يحوم حول رأس الرجل الميت. أمر بإنزال الجثة وحملها إلى منزل جلين واتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل التحقيق. بالطبع اشتبه الجميعُ في أنه القاتل، ولكن الاشتباه افتقر إلى الأدلة التي تُدينه. وبذلك صدر الحكم بتقييد القضية ضد مجهول، ولم يكن لدى جيلبرت لوملي إحساسٌ بالذنب، وبدا أن كل شيء مرَّ كما يريد تمامًا.

ولكنه لم يمرَّ؛ ففي إحدى الليالي بعد مرور شهر من جريمة القتل، دخل جيلبرت إلى مخدعه في الظلام. أخذ يتحسَّس بطول رف الموقد بحثًا عن الولاعة، وعندها أدرك وجود حركة خافتة وخفيفة في الغرفة. أخذ يتجول في الغرفة بسرعة ثم رأى أن هذه الحركة بسبب خفاش — أغرب خفاش غير طبيعي إذ بدا أنه يُصدر ضوءًا يميل إلى اللون الأخضر وكأنه شبح — وأخذ يحوم حول الفراش. لما حدث هذا وتذكر الخفاش في الكهف، اندفع إلى خارج الغرفة وفرائصه ترتعد من الخوف. عاد بعد ذلك مع اثنين من الخدم وشمعتَيْن، ولكنه وجد الخفاش قد اختفى.

منذ ذلك الوقت، أخذ الخفاش المضيء يُطارد جيلبرت؛ إذ كان يظهر في الغرف المظلمة وعلى درج السلم والممرات والردهات، وهذا أتلف أعصابه ولم يجرؤ على التحرك

في المنزل ليلًا من دون شمعة أو مصباح، ولكن لم يكن هذا هو الأسوأ؛ فبعد مرور شهرين بالتمام من جريمة القتل، اتخذت المطاردة مرحلة أخرى. لما دخل إلى غرفة نومه وأوشك على الدخول إلى مخدعه، تذكَّر أنه ترك ساعته في غرفة الملابس الصغيرة المتاخمة لغرفته. أمسك شمعة في يده وذهب إلى غرفة الملابس وركل الباب كي يفتحه. وهنا توقف متخشبًا ووقف وكأنه تحول إلى حجارة؛ فعلى مسافة ياردتين منه، رأى رأس الرجل معلقًا بالمقلوب في الهواء.

وقف لبضع ثوان متصلبًا في مكانه وغير قادر على الحركة. ثم أطلق صرخة تنمُّ عن رعبه ثم انطلق مندفعًا إلى غرفته ومنها إلى الصالة بالطابق الأسفل. لم يشكَّ في أمر صاحب الرأس الغريب والمرعب لأنه رآه من قبل في هذه الوضعية المقلوبة وغير الطبيعية؛ لقد رآه مرتين قبل ذلك معلقًا بتلك الوضعية نفسها في الكهف الكبير. من الواضح أنه لم يتخلص من جلين.

في تلك الليلة، وفي كل ليلة بعد تلك الليلة، كان ينام في غرفة زوجته. وطيلة الليل، يراوده دافعٌ قوي ومخيف يحاول دفعه إلى النهوض والذهاب إلى الشاطئ؛ ومن ثَم يتسلل إلى الكهف الكبير وينتظر تدفق المد. جفاه النوم وهو يجاهد القوة الخفية التي يبدو أنها تجرُّه إلى الهلاك، ولكن هذا الدافع المرعب يبدأ في الانقشاع مع حلول الصباح. تملَّك الرعب منه، ولم يجرؤ على الاقتراب من الشاطئ وبات يخاف من أن يثق في قواه بمفرده.

بعد مرور شهر، أخذ تأثيرُ الأشباح يضعف مع مرور الأيام، وحمته كثرةُ الأضواء في المنزل من أن يزوره الخفاش. وبعد جريمة القتل بثلاثة أشهر بالتمام، رأى الرأس مرة أخرى. رآه هذه المرة في المكتبة حينما ذهب لإحضار كتاب. كان يقف بجانب رفوف الكتب وأخذ مجلدًا، ولما انصرف رأى شيئًا شديد القبح معلقًا بوضعية مرعبة ومروعة، كان الذقن إلى الأعلى والشعر الخفيف يتدلَّى وكأنه أهداب مبتلة. أسقط جيلبرت الكتاب الذي كان يُمسكه من يده وهرب من الغرفة وهو يصرخ، ولم يفارقه إحساسُ الأيدي الخفية التي تشدُّه وتسحبه إلى مكان يتردد فيه صدى الموج في الكهف.

هذه المرة أثَّرت فيه تأثيرًا بالغًا؛ فهو لم يستطع أن يتخلص من هذا الدافع المشئوم بأن يذهب إلى الشاطئ. فقدَ الرجل حماسه وبات ضحيةً لرعب لا يفارقه؛ إذ أصبح يتشبث بالحماية من الخدم أنفسهم ويزحف على أطرافه المرتعدة مُيمِّمًا بصرَه تجاه البحر. لم يخرج من أذنيه هديرُ الأمواج والأصداء الخافتة في الكهف.

أصبح يسعى إلى النسيان بالانكفاء على الخمور، ولكنها لم تَعُد تُجدي نفعًا. هذا دفعه إلى تعاطي الأفيون. في كل ليلةٍ قبل الذهاب إلى الفراش الذي يُصيبه بالرعب، كان

يمزج اللودانيوم بالخمر وهذا يُشعره بحالة سُكر مخدر إن لم يشعره بأنه في مكان آخر. بدأ الخمر والأفيون يظهر تأثيرُهما في ارتعاش يديه وتورم وجنتيه واحمرار عينيه. مر شهر آخر على ذلك.

لما اقترب الشهر الرابع من الانقضاء، أسكنه رعبُه من زيارة ضيفه المعتاد الذي بات يتوقعه في حالة من الانهيار العقلي التام. بات النوم — حتى النوم بسبب حالة الخدر — أمرًا محالًا في تلك الليلة؛ ومن ثَم قرر الجلوس مع عائلته على أمل أن يجد وسيلةً للهروب من زائره المرعب. ولكن الأمل تلاشى. أخذت الساعات تمر واحدة تلو الأخرى وهو جالس على كرسيه المزود بمسندٍ للذراعين بالقرب من المدفأة، وكانت زوجته تغفو على الكرسي المقابل له، حتى دقت الساعة الثانية عشرة في الصالة. استمع إلى دقات الجرس وعدَّها، واضطجع بظهره وأغمض عينيه. مرَّ نصف هذه الليلة المرهقة. لما صدر آخر صوتٍ لدقة الساعة وخيَّم الصمت العميق على المنزل، فتح عينيه، ونظر في وجه جلين على مسافة بضع بوصات من وجهه.

جلس لبعض الوقت مشدوهًا واتسعت حدقة عينه وأخذ يحملق مرعوبًا إلى هذا الشيء المرعب من دون أن يتفوَّه ببنت شفة؛ ثم أصدر صرخةً مدوية وانزلق من الكرسي ليصبح أشبه بكومةٍ على الأرض.

في ظهيرة اليوم التالي، فُقد ولم يكن في المنزل. بحثوا عنه في الحديقة وفي الجوار، ولكنهم لم يجدوه في أي مكان. وفي النهاية، تذكَّر أحدُهم الكهف الذي كان يتحدث عنه في تمتماته الغريبة ومن ثَم توجهت مجموعةٌ من الباحثين إلى الكهف. عثروا عليه في الكهف عندما انحسر المد، وجدوه ممددًا على الرمال الرطبة والنباتات البحرية المتشابكة ذات اللون البنِّيِّ ملتفة حول أطرافه وزجاجة اللودانيوم — التي امتلأت بمياه البحر — بجانبه.

بموت جيلبرت لوملي، بدا وكأن روح الرجل المقتول أصبحت راضية. وطوال حياة توماس ابن جيلبرت، لم تظهر أيُّ علامة للراحل جلين، ولكن بموته ليعقبَه ولده آرثر — الذي كان رجلًا في منتصف العمر وقتئذٍ — بدأت الزيارات من جديد وبالترتيب نفسه. في نهاية الشهر الأول، ظهر الخفاش المضيء؛ وفي نهاية الشهر الثاني، بدأ الرأس المقلوب في الظهور، ثم ظهر مرة أخرى في الشهرين الثالث والرابع؛ وفي غضون أربع وعشرين ساعة من الزيارة الأخيرة، وُجدت جثة آرثر لوملي في الكهف. وهكذا دواليك منذ ذلك التاريخ. جيل يمرُّ من اللعنة بسلام، ولكن الجيل التالي يطلب جلين والبحر حقهما فيه.»

ثورندايك: «على حدِّ علمك، هل هذا صحيح؟»

برودريب: «لا أستطيع الجزم. ما أفعله هو الاقتباس من الكتاب الصغير اللعين الذي كتبه وولتر لوملي، ولكن في الحقيقة تذكرت أن والد جايلز مات غريقًا. فهمت أن القارب انقلب به، ولكن قد تكون هذه القصة مجرد تغطية على ارتكاب الانتحار.

الآن، بتَّ تعرف تاريخ الموت والرعب من الكتاب الذي وجده فرانك البائس من سوء حظه. وكما تعرف فهو اطلع على ما فيه عن ظهر قلب، ومن الواضح أنه قرأه مرارًا وتكرارًا. أسرد الآن قصتَه هو التي رواها لي بهدوء تامٍّ غير أن الحديث ينمُّ عن اقتناع شديد ونذير شؤم واضح وضوح الشمس.

وجد هذا الكتاب اللعين بعد وصوله إلى برلينج كورت بعدة أيام؛ ومن ثَم عرف أنه هو الضحية التالية إذا كانت هذه القصة حقيقية، والسبب أن سلفه جايلز لم تمسَّه اللعنة. وهذا ما حدث بالفعل. بعد شهر بالتمام من وصوله، وهو ذاهب إلى غرفة نومه في الظلام — ولا شك في أنه كان يتوقع ظهور الشبح — وبمجرد أن فتح الباب، رأى شيئًا وكأنه دودة متوهجة كبيرة أو يراعة كبيرة ترفرف في أرجاء الغرفة. لا بد أنه انزعج للغاية؛ ولذا اندفع إلى الطابق السفلي في حالة من الهياج الشديد وأحضر برايس كي يرى الشبح. على الرغم من أن ما يلي قد لا يوحي باستغراب شديد؛ ولكن الغريب في الأمر أنه على الرغم من أن هذا الشيء لا يزال يرفرف في أرجاء الغرفة، إلا أن برايس لم يستطع أن يرى شيئًا، ولكنه رفع الستارة — وكانت النافذة مفتوحة — وانسلَّ الخفاش خارجًا واختفى.

في خلال الشهر التالي، ظهر الخفاش عدة مرات في غرفة النوم وفي الردهات ومرة في العلِّيَّة وطار بالخارج عندما فتح فرانك الباب.»

ثورندايك: «ما الذي كان يفعله فرانك في العلِّيَّة؟»

«صعِد إلى العلِّيَّة كي يُحضر مقعدًا صغيرًا رأته زوجة برايس وأخبرته عنه. هذا ما جرى حتى نهاية الشهر الثاني. ثم حان وقت الفعل التالي. يبدو أنه انتابتْه حماقةٌ ودخل إلى غرفة النوم التي كان يستخدمها جيلبرت. وبمجرد أن صعد إلى الغرفة في تلك الليلة، لا بد أنه مرَّ بغرفة الملابس الصغيرة التي تُعرف الآن بمقصورة جيلبرت — وهو من أخبرني بهذا الاسم لأنني لم أكن أعرفه — وهي الغرفة التي يُحفظ فيها السيف المقوس والتليسكوب والربعية وجهاز الملاحة القديم الخاص بجيلبرت.»

ثورندايك: «هل أخذ معه مصباحًا؟»

«أظن لا، يوجد موقد غاز في الردهة وأظن أنه أضاءه. بعد ذلك، فتح المقصورة؛ ورأى من فوره على بُعد خطوات منه رأسَ رجلٍ مقلوبًا ومن الواضح أنه معلقٌ في الهواء.

انتابتْه صدمةٌ مروعة — ربما كان السبب أنه لم يكن متوقعًا إياه توقعًا تامًّا — ومن ثَم جرى إلى الطابق السفلي كما فعل من قبل وهو يرتجف. خلد برايس إلى النوم ولكن زوجته صعدت معه، وحاول أن يُرِيَها الشيء المروع المعلق في وسط الغرفة المظلمة.

لكن زوجة برايس لم ترَ شيئًا. طمأنتْه أن هذه كلَّها مجردُ أوهام؛ وحتى تُثبت له، دخلت إلى الغرفة ومرت بالرأس مباشرةً — حسبما يرى — ولما عثرتْ على أعواد الثقاب أشعلت المصباح الغاز. بالطبع لم يكن هناك أيُّ شيء في الغرفة.

مر شهر آخر. ظهر الخفاش على فترات مما تسبب في استمرار شد أعصاب فرانك البائس. وفي ليلة اليوم الموعود، وكما ستتوقع، ذهب فرانك مرة أخرى إلى مقصورة جيلبرت، واستدرجه إلى هناك عامل الجذب الذي لا يخفى على أحد. وبالطبع، تشوش عقله مثلما حدث من قبل. وقع هذا الحادث منذ أسبوعين؛ وبالتالي فالمسألة تحتاج إلى تدخُّلٍ عاجل كما ترى. إما أنه يوجد بعض الصدق في هذه القصة الغريبة — التي لم أصدقها للحظة — أو أن فرانك الكبير البائس بحاجةٍ إلى الحجر في مصحة عقلية، ولكن في أي حالة، لا بد من فعل شيء.»

ثورندايك: «تحدَّثتَ منذ قليل عن حالات جنون في العائلة. كم عدد تلك الحالات، بغض النظر عن هذه الأشباح؟»

«أقدَم ابنُ عم فرانك على الانتحار في إحدى المصحات العقلية.»

«وماذا عن والدَي فرانك؟»

«كانَا بكامل قواهما العقلية. ابن عمه كان ابنَ أخت أم فرانك؛ وكانت بصحةٍ جيدةٍ أيضًا؛ ولكن والد الصبي دخل إلى مستشفى الأمراض العقلية.»

ثورندايك: «إذن، يبدو أن الجنون لم يُصِب عائلة فرانك على الإطلاق، بالمعنى الطبي. الميراث الشرعي ووراثة العوامل النفسية لا يلتقيان على خطٍّ واحد. إذا تزوجت أختُ الأم من رجلٍ مخبول، فيمكن أن يرث سمةَ الخبل هذه، ولكنه لا يرث الجنون من أبيه. لا يوجد قرابة دم.»

برودريب معترفًا: «نعم لا يوجد قرابة دم، على الرغم من أن فرانك بالتأكيد يبدو أنه مجنون تمامًا. لنَعُد الآن إلى السؤال بشأن الإجازة، ما رأيك في المكوث لأسبوعٍ أو أكثر في سانت ديفيد؟»

نظر إليَّ ثورندايك متسائلًا: «ما قول صديقي المثقف؟»

رددتُ: «أرى أن نأخذ عطلةً ونترك بولتون في مهمته.» وهنا وافق ثورندايك من دون أن يقول شيئًا.

بعد مرور أقل من أسبوع، نزلنا في مسكن مريح للغاية وجده برودريب من أجلنا في قرية سانت ديفيد؛ تبلغ المسافة من المسكن إلى الشاطئ خمس دقائق مشيًا من نفق شديد الانحدار. بدأ ثورندايك الإجازة بحماسةٍ تُذهل المقيمين في كينج بنش ووك. استكشف القرية وألقى نظرةً فاحصة على الكنيسة من الداخل والخارج، وعايَن جميع مسارات السير على الأقدام باستخدام خرائط هيئة المساحة، كما اجتمع مع الصيادين على الشاطئ وجدَّد معرفته بصنعة القوارب؛ ومن ثَم توجَّه تلقاء الكهف الكبير التاريخي — بلغ طوله أقل من ميلٍ بطول الشاطئ — وتفحَّص ظُلمته وبرودته من الداخل وهو يتملَّكه حبُّ استطلاع عجيب.

لم نكن قد قضينا في سانت ديفيد أربعًا وعشرين ساعة قبل أن نتعرف على فرانك لوملي. حرص السيد برودريب على ذلك. المحامي المسنُّ انتابه قلقٌ شديد على موكله — وأخذ مسئولياته على محمل الجد، هكذا كان السيد برودريب. كان يتعامل مع موكليه من «العائلة» وكأنهم أقرباؤه، ومع مصالحهم كأنها مصالحه الشخصية — وثقته في حنكة ثورندايك لا حدود لها. أُعجبنا من أعماقنا بالشاب الهادئ والمهذب غير أنه هزيلُ الجسم؛ وفيما يخصُّ رأيي في مسألة الاختلال العقلي المؤكد لديه، فقد وجدته شخصًا عقلانيًّا وذكيًّا على نحوٍ فريد وبعيدًا عن الأوهام، أو بالأحرى الهلوسات، فقد بدا بكامل قواه العقلية؛ الاهتمام الحثيث إلى حدٍّ ما بالظواهر النفسية والخارقة للطبيعة (التي لا يُخفيها) تكاد لا تكفي لأن تُثير الشكوك حول السلامة العقلية للمرء.

ومع ذلك لم يَخفَ الاضطرابُ في حالته العقلية. إنه يُدرك أن الأشباح ربما تنتج عن اضطراب عقلي، على الرغم من أنه لم يكن يراها كذلك؛ ومن ثَم ناقش المسألة معنا بأسلوبٍ منفتح وصريح للغاية.

ثورندايك مقترحًا: «ألَا تظنُّ أن تلك الأشباح ربما يكون ظهورُها أمرًا طبيعيًّا وأنت أسأتَ التقدير أو هوَّلت من الأمر نتيجةً للاطلاع على هذه القصة المحشوة بالاستدلالات؟»

هزَّ لوملي رأسه بإشارة التأكيد. قال: «هذا مستحيل؟ كيف يكون ذلك مني؟ لنأخذ حالة الخفاش. لقد رأيتُه عدة مرات رأْيَ العين. لا شك في أنه خفاش، ولكنه يظهر بأضواء مائلة إلى اللون الأخضر وكأنه شبحٌ مثل الأضواء التي تبثُّها اليراعة. فإن لم يكن خفاشًا، فماذا يكون؟ ثم ظهر الرأس. لقد رأيتُه بأمِّ عيني وكدتُ ألمسه وأتحقَّق منه، شاهدتُه معلقًا في الهواء على مسافة ثلاث أو أربع أقدام مني. كنت سألمسه إذا واتَتْني الجرأة.»

ثورندايك: «ما الحجم الذي ظهر به؟»

فكَّر لوملي. «لم يكن بالحجم الطبيعي. يمكن القول بأن الحجم يبلغ ثلثَي حجم رأس الإنسان العادي.»

«هل تتعرَّف على الوجه إذا رأيتَه مرة أخرى؟»

لوملي: «لا أستطيع الجزم؛ فقد ظهر مقلوبًا كما تعلم. لم أسجل في ذهني صورة شديدة الوضوح له، أعني أنني قد لا أتعرف على الوجه إذا كان الرأس بالوضعية الطبيعية.»

سأل ثورندايك: «هل كان الظلام دامسًا في الغرفة في المرتَيْن؟»

«أجل، ظلام دامس؛ فموقد الغاز في الردهة يعلو الباب مباشرة ولا يدخل أيُّ ضوءٍ إلى الغرفة.»

«وما الذي يوجد في الجهة المقابلة للباب؟»

«نافذة صغيرة ولكن عادةً ما تُترَك مقفلةً هذه الأيام. وأسفل النافذة، توجد تسريحة صغيرة قابلة للطي تخصُّ جيلبرت لوملي. أحضرها عندما عاد إلى المنزل من البحر.»

بذلك وجدنا إجابات لوملي واضحةً ومتسقةً تمامًا. لم يُبرهن أسلوبُه على أيِّ ضربٍ من الجنون، ولكن المسألة نفسها غير طبيعية. كذلك ليس لديه أدنى شك في حقيقة الأشباح، ولم توجد أدنى درجات التفاوت في وصفه لظهورها. وحقيقة عدم ظهورها لكل من برايس وزوجته فسرها بأن اللعنة لا تصيب سوى الذرية التي تنحدر من جيلبرت لوملي مباشرةً، وتُصيب جيلًا وتترك آخر بالتناوب.

بعد إحدى المحادثات التي أجريناها، أبدى ثورندايك رغبتَه في الاطلاع على المخطوطة الصغيرة التي سبَّبت كلَّ هذه المشكلات، أو على الأقل التي أنذرت بحدوثها، ووعدنا لوملي بإحضارها إلى مسكننا بعد الظهيرة في اليوم التالي، ولكن انقطعت الإجازة لسبب لم نتوقعه البتة؛ وصل تلغراف عاجل من أحد أصدقائنا المحامين يطلب استشارة في قضية مهمة ومستعصية وقعت بين يديه، وألحَّ علينا في الذهاب إلى المدينة في أول قطار في الصباح التالي.

أرسلنا خطابًا إلى برودريب كي نُخبرَه أننا سنغيب عن سانت ديفيد ربما لمدة يوم أو يومين، ولكنه قابلَنا في طريقنا إلى المحطة.

قال: «لعله لم يُصبْكَ كدرٌ بسبب قطع الإجازة، ولكن أرجو أن تعود قبل يوم الخميس.»

ثورندايك: «لماذا الخميس بالتحديد؟»

«لأن الخميس هو اليوم الموعود الذي سيظهر فيه هذا الرأس اللعين للمرة الثالثة. سيكون يومًا عصيبًا. فرانك لم يذكر شيئًا، ولكني أعرف أن أعصابه تالفة لدرجة تُقضُّ مضجعَه.»

ثورندايك: «يجب أن تراقبَه، لا تجعله يغيب عن ناظرَيك إذا استطعت.»

برودريب: «هذا مفهوم تمامًا، ولكنه ليس طفلًا، ولستُ وصيًّا عليه. فهو صاحب المنزل وأنا مجرد ضيف عنده. فلن أستطيع أن أتبعه إذا أراد الاختلاء بنفسه.»

ثورندايك معقبًا: «يجب أن تتخلى عن هذه الآداب يا برودريب. سيكون الوقت عصيبًا ويجب ألَّا تغفلَ عنه.»

برودريب خجلًا: «سأبذل قصارى جهدي، ولكن أرجو أن تعود قبل ذلك الوقت.»

صحبنا إلى الرصيف والاكتئابُ بادٍ على وجهه، وانتظر معنا إلى أن وصل القطار. وفجأة، ونحن في طريقنا للدخول إلى العربة، أدخل يده في جيبه.

قال متعجبًا: «ليسامحني الله! أوشكتُ أن أنسى هذا الكتاب. طلب مني فرانك أن أعطيَه لك.» لما كان يتحدث، أخرج مجلدًا صغيرًا بغلاف من الجلد وكان عليه صدأ وسلَّمه إلى ثورندايك. قال: «يمكنك الاطلاعُ عليه في وقت فراغك. وإذا كنتَ تعتقد أنه لا بد من رمي هذا الشيء اللعين من النافذة، فافعل ذلك. أظن أنه من الأفضل لفرانك البائس ألا يطلعَ على ما فيه على الدوام كما يفعل.»

أعتقد أن رأي برودريب فيه قدرٌ كبير من المنطقية. أظن أن التخيلات التي يراها لوملي ناتجة عن قراءة هذه القصة، وبالتأكيد سيتعزز هذا الاقتراح بالاطلاع عليها مرارًا وتكرارًا، ولكن اقتراح المحامي الكبير لم يكن عمليًّا.

بمجرد أن بدأ القطار يأخذ سرعته، بدأ ثورندايك في تصفُّح هذا المجلد الصغير، ولمحتُ في أسلوبه تميزًا واضحًا. الشخص العادي كان سيفتح الكتاب ويتصفح المحتويات، ربما سيبحث على الفور عن التاريخ المشئوم لجيلبرت لوملي.

ولكن ثورندايك لم يفعل ذلك. بدأ يطلع من بداية الكتاب وتقدَّم بشكل منهجي في التعامل مع كل واقعة تناولها الكتاب. بدايةً أجرى فحصًا شاملًا للغلاف؛ بمعنى أنه أمعن النظر في الزوايا وتفحَّص الحواف السفلية وقارنها بالحواف العلوية؛ وكذلك قارن الجزء العلوي من كعب الكتاب بالجزء السفلي منه. بعد ذلك أخرج عدسته وفحص طريقة كتابة الحروف على الغلاف التي كانت بسيطة ومكتوبة بطريقة «غير مدمغة» (أي غير مذهبة). فحص أيضًا طرفَي استدارة ظهر الكتاب باستخدام العدسة، ثم حوَّل انتباهه إلى الجزء

الداخلي للكتاب. أمعن النظر في كلٍّ من الورقتين الأولى والأخيرة، وفتح الأقسام وفحص خيط الحياكة ورفع الورق في الضوء وفحص الورق بالنظر واللمس وشاهد الكتابة في عدة أماكن من الكتاب باستخدام عدسته. وفي النهاية سلَّمني الكتاب والعدسة من دون تعليق.

كان مجلدًا قديمًا وصغيرًا وكأنه مخطوطة قديمة مثيرة للفضول، على الرغم من أنه لم يمرَّ على تأليفه أكثرُ من قرن. كان الغلاف من الجلد البنيِّ بلون الصدأ وبه كشطٌ في أجزاء كثيرة إلا أن حالته لم تكن سيئة، ولكن من المحتمل أنه تناوله عددٌ قليل نسبيًّا. كان الورق ذا خطوط مائية تبرز عليه خطوطُ السلك ولكن من دون علامة مائية؛ تغيَّر لون الورق بمرور الزمن وتحول إلى لون جلد الجاموس؛ بهتت الكتابة وأصبحت باللون البنيِّ المحروق، ولكنها كانت سهلة القراءة وواضحة ومكتوبة بخط واضح. بملاحظة هذه النقاط، قلبتُ في الصفحات حتى أتيتُ على قصة جيلبرت لوملي مع جلين ذي الطالع السيئ وقرأت هذه القصة منتبهًا ووعيتُ أن ملاحظات السيد برودريب سردت مضمون القصة كاملة من دون نقصان.

لما سلَّمتُ الكتاب إلى ثورندايك مرة أخرى، قلت: «أظن أن هذه القصة غير حقيقية وأنا غير مقتنع بها. فلا أحد يعلم مصدر معلومات وولتر لوملي.»

ثورندايك: «أوافقك الرأي، إنها محمولة على الخيال. يتحدث الراوي بأسلوب الروائي الذي لديه معرفة كاملة بالأحداث والمجريات التي لا شك أنها لم تكن معروفة إلا للشخصيات.»

«هل تظن أن وولتر لوملي ربما لم يفعل شيئًا سوى أن نسج رواية؟»

ردَّ: «هذا مرجَّح في رأيي، وفي الواقع ربما كانت الرواية كلها نسجًا من الخيال. سنتناقش في هذا السؤال فيما بعد. أما في الوقت الحالي، أحسب أنه من الأفضل أن نُوليَ اهتمامنا للقضية التي بين أيدينا الآن.»

وُضع المجلد الصغير جانبًا، ودار حديثُنا طوال الرحلة حول مسألة الاستشارة التي توليناها في عملنا في الوقت الحالي، ولكن لما كانت هذه المسألة لا علاقة لها بالقصة التي نسردها، فلا أريد الخوض فيها أكثر من ذِكْر أنها شغلت كلينا لمدة ثلاثة أيام وانتهينا منها في مساء اليوم الثالث.

لما عُدْنا إلى منازلنا، سألتُ: «هل تقترح أن نزور سانت ديفيد الليلة أم غدًا؟»

ثورندايك: «الليلة، إنه يوم الخميس، ولا بد أن برودريب قلقٌ بشأن عودتنا في أي وقت اليوم. أرسلتُ له تلغرافًا أُخبره أننا سننزل بالقطار الذي يصل حوالي الساعة العاشرة. وإذا كان يريد مقابلتنا، فيمكنه مقابلتُنا في المحطة أو إرسال رسالة لنا.»

قلت: «إنني أتساءل هل شبح رأس جلين سيكرر زيارته المتوقعة الليلة أم لا.»

ثورندايك: «ربما إذا سُنحت الفرصة، ولكنني أرجو أن يتمكن برودريب من مَنْع حدوث هذه الزيارة. وبالحديث عن لوملي، وبما أننا لسنا مشغولين لمدة ساعة، يمكننا الانتهاء من فحص كتابه. قصصتُ طرفَ ورقة وأعطيتها إلى بولتون كي يغليَها في صودا كاوية مخففة. ستصبح جاهزة للاختبار الآن.»

قلت: «أنت لا تشك في أن الكتاب تعرض للتزييف، أليس كذلك؟»

فتح ثورندايك الدرج وأخرج مجلدًا صغيرًا، وقال: «إن الشك يعتريني من أعماقي بشأن هذا الكتاب. فقط انظر إليه يا جيرفيس. انظر إلى الغلاف على سبيل المثال.»

قلبت الكتاب في يدي وقلت: «يبدو أن الغلاف عتيق بالنسبة إليَّ، قديم جدًّا، جلدٌ بنيُّ اللون يُشبه الصدأ ومضى عليه قرنٌ من الزمان.»

قال: «أوه، لا شك أن الجلد قديم، إنه من نوع الجلود التي ربما قُطعت من غلاف قديم بمقاس ربع أو نصف فرخ، ولكن ألَا ترى أن علامات البلى هذه كلها في الأماكن الخطأ؟ كيف تبلى هذه الأجزاء عمليًّا؟ بدايةً توجد الحواف السفلية التي تحتك مع الرف. ثم الزوايا وهي أرق جزء في الجلد وأكثرها تعرضًا للبلى. ثم الكعب العلوي الذي يعلق فيه الإصبع عند سحب الكتاب من على الرف. ثم شريط التقوية أو رباط المفصلة، الذي يبلى بسبب تكرار الفتح والقفل. الجوانب هي أقل الأجزاء تعرضًا للتهالك. أما في هذا الكتاب، فالحواف السفلية والكعب العلوي وشريط التقوية كلها بحالة جيدة. فنسبة البلى فيها أقل من الجوانب، كما أن طريقة الكتابة بأشكال حروف حديثة. يبدو أن الكتاب لم يمرَّ عليه وقت طويل وعلامات طباعة الحروف تجدها فوق الأجزاء التي أصابها البلى بدلًا من أن تتعرض هي نفسها للبلى. وهذه الأمور الظاهرة تقول لي إن الكتاب جُمع حديثًا ولكن وُضع له غلاف من جلد قديم.

انظر كذلك إلى الورق. إنه يُوهمك بأن اللون بُهت بعامل الزمن، ولكن تبهت ألوانُ الأوراق في الكتاب القديم من الحواف أولًا لأن الورق يتأكسد بتعرضه للهواء. أما أوراق هذا الكتاب فقد بُهت لونها جميعًا بدرجة واحدة. وأقول إن السبب في هذا غمسها في الشاي الخفيف وليس بسبب مرور الزمن عليها.

ثم توجد الكتابة. يوحي مظهرُها أنها بُهتت بسبب أنها مكتوبة بحبر قديم مصنوع من كبريتات الحديد وعفص البلوط، ولكن لا يبدو أن هذا هو اللون المناسب تمامًا. ومع ذلك، يمكننا اختبارُه بسهولة. إذا كان الحبر من العفص والحديد، فستحوله نقطةٌ من كبريتات الأمونيوم إلى اللون الأسود. لنأخذ الكتاب إلى المختبر ونجرِّب ذلك، ومن الأفضل أن يكون لدينا «وسيلة تحكم» للمقارنة.»

مرَّر عينيه على رفوف الكتب وأنزل مجلدًا بجلد يُشبه لون الصدأ وهي رواية «همفري كلنكر»، تضمنت الورقة الأخيرة من المجلد العديدَ من التوقيعات البنيَّة التي بهت لونُها.

قال: «هذا التوقيع يعود إلى عام ١٨٠٣. هذا التاريخ قريب جدًّا.» وأخذ الكتابين في يده وصعد إلى المختبر. وفي المختبر، أخذ زجاجة كبريتات الأمونيوم وسكب قدرًا ضئيلًا من السائل في أنبوب زجاجي رقيق، وفتح غلاف كتاب «همفري كلنكر»، وأسقط قطرة صغيرة على الرقم ٣ من التاريخ. بدأ اللون البنيُّ الباهت في التحول إلى اللون الأسود على الفور إلى أن أصبح أسودَ كالفحم في النهاية. وبالطريقة نفسها، فتح الكتاب الذي كتبه وولتر لوملي وعلى الرقم ٩ من التاريخ ١٨١٩ أسقط قطرةً من المحلول، ولكن في هذه المرة لم يتحول الخطُّ ذو اللون البنيِّ الباهت إلى اللون الأسود؛ بل على النقيض من ذلك، اختفى سريعًا وتحول إلى اللون البنفسجي الباهت والفاتح.

ثورندايك: «الحبر ليس مصنوعًا من الحديد، وأشك في أنه بنيٌّ مستخلص من الأنيلين، ولكن لنتعرف على المادة التي صُنع منها الورق. هل غُليت القصاصة يا بولتون؟»

أجاب المساعد في المختبر: «نعم يا سيدي، وغسلتُ عنها الصودا؛ وبالتالي كل شيء جاهز.»

أخرج أنبوب اختبار عليه لاصقة ويحتوي على قصاصة صغيرة من الورق تطفو في المياه، ثم سكبها بحذر في غطاء ساعة زجاجي كبير. ومن غطاء الساعة، نقلَ ثورندايك القصاصة الصغيرة ذات القوام العجيني إلى شريحة مجهر، ثم قطعها إلى الألياف التي تتشكل منها باستخدام زوجٍ من الإبر المركبة. ثم أسقط عليها قطرةً من سائل الأنيلين ثم أزال الأجزاء الزائدة باستخدام ورقة ماصة، وأضاف قطرة من الجليسرين ووضع عليها شريحة تغطية زجاجية كبيرة.

ناولني الشريحة وقال: «ها هو يا جيرفيس، لنسمع رأيك في ورق وولتر لوملي.»

وضعتُ الشريحة على منصة المجهر وشرعتُ في فحص العينة. ولم يلزم إجراء فحص شامل. المسألة انحلت من النظرة الأولى.

قلت: «الورق مصنوع كلُّه من الخشب تقريبًا. ألياف خشب محضرة ميكانيكيًّا، مع بعض الحَلْفاء وقليل من القطن وبعض ألياف اللينين.»

ثورندايك: «إذن، فالورق حديث. في عام ١٨٤٠، استُخدم للمرة الأولى لبُّ الخشب المحضر ميكانيكيًّا والمعالج بطريقة كيلر في صناعة الورق. ثم ظهر لبُّ الخشب المحضر كيميائيًّا؛ ولم تُستخدم الحَلفاء حتى عام ١٨٦٠؛ وبالتالي يمكننا الجزمُ بأن هذا الورق لم يُصنع إلا بعد التاريخ المدوَّن على الكتاب بما يزيد على عشرين عامًا. ربما كانت حديثةَ الصنع.»

قلت: «في هذه الحالة، الكتاب مزيف — وربما تم تزويرُه.»

«نعم، إنه مزيف بالفعل.»

«ولكن يبدو أن الأمر ينطوي على مؤامرة.»

ثورندايك: «نعم بالفعل، خاصة إذا اعتبرنا أن له صلةً بالأشباح. وفي رأيي أن الكتاب كُتب بهدف تحفيز حالة عقلية مواتية لقبول المظاهر الخارقة للطبيعة. والاستنتاج الواضح أن تلك الأشباح نفسها كانت عبارة عن خدعة لحبك أغراض التضليل، ولكن حان وقتُ ذهابنا.»

تصافحنا مع بولتون وجمعنا حقائب أمتعتنا من غرفة الضيوف وانطلقنا إلى المحطة.

في طريق رحلتنا، فكرتُ في المنعطف الجديد الذي اتخذته قضية فرانك لوملي. من الواضح أن برودريب أخطأ في الحكم على موكله. لم يكن لوملي بهذا الجنون حسبما افترض المحامي المسن. فلم يكن سوى شخص ساذج سريع التأثر؛ فالهلوسات كانت ظاهرةً حقيقية أساء تفسيرها ببساطة، ولكن من الذي وراء هذه الخدع المخزية؟ وما الدافع من هذا كلِّه؟ حاولتُ فتح السؤال مع ثورندايك؛ ولكن على الرغم من أنه رغب في مناقشة هذه المخطوطة المخزية وأسلوب كتابتها، لم يُردِ الخوض في المسألة أكثر من ذلك.

عندما وصلنا إلى سانت ديفيد، نظر ثورندايك على الرصيف يمينًا وشمالًا وبالقرب من المحطة. قال: «لا توجد أيُّ علامة من برودريب أو مرسال منه؛ وبالتالي يمكن افتراض أن كلَّ شيء على ما يرام في برلينج كورت حتى هذه اللحظة. وإني آمل أن وجود برودريب تسبَّب في منع ظهور الأشباح.»

على الرغم من ذلك، بدا على وجهه عدمُ الارتياح. وفي أثناء العشاء، بدا عليه الأرق وانشغال البال، وبعدما تناولنا الطعام، اقترح أن ننزل إلى الشاطئ؛ ومن ثَم ترك رسالةً مع صاحبة المنزل بشأن المكان الذي سيوجد فيه إذا أراد أحدٌ معرفته.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة إلا الربع عندما وصلنا إلى الشاطئ، وكان المدُّ بدأ في الانحسار. لم نجد أحدًا على الشاطئ باستثناء اثنين من الصيادين؛ إذ يبدو أنهما أتيَا مع المدِّ ووجدناهما عاكفَيْن على تأمين القارب في الليل قبل الذهاب إلى منزليهما. اقترب ثورندايك منهما وخاطب الصياد الكبير قائلًا: «هذا قارب كبير وقوي. وسريع أيضًا، أليس كذلك؟»

ردَّ عليه الصياد: «بلى يا سيدي، إنه سريع ويجاري الريح. إننا نطلق عليه اسم «جالي بنط». صُمِّم في ديل لاستخدامه في نقل حطام الحظائر الخشبية — إنقاذ الممتلكات التالفة كما تعلم يا سيدي — ولكن لم تَعُد الحظائر الخشبية موجودة هذه الأيام.»

ثورندايك: «هل ستخرج غدًا؟»

«لا على حدِّ علمي يا سيدي. هل كنتَ تفكر في رحلة صيد قصيرة؟»

ثورندايك: «إذا لم يكن لديك أشغال، فإني أرغب في استئجار القارب غدًا. أنا لا أعلم متى سأبدأ رحلتي، ولكن إذا تأهبت للإبحار بمجرد أن آتي، فيمكننا أن نحسب وقت الانتظار ضمن زمن الإبحار.»

قال الصياد: «هذا حسن يا سيدي، القارب تحت تصرفك بدءًا من اليوم وحتى الغد. إذا أردتَ المجيء إلى هنا بعد السادسة أو قبلها، ستجدني وزميلي على أهبة الاستعداد ومعنا الطُّعم والقارب جاهز للإبحار.»

ثورندايك: «يعجبني هذا كثيرًا.» بات برنامج الغد محددًا بذلك، وحيَّينا الصيادين بتحية المساء ومشينا ببطء إلى المسكن حيث خلدنا إلى النوم بعد تدخين الغليون الأخير.

في الصباح التالي، كدنا ننتهي من طعام الإفطار الذي كنا نتناوله على مهل، ورأينا من النافذة السيد برودريب وهو يهرول في الشارع باتجاهنا. أسرعتُ وفتحت الباب ولما دخل أخذته إلى غرفة الضيوف. ومن أسلوبه القلق والمضطرب، كان واضحًا أن هناك سوءًا في الأمر، وكلماته الأولى أكدت هذا الانطباع المنذر بالسوء.

قال: «أخشى أننا في ورطة يا ثورندايك. فرانك غير موجود.»

ثورندايك: «منذ متى؟»

«منذ الساعة الثامنة هذا الصباح. إنه ليس في أيِّ مكان في المنزل ولم يتناول الإفطار.»

سأل ثورندايك: «متى كانت آخر مرة شوهد فيها؟ وأين؟»

«حوالي الساعة الثامنة، في غرفة تناول الإفطار. من الواضح أنه ذهب إلى هناك من أجل أن «يودع» أسرة برايس؛ فقد ذهبوا في زيارة اليوم إلى فولكستون وتناولوا الإفطار

في الصباح الباكر كي يلحقوا بقطار الساعة الثامنة والنصف، ولكنه لم يتناول الإفطار معهم. ما فعله هو الذهاب إلى هناك وتمنى قضاء رحلة سعيدة، ويبدو أنه خرج للتنزُّه سيرًا في الحديقة. عندما نزلتُ من أجل الإفطار في الساعة الثامنة والنصف، وجدتُ أن أسرة برايس ذهبت وفرانك لم يدخل. دقت الخادمة الجرس ولما بقي فرانك من دون أن يظهر، خرجَت إلى الحديقة بحثًا عنه؛ ثم خرجتُ بنفسي، ولكنه لم يكن في الحديقة ولم يكن في أي مكان بالمنزل. لا بد أنه وقع في مشكلة. فعادته أنه لا يتأخر عن موعد تناول الطعام. ما الذي تفضِّل أن نفعله يا ثورندايك؟»

نظر زميلي في ساعته ورن الجرس.

قال: «أظن يا برودريب أننا يجب أن نتصرف بناءً على الاحتمالات الظاهرة وأن نحتاط لأكبر خطر معلوم لدينا.» خاطب السيدة روبنسون صاحبة المنزل التي أجابت على الجرس بنفسها وقال: «هلا أحضرتِ لنا إبريقًا من القهوة المركزة الآن؟»

سمحت السيدة روبنسون وذهبت كي تُحضر القهوة، وأخرج ثورندايك من الدولاب دورق تخلية كبير.

السيد برودريب: «أنا لا أفهم ما تفعله تمامًا يا ثورندايك. ماذا تقصد بالاحتمالات والخطر؟»

«أقصد أنه حتى هذه اللحظة، كرَّر فرانك لوملي في تجاربه وأفعاله تجاربَ وأفعال جيلبرت لوملي بحذافيرها حسبما ورد في رواية وولتر لوملي. والاحتمال الغالب هو أنه سيستمر في محاكاة قصة جيلبرت حتى النهاية. ربما رأى الشبح للمرة الثالثة الليلة الماضية، وهو الآن يتهيأ للمشهد الأخير.»

برودريب لاهثًا: «اللطف يا رب! كم أنا أحمق! هل تعني الكهف؟ ولكن لا يمكننا الوصول إلى هناك الآن. سترتفع المياه في غضون ساعة وسنجد أنها غطت الشاطئ في سانت ديفيد هيد. إلا لو استطعنا الحصول على قارب.» قالها واليأس يملؤه.

ثورندايك: «لدينا القارب. استأجرت واحدًا الليلة الماضية.»

برودريب متعجبًا: «الشكر لك يا رب! ولكنك دائمًا تفكر في كل شيء، على الرغم من أنني لم أعرف سبب طلب القهوة.»

لما سكب ثورندايك القهوة التي أحضرتْها صاحبة المنزل لتوها في دورق التخلية، قال: «قد لا نحتاج إليها على الإطلاق، ولكن قد نحتاج إليها لسبب أو لآخر.»

وضع الدورق في حقيبة يد، ورأيت فيها حقيبة طوارئ صغيرة، ثم التفت إلى برودريب.

قال: «من الأفضل أن ننزل إلى الشاطئ الآن.»

لما ظهرنا من نهاية النفق، رأينا صديقَينا اللذين تقابلنا معهما الليلة الماضية وقد وضعَا خطًّا مزدوجًا من الألواح الخشبية عبر الشاطئ من القارب إلى حافة المد؛ والسبب أنه يصعب كثيرًا جرُّ قارب جالي بنط — مع الصابورة — على الحصباء. كانَا يضعان آخر لوح عند وصولنا إلى القارب، ولما أبصرانا، أتيَا إلينا مهرولين مع ستة من رجالهم.

أخذ القبطان يرمق السيد برودريب بنظرة يعتريها الشكُّ، كان شفير حافة القارب يعلو عن الشاطئ بمقدار أربع أقدام، قال: «اصعدوا على متن القارب أيها السادة، سنُبحر في غضون لحظات.»

صعدنا إلى القارب ثم رفعنا السيد برودريب بعدنا. كان الصاري الطويل مرفوعًا بالفعل — في مقابل معقد التجديف الأوسط بشكله الغريب لقارب جالي بنط — وكان الشراع مربوطًا في الحلقة المتحركة وخطاف حبل الشراع جاهزًا للرفع. اجتمعت مجموعة رجال القارب وأخذ كلٌّ واحدٍ موقعه على شفير حافة القارب أو على أحد الثقوب. أعطى القبطان إشارة الانطلاق بالصوت «يو-هو!» انضمَّ زملاؤه بصيحة تفاعلية وقفزوا قفزة رجل واحد. تقدم القارب وأخذ يطوي الطريق وينزلق بسرعة على الألواح المدهونة بالشحم باتجاه حافة الأمواج. ثم ارتطمت مقدمة القارب بماء البحر؛ وقفز القبطان وزميله من فوق الرافدة، وامتد الشراع الطويل على الصاري وامتلأ بالهواء وأنزل القبطان الدفة إلى حلقة السحب وأمسك بذراع الدفة.

سأل: «هل تريد الذهاب إلى مكان على وجه التحديد؟»

ثورندايك: «نريد التوجه إلى الكهف الكبير بالقرب من سانت ديفيد هيد ونريد الوصول إلى هناك قبل ارتفاع المياه بوقت كافٍ.»

القبطان: «سنصل إلى هناك في الوقت المناسب يا سيدي مع هذه الرياح. لا تتعدى المسافة أكثر من ميل ولدينا ساعة إلا ربع حتى ترتفع المياه.»

أنزل الشراع الأساسي وأنزل الدفة ووجه القارب باتجاه موازٍ للساحل. طوى القارب المياه في هدوء ولكن بسرعة؛ وفي غضون ربع ساعة تقريبًا، طوينا الرءوس البحرية واحدًا تلو الأخرى إلى أن رأينا رأس سانت ديفيد البحري والشكل الأسود المنذر بالشؤم للكهف على مرأًى منا من على مقدمة القارب. وبعد فترة وجيزة، بُسط الشراع وتسلم الطاقم وأنا وثورندايك المجاديف وأخذنا نجدف باتجاه الشاطئ جاعلين الكهف نصبَ أعيننا.

لما رسا القارب على الشاطئ، قفزتُ أنا وثورندايك وبرودريب وأسرعنا عبر الرمال والحصى متجهين إلى الكهف المظلم والحفرة البغيضة في الجرف الأبيض. في البداية ولما

غبنا عن ضوء الشمس الساطع، حسبنا أننا دخلنا في ظلام دامس، وتلمسنا طريقنا محاولين تفادي أكوام الأعشاب البحرية المتشابكة والزلقة المتناثرة على الأرض. تأقلمتْ أعيننُا على الضوء الخافت واستطعنا أن نمشيَ بطول الممرِّ الضيقِ الذي يُشبه النفق وذي السقف المسنن الأخضر اللزج الذي أوشك أن يتحول إلى اللون الأسود بمرور الزمن. أصبح السقف مرتفعًا لما وصلنا إلى النهاية، واستطعتُ أن أرى هناك أجسام الخفافيش الصغيرة المظلمة وهي معلقة في السقف ومتشبثة في الحائط، ورأيت خفاشًا أو خفاشَين يرفرفان من دون أن يُرَوا ومن دون إحداث صوت مثل الفراشات الكبيرة في تجويف القبو العلوي. ولم تكن الخفافيش هي مَن شغلت انتباهي. فعلى مسافة بعيدة وفي الطرف البعيد، استطعتُ أن أميز صورة رجل منبطح يرقد من دون حَراك فوق رقعة من الرمال الناعمة؛ مظهر مروع يوحي بأنه النهاية المأساوية المتوقعة لما جرى في ظلمة الكهف وبرودته القارسة وأشكال الأشباح من الخفافيش التي سبقت تلك الأحداث.

برودريب لاهثًا: «يا إلهي! لقد فات الأوان!» اندفع إلى المكان الخرب وانطلقتُ أنا وثورندايك في عقبه. بالطبع كان الرجل فرانك لوملي، وبنظرة إليه اعترانا شيءٌ من الأمل. وجدناه مستلقيًا بوضعية مريحة مغمض العين إلا أن النفس لم ينقطع، على الرغم من ضعفه وبطئه. رأينا زجاجة صغيرة بجانبه على الرمال وبجانبها سدادة من الفلين. رفعتُ الزجاجة وقرأت اللاصقة وكان المكتوب «اللودانيوم: سم» واسم تاجر الأدوية المحلي وعنوانه، ولكن الزجاجة كانت فارغة وليس بها سوى بضع قطرات، وتأكد المدوَّن على اللاصقة بالشكل الخارجي للزجاجة ورائحتها.

نظر ثورندايك إلى الزجاجة وهو يفحص أعين الرجل الغائب عن الوعي بمصباحٍ كهربائيٍّ صغير.

قال: «أصبحنا نعرف الأسوأ. هذه قنينة بسعة وحدتَي درام؛ وبالتالي فلو أخذ الجرعة فلن تُصبح الحالة ميئوسًا منها.»

فتح حقيبة اليد وهو يتحدث، وأخذ منها صندوقَ الطوارئ وأخرج منه محقنة للحقن تحت الجلد وزجاجة صغيرة من محلول الأتروبين. شمرتُ كُم لوملي لما مُلئت المحقنة بالمحلول ثم حقنه ثورندايك.

قلت: «أظن أنه تسمم بالأفيون.»

ثورندايك: «نعم، حدقة العين مثل رأس الدبوس، ولكن النبض ليس سيئًا للغاية. أعتقد أنه يمكننا نقله إلى القارب.»

بناءً على ذلك، رفعناه وسنده برودريب من قدميه؛ نقلناه من الكهف والأسى يملأ قلوبنا. كانت أمواج البحر تتلاطم مع الشاطئ من عند المدخل وتتخلل الأعشاب البحرية؛ وأصبحت مقدمة القارب داخل الكهف بعد ارتفاع المد. لما ظهرنا، كان الصيادان يُثبتان القارب في مكانه وأشارَا لنا بالتحية، وحملَا الرجل وقد ملأهما التعجبُ والذهول، ولكنهما لم يُلقيَا أية أسئلة، ولم يفعلَا شيئًا سوى أن أخذَا الرجل الفاقد للوعي منا ووضعاه برفق داخل الحاجز في مؤخرة القارب.

قال القبطان متعجبًا: «لماذا، هذا السيد لوملي!»

أعطى ثورندايك بعضَ عبارات التفسير قائلًا: «نعم، وإني آملُ أن تُبقوا هذه المسألة في طي الكتمان.»

وافق الرجلان من قلبَيهما، ولما دُفع القارب وأُنزل الشراع، سأل القبطان: «هل نعود إلى حيث كنا مباشرة يا سيدي؟»

ثورندايك: «نعم، ولكننا لن نرسوَ على الشاطئ. قف قبالة النفق.»

نتيجة للحركة، بدأت وطأة الخدر للمريض تخف. اتخذ ثورندايك إجراءات محددة لإفاقته، وظل يهزُّه برفق ولم ينفكَّ عن تغيير وضعيته. والآن، أخذ لوملي نفسًا عميقًا متنهدًا، وفتح عينيه للحظة. ثم أجلسه ثورندايك، وأخرج إبريق التخلية وجعله يبتلع ملعقة صغيرة من القهوة. استمر هذا الإجراء لمدة تزيد على الساعة وظل القارب يرتفع وينزل مع الموج قبالة مكان الإرساء على مسافة نصف ميل من الشاطئ. ظل المريض يغطُّ في سبات عميق، وما كان منا إلا أن نجعله يفيق ونعطيه رشفة من القهوة.

بعد فترة، استعاد وعيه حتى إنه استطاع الجلوس — ولكنه كان يترنح من جانب إلى آخر مع ميل القارب — ويُجيب بصوت متكاسل عن الأسئلة المطروحة عليه بصوت عالٍ في أذنه. بعد ربع ساعة، ومع استمرار تحسُّن حالته، أمر ثورندايك القبطان أن يتحرك بالقارب إلى مكان الإرساء.

قال: «أعتقد أنه يمكنه المشي الآن، والحركة ستُعيد إليه الوعي بالكامل.»

رسا القارب على الشاطئ وساعدنا لوملي على النزول من القارب؛ وعلى الرغم من أنه كان يترنح في البداية وكأنه سيسقط، إلا أنه بعد بضع خطوات تمكَّن من المشي بثقة أكبر، وكنتُ أنا وثورندايك نسنده من الجانبين. المجهود الذي بُذل للمرور من النفق المنحدر زاد في إنعاشه؛ وبعد لحظات وصلنا إلى بوابة برلينج كورت — بعد نصف ميل عبر الحقول — ومن ثَم أصبح قادرًا على الوقوف بمفرده.

حتى لما وصل إلى المنزل، لم تكن الراحة مكتوبةً له؛ فقد كانت نبرتُه جادة وهو يطلب منا ألَّا نزعجَه. أصرَّ ثورندايك في البداية على تناول وجبة خفيفة، ثم بدأ يطرح عليه أسئلة بشأن الأحداث في الليلة السابقة.

قال: «أظن يا لوملي أنك رأيتَ شبح رأس جلين، هل أنا محق؟»

«نعم، بعدما أوصلني السيد برودريب إلى مخدعي، نهضتُ وذهبت إلى مقصورة جيلبرت. أحسستُ أن شيئًا يسحبني إلى هناك. وبمجرد أن فتحتُ الباب، رأيت رأسًا معلقًا في الهواء على مسافة ثلاث أقدام مني. ثم عرفتُ أن جلين كان يناديني، ثم ... أنت تعرف الباقي.»

ثورندايك: «أعرف، ولكني أريدك أن تأتيَ معي الآن إلى مقصورة جيلبرت وتريني بالضبط المكان الذي وقفتَ فيه والمكان الذي تدلَّى منه الرأس.»

تردَّد لوملي كثيرًا وحاول تأجيل توضيح الأماكن، ولكن لم يستمع ثورندايك إلى أي رفض، ونهض لوملي في نهاية الأمر متوجسًا وقاد معذِّبه إلى السلم ثم تبعتُه أنا وبرودريب.

ذهبنا أولًا إلى غرفة نوم لوملي ومنها إلى الردهة التي تفتح فيها بعض غرف النوم الأخرى. كان الضوء في الردهة خافتًا؛ إذ لم نجد سوى نافذة واحدة مفتوحة، وعندما أسدل ثورندايك الستارةَ السميكة عليها، كاد المكان يُظلِم تمامًا، أصبح المكان مظلمًا تقريبًا. في نهاية الردهة، يوجد باب «المقصورة» الصغير والضيق، وكان يعلوه رفٌّ عليه لمبة غاز. أنار ثورندايك لمبة الغاز وفتح الباب ورأينا الغرفة في ظلام دامس، كانت النافذة الوحيدة في الغرفة مغلقة والستائر قد بُسطت عليها. أشعل ثورندايك عودَ كبريت وأضاء مصباح الغاز ونظرنا في الغرفة الصغيرة والفضول يعتري عقولنا.

كانت أشبه بشقة صغيرة تعجُّ بالأشياء الغريبة؛ فالأثاث العتيق ومحتويات الغرفة أعطياها لمسة من الطراز القديم. احتوت الغرفة على شماعة قديمة ومزواة ربعية ومنظار معلق على الحائط، وساعة كبيرة بزجاج منتفخ ومنقوش عليها «توماس تومبيون، لونديني فيسيت»، وموضوعة على وسادة مخملية صغيرة في وسط تسريحة صغيرة مصنوعة من خشب الماهوجني وذات لون أسود، وزوج من كراسي كرومويليان أمام الجدار. نظر ثورندايك إلى التسريحة والفضول يعتريه؛ إذ كانت مرفوعةً على كتل خشبية، وشرح لوملي قائلًا: «كانت هذه تسريحة جيلبرت. صُنعت له بالخارج.»

ثورندايك: «صحيح، إذن، كان جيلبرت رجلًا مسايرًا للموضة. لم يكن الأثاث المصنوع من خشب الماهوجني منتشرًا قبل ١٧٢٠. لنُلقِ نظرة على المحتويات داخل الغرفة.»

رفع الساعة ووضعها على كرسي ورفع غطاء التسريحة مما كشف عن حوض غسيل صغير وإبريق صغير وقصير وبعض تجهيزات الحمامات. كان غطاءُ التسريحة مرفوعًا بدعامة نحاسية وكان عليه مرآة كبيرة للتزين محاطة بإطار بارز.

قلت: «إني أتساءل عن سبب رفع الطاولة على تلك الكتل.»

ثورندايك: «من الواضح أن السبب هو جعل المرآة بمستوى الرؤية للشخص الواقف أمامها.»

الإجابة ألهمت برودريب بفكرة. قال: «أظن أن الصورة التي رأيتَها في المِرآة لم تكن صورتك يا فرانك.»

لوملي: «كيف ذلك؟ رأيتُ الرأس مقلوبًا كما أنه كان على مقربة مني.»

لما ابتعد برودريب عن التسريحة وأخذ ساعة ملاح قديمة، قال: «هذا صحيح، هذه ساعة قديمة وغريبة.»

لوملي: «نعم، ولكنها صُنعت بطريقة جميلة. دعْني أُرِكَ مكوناتها الداخلية.»

فكَّ الإطار الخارجي وفتح الإطار الداخلي، وأرى برودريب وأراني الصنعة المتقنة للمكونات الداخلية، ولكن ظل ثورندايك ينظر إلى التركيبات الداخلية للتسريحة. وفجأة قال صديقي: «اخرجوا أنتم الثلاثة وأغلقوا الباب. أريد أن أُجريَ تجربة.»

أطعناه نحن الثلاثة وأغلقنا الباب، وانتظرنا في الردهة مترقبين. خرج ثورندايك بعد دقيقتين وقبل أن يُغلق الباب لاحظتُ أن الظلمة خيمت على الغرفة الصغيرة. مشى باتجاهنا في الردهة ثم توقف وقال:

«الآن، أريدك يا لوملي أن تدخل إلى المقصورة وتُخبرني ماذا رأيت.»

بدا التردد قليلًا على وجه لوملي بشأن دخول الغرفة بمفرده، ولكنه في النهاية مشى باتجاه المقصورة وفتح الباب. أطلق صرخةَ رعب من فوره وأغلق الباب وجرى نحونا وهو مرتعد الفرائص ومضطرب وعيناه مفتوحتان عن آخرهما.

قال متعجبًا: «إن الرأس موجودٌ الآن. رأيتُه رأْيَ العين.»

ثورندايك: «جميل جدًّا، اذهب أنت الآن يا برودريب وانظر.»

لم يُبدِ السيد برودريب الرغبة في ذلك. كان الذعر باديًا عليه وتقدم إلى الباب وفتحه وهو يرتجف. ثم أصدر صيحة مدوية وأغلق الباب بعنف وعاد مهرولًا، وتوقف الدم في عروقه مما أدى إلى تغيُّر لون بشرته.

قال وهو يصيح: «مرعب! مرعب! ما هذا العمل الشيطاني يا ثورندايك؟»

ومضَ اشتباهٌ مفاجئ في عقلي. تقدمت ولففت مقبض الباب وفتحته. وعندئذٍ لم أتفاجأ بالفزع الذي أصاب برودريب. على مسافة ياردة من وجهي، رأيتُ الرأس المقلوب كالشمس في وضح النهار وهو يتدلى في وسط تلك الغرفة اللعينة. بالطبع كنتُ متهيئًا لهذا المنظر؛ ومن ثَم تعرفتُ على ماهية الرأس من نظرة واحدة؛ بحيث تعرفتُ على ملامح وجهي التي تغيرت إلى منظرٍ غريب ومروع بسبب الوضعية المقلوبة، ولكن بالرغم من أنني تعرفت عليها، فقد كان الشكل مروعًا وغريبًا.

ثورندايك: «الآن، لندخل ونحل اللغز. قف على عتبة الباب يا جيرفيس حتى أوضح الأمر.»

أخرج ورقةً بيضاء من جيبه ولما بسطها، أدخل صديقَينا إلى الغرفة.

أمسك الورقة مفرودة بمستوى العين، وقال: «أولًا: ترى على هذه الورقة صورةً لرأس الدكتور جيرفيس وهو مقلوب.»

برودريب: «إذن، توجد صورة وكأنها مصباح سحري.»

ثورندايك متفقًا معه: «بالضبط، وبالطبيعة نفسها تمامًا. لنرَ الآن كيف ظهرت الصورة.»

أشعل عودَ كبريت وأضاء مصباح الغاز؛ ومن ثَم تحوَّلتْ أعينُنا جميعًا إلى التسريحة المفتوحة.

برودريب: «ولكننا لا نرى الصورة التي رأيناها لتوِّنا.»

ثورندايك: «كلَّا، يمكن عكسُ الإطار عن طريق مفصلة انزلاق وأنا لففتها. في الجانب الأول، يوجد زجاج المرآة المسطح العادي الذي رأيتَه من قبل؛ وعلى الجانب الآخر توجد مرآة حلاقة مقعرة. تلاحظ أنه إذا وقفتَ بالقرب من المرآة، فسترى وجهك بالوضعية الطبيعية وبصورة مكبرة؛ أما إذا رجعت إلى الباب، فسترى رأسك مقلوبًا وبحجمٍ أصغر.»

لوملي معترضًا: «ولكني رأيتُ الرأس مجسمًا ويبدو لي حقيقيًّا في الغرفة.»

«هكذا كان، ولا يزال، ولكن تأثير الصورة الواقعية يتلاشى مع حقيقة أنه يمكنك رؤية إطار المرآة وهو يحيط بالصورة؛ ولذلك يبدو الرأس وكأنه بداخل المرآة، ولكن في الظلام، لا يمكنك أن ترى سوى الصورة. لم تكن المِرآة مرئية.»

فكَّر برودريب في هذا الشرح. قال: «أظن أنني لا أفهم شيئًا الآن.»

أخرج ثورندايك قلمَ رصاص من جيبه وبدأ في رسم شكل على الورقة التي لا يزال ممسكًا بها.

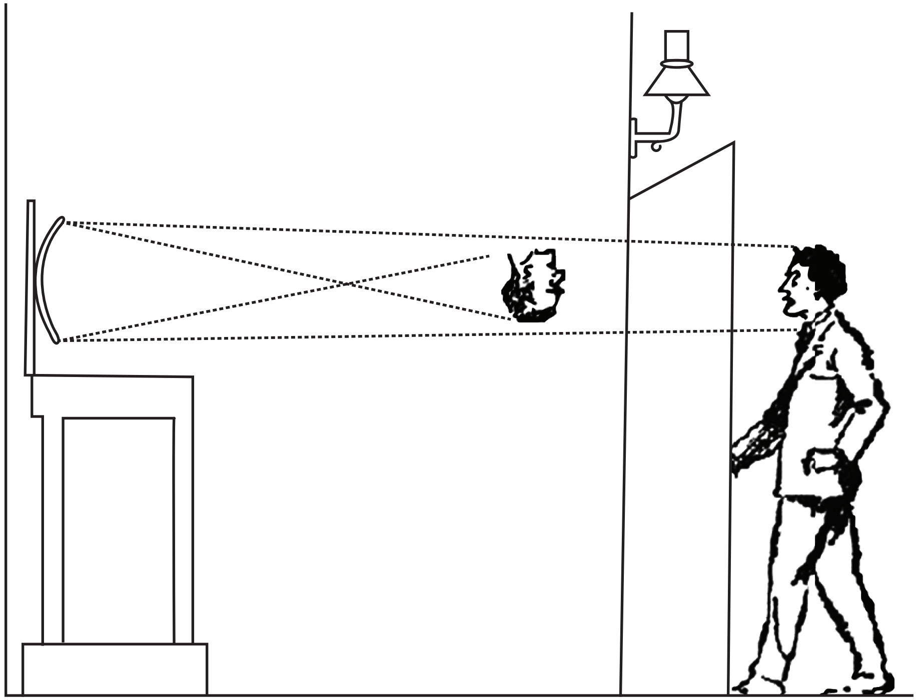

شبح برلينج كورت.

شرح قائلًا: «الشكل الذي تراه في زجاج المرآة العادي هو ما يسمَّى ب «الصورة الافتراضية». تبدو وكأنها خلف المرآة، ولكنها ليست خلفها بالطبع. إنها خدعة بصرية، ولكن تُقلب الصورة الحقيقية التي تكون أمام المرآة المقعرة مثل الصورة التي ترى في العين السحرية أو عدسة الكاميرا. هذا الشكل سيوضح المسألة. هنا، يقف لوملي عند باب الغرفة المفتوح. ترى صورته جيدًا بفضل مصباح الغاز أعلى الباب (الذي لا يُدخل أيَّ ضوء إلى الغرفة على الرغم من وجوده)، وينعكس بالمرآة بصورة واضحة؛ ومن ثَم ترى فيها الصورة المقلوبة الساطعة. وبما أن الغرفة مظلمة والمرآة غير مرئية، فهو لا يرى سوى الصورة التي تُشبه مجسمًا حقيقيًّا متدليًا في الهواء، وهو كذلك في الحقيقة.»

سأل لوملي: «ولكن لماذا لا أرى سوى الرأس؟»

«لأن الرأس يشغل المرآة بالكامل. وإذا كانت المرآةُ كبيرة الحجم، كنت سترى صورة الجسم بالكامل.»

فكَّر لوملي لدقيقة. بعد فترة قال: «يبدو أن هذا الأمر سبق الترتيب له.»

ثورندايك: «بالطبع سبق الترتيب له، بل سبق الترتيب بدهاء بالغ. لنذهبِ الآن ونرَ إن كان سبق الترتيب لشيء آخر أم لا. أين هي غرفة السيد برايس؟»

لوملي: «له ثلاث غرف تفتح على تلك الردهة.» وقادنا إلى باب في نهاية الردهة، وحاول ثورندايك فتحه ولكنه كان مقفلًا.

قال: «إنها علبة تحتوي على أدوات تسليك الغليون.» وأخرج من جيبه أداة مخصصة لهذا الغرض، ولكنها توحي وكأنها أداة لفتح الأقفال من دون مفاتيح. على أية حال، بعد محاولة أو اثنتين — إذ شاهدهما السيد برودريب والامتنان بادٍ في ابتسامته — رجع المزلاج وفُتح الباب.

دخلنا وبدا أنها غرفة نوم وجال فيها ثورندايك بعينيه سريعًا ثم سأل: «فيمَ تُستخدم الغرفتان الأخريان؟»

لوملي: «أظن أنه يستخدمهما لإصلاح الأشياء فيهما، ولكن لا أعرف ما الذي يفعله فيهما بالفعل. الغرف الثلاث متصلة ببعضها.»

تقدمنا إلى الباب الموصل بين الغرفتين ولما وجدناه مقفلًا، تقدمنا إلى الغرفة التالية. وفي تلك الغرفة وعلى طاولة كبيرة بالقرب من النافذة، وجدنا ركامًا من مختلف الأدوات والأجهزة المبعثرة.

سأل برودريب: «ما هذا الشيء الملحق به براغي خشبية؟»

ثورندايك: «مكبس خياطة يستخدَم في تجليد الكتب. كما توجد صناديق من أدوات وضع اللمسات النهائية. لنطلع عليها.»

رفع الصناديق واحدًا تلو الآخر وتفحص أطراف الأدوات؛ طوابع نحاسية لطبع الزخارف على أغلفة الكتب. رفع اثنتين من تلك الطوابع وكانت عبارة عن ورقة وزهرة. ثم أخرج من جيب معطفه الكتاب الصغيرة ووضعه على الطاولة والتقط من على الأرض قصاصة جلد صغيرة. وضع هذه القصاصة أيضًا على الطاولة وطبع الشكلين مما ترك أثرًا واضحًا للورقة والزهرة. وفي النهاية وضع قصاصة الجلد على الكتاب؛ ومن ثَم بات واضحًا أن الورقة والزهرة نُسَخٌ مطابقة للأوراق والزهور التي تشكِّل الزخارف على جلد الكتاب.

لوملي: «هذا لافت للانتباه، يبدو أن الأشكال متشابهة تمامًا.»

ثورندايك: «إنها متطابقة، وأنا أؤكد أن طريقة الكتابة على ذلك الكتاب طُبعت بتلك الأدوات، وأن الورق حيك على تلك الطابعة.»

لوملي نافيًا: «ولكن الكتاب عمره مئات السنين.»

هزَّ ثورندايك رأسه قائلًا: «الجلد قديم، ولكن الكتاب جديد. اختبرنا الورق ووجدناه حديث الصنع، ولكن لنعرف الآن ما الذي يوجد في هذا الدولاب الصغير. وجدنا فيه بعض زجاجات.»

مرَّر عينيه على الرفوف المزدحمة بالزجاجات والجرار الممتلئة بالورنيش والطلاء المحضر بزلال البيض والزيت والإسمنت والمواد الأخرى.

أنزل زجاجة صغيرة بها مسحوقٌ بلون غامق، وقال: «ها هو مسحوق الأنيلين البني. وربما هذا ما أنتج الكتابة القديمة الباهتة، ولكن هذا مضيء أكثر، وهذا له أكثر من مدلول.» أخذ زجاجة بفتحة عريضة مكتوب عليها «طلاء راديوم لعقارب الساعات وأشكال الحروف المضيئة.»

برودريب متعجبًا: «ها! اكتشاف مضيء، كما قلت.»

أخذ ثورندايك يجول بعينيه في الغرفة باهتمام شديد وقال: «وبذلك يبدو أن الكتاب كلَّه صيغ هنا. هلا ألقينا نظرة على الغرفة الثالثة؟»

مررنا من الباب الموصل ووجدنا أنفسنا في شقة صغيرة لا يوجد بها أثاث وتتناثر فيها جذوع وحقائب وعدة أنواع من الأخشاب. لما وقفنا ننظر من حولنا، أخذ ثورندايك يشمُّ الهواء وهو متشكك.

قال وهو ينظر من حوله متسائلًا: «يبدو أن هناك رائحة فئران. هل تلاحظ الرائحة يا جيرفيس؟»

لقد لاحظتها؛ وطرأت فكرة في عقلي بأن أبدأ التجوال في الغرفة خلسة بحثًا عن مصدر الرائحة؛ وقعت عيناي فجأة على صندوق صغير نوعًا ما، وفي الجزء العلوي من الصندوق عدد من الثقوب المحفورة بالمثقاب. رفعتُ الغطاء ونظرت فيه. وجدت الصندوق من الداخل مغطًّى بالقذارة وفي القاع فأر ميت.

وقفنا جميعنا بضع ثوانٍ ننظر إلى جثة الفأر والصمت يسكن المكان. ثم أغلق ثورندايك الصندوق وأخذه تحت إبطه.

قال: «أظن أن هذا الصندوق يكمل القضية. متى يعود برايس؟»

لوملي: «من المتوقع أن يصل إلى المنزل في حوالي الساعة السابعة.» ثم أضاف بكلمات يكسوها الاضطراب: «لا أفهم شيئًا من هذا كلِّه. ما الذي يعنيه ذلك؟»

ثورندايك: «المسألة غاية في البساطة. لديك كتابٌ قديم ومزيف يتضمن قصة من الواضح أنها مصطنعة وتحتوي على أحداث خارقة للطبيعة؛ ولديك أيضًا سلسلة من الأجهزة والترتيبات من أجل إنتاج خُدَع يبدو أنها تكرر تلك الأحداث. زُرع الكتاب في مكان معين بحيث يمكن الوصول إليه وقراءته، وبدأت الخدع بعدما عُرف أن الكتاب قُرئ بالفعل. إنها مؤامرة.»

تساءل لوملي: «ولكن لماذا؟ ما الهدف من ذلك؟»

برودريب: «عزيزي فرانك، لا تنسَ أن برايس هو القريب التالي وأنه الوريث للتركة بعد موتك.»

اغرورقت عينَا لوملي. يبدو أن الحزن والاشمئزاز قهره. غمغم بصوت أجش: «لا أصدق، هذه الدناءة لا تُصدَّق.»

وصل برايس وزوجته في حوالي الساعة السابعة، أُعدت وجبة لهما ولما انتهيا من الطعام، أُرسلت الخادمة كي تطلب من السيد برايس أن يتحدث مع السيد برودريب في غرفة المكتب. انتظرناه جميعنا في الغرفة، وحضر لوملي بناءً على رغبته؛ وتُرك الكتاب الصغير على الطاولة، وقصاصة الجلد وأداتَا اللمسات الأخيرة ووعاء طلاء الراديوم والصندوق الذي يحتوي على الفأر الميت. دخل برايس لتوه ومعه زوجته؛ ولما رأيا الأشياء على الطاولة، تخشَّبا في مكانهما. وضع السيد برودريب كرسيين لهما ولما جلسَا، بدأ بصوت خشن وشديد اللهجة:

«أرسلتُ لك يا سيد برايس كي أعطيَك بعض المعلومات. هذان السيدان — الدكتور ثورندايك والدكتور جيرفيس — من أكبر محامِي قضايا الجنائيات وقد فوضتُهما لإجراء تحريات وأن يقدمَا مشورتهما بشأن هذه المسألة. كشفتِ التحريات التي أجرياها عن وجود مخطوطة مزيفة وفأر ميت ووعاء به طلاء وامض ومرآة مقعرة. لا أريد الخوض في المزيد من التفاصيل عن تلك الاكتشافات. نيَّتي أن أقاضيَك أنت وزوجتك على مؤامرة دفْع السيد فرانك لوملي على ارتكاب الانتحار، ولكن بناءً على طلب السيد لوملي، وافقتُ على تأخير الإجراءات لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة. وفي تلك المدة، ستتاح لكما حرية التصرف حسبما تريانه.»

عمَّ صمتٌ يتخلله التوتر بضع ثوانٍ. جلس المتآمران والضيق قابض على صدرَيهما وأعينهما لم تُرفع عن الأرض، وأجهشت زوجةُ برايس ببكاء شبه هستيري. ثم نهضَا

ومن دون أن ينظر برايس إلى أيٍّ منا، قال بصوت منخفض: «حسن جدًّا. أعتقد أنه من الأفضل أن نبوح بكل شيء.»

لما ذهبَا، قال برودريب معلقًا: «وهذا أفضل شيء على الإطلاق؛ لأنني أشك في إمكانية إيصال هذه الخدعة للمحكمة.»

على الجدار في غرفة الجلوس بالمعبد، يوجد مفتاحان معلقان حتى يومنا هذا. مفتاح للبوابة الخلفية لبرلينج كورت، والآخر لجناح الغرف التي كان يشغلها السيد لويس برايس؛ وهما معلقان في ذلك المكان بناءً على رغبة فرانك لويس، باعتبار ذلك رمزًا بأن برلينج كورت منزلٌ ريفي يمكننا الدخول إليه في جميع الأوقات والفصول باعتبارنا مستأجرين بمقتضى حق غير قابل للتصرف.

الفصل التاسع

# الزائر الغامض

لما كان ثورندايك ينظر إليَّ متأملًا، قال: «إذن، أنت طبيب أصقلتك القضايا التي عملتَ عليها. ما أسرع مرور السنين! وكأن أيام الدراسة لم يمرَّ عليها أكثر من يوم، وأتذكر حين كنتَ تحدق فيَّ من المقعد الأمامي في قاعة المحاضرات.»

سألتُ وأنا لا أكاد أصدق: «هل كنتُ أحدق فيك؟»

قال: «أنا أستخدم الكلمة مجازًا إشارةً إلى الانتباه البالغ. دائمًا ما كنتَ تأخذ محاضرتي على محمل الجد. هل لي أن أسأل إن كانت أفادتْك في حياتك العملية؟»

«لا يسعني إلا أن أقول إنني لم أحظَ بمثل هذه التجارب الرائعة في مجال الطب الشرعي منذ القضية غير العادية التي توليتَ التحقيق فيها بشأن حرق الجثة، قضية سبتيموس مادوك كما تعرف. ولكن هذا يذكِّرني بأن هناك مسألة بسيطة أردتُ التحدث معك بشأنها. إنها ليست ذات أهمية، ولكني أردتُ مشورتك، على الرغم من أنها لا تخصُّني بالمعنى الحرفي للكلمة. إنها تخصُّ مريضًا لدي، رجل اسمه كروفتون اختفى في ظروف يصعب تفسيرُها.»

ثورندايك: «وأنت تقول إن هذه القضية لا تندرج تحت مجال الطب الشرعي؟»

«أوه، لا يوجد شيء يستحق فيها. لقد سافر لقضاء إجازة ولم يتصل بأصدقائه منذ فترة ليست بالطويلة. هذا كل ما في الأمر. ما يُثير قلقي هو الانحراف عن عاداته — فعادته ألا ينقطعَ عن مراسلاته المنتظمة — وهذا يمثل أهمية كبيرة بعضَ الشيء من منظور شخصيته. لا يخفى على أحد أنه مصابٌ بمرض في الأعصاب وتاريخ عائلته مع المرض ليس ما يتمناه المرء بأي حال من الأحوال.»

ثورندايك: «هذه الخلاصة رائعة يا جاردين، ولكنها تفتقر إلى التفاصيل. لنتعرف على الحكاية بتفاصيلها.»

قلتُ: «حسن جدًّا، ولكن أتمنى ألا أتسبَّبَ في إزعاجك. لنبدأْ من عند كروفتون؛ إنه شخص عصبي ومشغول البال وقلق، ولا ينفك قلقُه البالغ بشأن المسائل المالية، وتفاقمت هذه الخصلة في الآونة الأخيرة. حقَّق قفزاتٍ جيدةً بشأن وضعه المالي؛ والسبب أنه لم يكد يخرج من عقله أنه مشارف على الإفلاس لا محالة. وهذه كلها أوهام في عقله. إنني صديق للعائلة بشكل أو بآخر، وأعرف أنه لا يوجد ما يستدعي القلق. أكدت لي زوجته أنهما على الرغم من مرورهما بضائقةٍ بسيطة، فإنهما تمكَّنا من تجاوزها بأمان.

لما بدا أن الحمل يتثاقل على ظهره، نصحتُه بأن يذهب في نزهة ويقيم في نُزل بحيث يرى وجوهًا جديدة، ولكن بدلًا من أن يأخذ بالنصيحة، اختار الإقامة في منزلٍ ريفي يمتلكه في سيسولتر — بالقرب من وايتستيبول — ويخرج في الموسم. اقترح أن يُقيم بمفرده ويقضي وقته في السباحة في البحر والتنزه سيرًا في الريف. لم أتحمس لهذا الاقتراح كثيرًا؛ لأن العزلة كانت آخر ما يحتاج إليه. العديد من أفراد العائلة سبقت إصابتُهم بحالة السوداوية وللأسف أُشيع عنهم ارتكاب بعض حالات الانتحار؛ ولذا لم أحبَّ مكوثه بمفرده على الإطلاق، ولكن يوجد صديق آخر للعائلة وهو أخو زوجة السيد كروفتون — شاب اسمه أمبروز — عرض عليه أن يزورَه ويقضيَ عطلة نهاية الأسبوع معه كي يُعطيَه دفعة أمل، وأن يذهب بعد الظهيرة عقب ذلك إلى حيث يريد؛ وبالتالي خرج مع أمبروز يوم الجمعة الموافق السادس عشر من يونيو وكان كل شيء على ما يرام لبعض الوقت. ظهر تحسُّنٌ في صحته وروحه المعنوية واعتاد أن يُراسل زوجته مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. زاره أمبروز بقدر ما يستطيع كي يروِّحَ عنه، وفي المرة الأخيرة قال إن كروفتون يفكر في الانتقال إلى مارجيت للترويح عن نفسه أكثر؛ وبالتالي لم يذهب إلى المنزل الريفي مرة أخرى.

في الوقت المناسب، وردَ خطاب من مارجيت؛ كُتب الخطاب في المنزل الريفي ولكن الطابع البريدي من مارجيت ويحمل التاريخ نفسه — السادس عشر من يوليو — المدون على الخطاب. الخطاب معي. أرسلتْه زوجةُ السيد كروفتون إليَّ ولم أرجعه لها حتى الآن، ولكن لا يتضمن الخطاب ما يُثير الاهتمام سوى أنه سيذهب إلى مارجيت في القطار التالي وأنه سيُرسل خطابًا آخر عندما يجد مسكنًا، ولكن لم ترسَل خطابات أخرى منه. لم يُرسل أي خطابات ولا أحد يعرف تحركاتِه باستثناء أنه غادر سيسولتر ووصل إلى مارجيت. وها هو الخطاب.»

سلمتُ الخطاب إلى ثورندايك وهو بدوره نظر في الطابع البريدي ثم وضعه على الطاولة كي يتفحصَه في وقت لاحق. سأل: «هل أجريتَ أيَّ تحريات؟»

«نعم، أُرسلت صورتُه الفوتوغرافية إلى قسم شرطة مارجيت، ولكن بالطبع ... حسنًا، أنت تعرف كيف تكون مارجيت في شهر يوليو؛ فالمدينة تستقبل وتودع آلاف الغرباء كلَّ يوم. ولا آمل في البحث عنه وسط هذا الزحام والمرجح أنه غير موجود بها الآن، ولكنَّ اختفاءه ليس مناسبًا في هذا الوقت لأنه توجد مسائل كبيرة بشأن ميراثٍ وقع من نصيبه، ومن الطبيعي أن تتلهَّف زوجتُه كثيرًا إلى إخباره. يقارب هذا الميراث ثلاثين ألف جنيه.»

ثورندايك: «هل كان هذا الميراث متوقعًا؟»

«لا، لم يعرف كروفتون شيئًا عنه. لم يعرف أحد أن السيدة العجوز — السيدة شولر — كتبت وصيةً ولم يعرفوا أن لديها كلَّ هذه التركة؛ ولم يعرف أحدٌ أنها قد تموت في وقت قريب أو أنها مريضة حتى. الأغرب من ذلك أنها ظلت مريضة لمدة شهر أو شهرين لأنها كانت تُعاني ورمًا خبيثًا في البطن، وعُرف أنها لن تُشفَى منه.»

«متى ماتت؟»

«في الثالث عشر من يوليو.»

رفع ثورندايك حاجبَيه قائلًا: «قبل تاريخ الخطاب بثلاثة أيام فقط؛ وبالتالي إذا كان لا بد من عدم ظهوره مرة أخرى، فهذا الخطاب سيكون الدليلَ الوحيد على أنه عاش من بعدها. إنه مستند مهم. فقد يكون سندًا له قيمة بالغة الأهمية.»

قلت: «ليس بهذه الأهمية، تنص وصية السيدة شولر أنه في حالة موت كروفتون قبل الموصية بالتركة، فسينتقل الميراث إلى زوجته؛ وبالتالي سواء كان حيًّا أم ميتًا فالميراث في مأمن. ولكن يجب أن نأمل بأنه لا يزال على قيد الحياة، على الرغم من حتمية الاعتراف بما يعتريني من قلق بشأنه.»

فكَّر ثورندايك لبرهة في هذه العبارة. سأل بعد برهة: «هل تعلم إن كان كروفتون كتب وصية أم لا؟»

رددتُ: «نعم، كتب وصية منذ وقتٍ قريب. كنتُ أحدَ الشهود وقرأتها بناءً على طلب كروفتون. كانت الوصية تعج بالعبارات القانونية المعتادة على الرغم من أنه كان بإمكانه كتابتُها في عشر كلمات. أوصى بكل تركته لزوجته، ولكن بدلًا من أن تنصَّ الوصية على ذلك إجمالًا، سُردَتِ التركةُ عنصرًا عنصرًا باسمه.»

«هل أفترض أن من صاغها محامٍ؟»

«نعم، صديقٌ آخر للعائلة اسمه جوبسون، وهو محرر الوصية والوارث لباقي التركة.»

هزَّ ثورندايك رأسه وغرق في التفكير مرة أخرى. ظل يفكر وأخذ الخطاب ولما أخذ يتفحصه، اهتممتُ بمشاهدته وباستمتاع لا يخفى على أحد. نظر إلى الغلاف أولًا، من الأمام والظهر. ثم أخرج من جيبه عدسة كودينجتون قوية وفحص بها المغلف والطابع البريدي. بعد ذلك، أخرج الخطاب ورفعه في الضوء ثم قرأه كاملًا وفي النهاية فحص عدة أجزاء من الكتابة باستخدام عدسته. بابتسامة غير موقرة، قلت: «لا بد أن أعترف بأنك استخرجت عصارة المعاني الواردة في هذا الخطاب.»

ابتسم ووضع عدسته جانبًا وسلمني الخطاب مرة أخرى.

قال: «بما أن هذا الخطاب قد يمثل دليلًا بأنه لا يزال على قيد الحياة، فمن الأفضل أن يوضع في مكان آمن. ألاحظ أنه يفكر في العودة إلى المنزل الريفي في وقت لاحق. هل أعتبر أن عدم رجوعه إلى هناك أمرٌ مؤكد؟»

«لا أظن. فأنت ترى أنهم في انتظار أن يُرسل لهم خطابًا. تظن أن شخصًا ما ينبغي ...»

توقفتُ لبعض الوقت؛ وبدأ يتبادر إلى ذهني أن ثورندايك كان ينظر إلى القضية من منظور متشائم.

قال: «عزيزي جاردين، أنا فقط أتتبع اقتراحك. يوجد رجل لديه ميول وراثية نحو السوداوية والانتحار وقد اختفى فجأة. غادر منزلًا فارغًا وأعلن عن نيته في الرجوع إليه في وقت لاحق. لما كان هذا المنزل هو المكان الوحيد المعروف أنه يمكن البحث عنه فيه، فهذا يدل على حتمية البحث عنه فيه. وحتى لو لم يَعُد مطلقًا إلى هناك، فالمنزل قد يوجد به بعضُ أطراف الخيوط التي توصلنا إلى مكانه الحالي.»

هذه العبارة الأخيرة أتت بفكرة إلى ذهني كنتُ خجلًا بعض الشيء من طرحها. ما يمكن أن يكون طرفَ خيط بالنسبة إلى ثورندايك قد لا يكون له معنى تمامًا بالنسبة إلى رجلٍ عادي. تذكرتُ تفسيراتِه المذهلة لمعظم الوقائع العادية في قضية مادوك الغامضة واستحوذت الفكرةُ على عقلي أكثر. وبعد مدة، قلت مبدئيًّا: «سأذهب بنفسي إذا اعتبرت نفسي مخولًا للقيام بذلك. غدًا يوم السبت، ويمكن أن أطلب من أحد الزملاء الاهتمام بعملي؛ لا توجد العديد من الأعمال في الوقت الحالي، ولكن عندما تتحدث عن مفاتيح الألغاز وعندما أتذكر غبائي المرة الماضية، أرجو أن تتمكن من إلقاء نظرة على المكان.»

تفاجأت من حماسته وموافقته.

قال: «ولمَ لا؟ إنها عطلة نهاية الأسبوع. أظن أنه يمكننا الذهاب إلى المنزل الريفي وأن نحظى بعطلةٍ نتنزه فيها. لا شك أن القضية بها بعض النقاط المثيرة للاهتمام.

لنسافر إلى هناك غدًا. يمكننا تناول الغداء في القطار والوصول إلى هناك بعد الظهيرة. من الأفضل أن تحصل على مفتاح من زوجة السيد كروفتون أو الحصول على إذنٍ بزيارة المنزل إذا لم يكن لديها مفتاح. قد نحتاج إلى هذا التصريح إذا اضطررنا إلى دخول المنزل من دون مفتاح. وبالطبع سنذهب بمفردنا.»

وافقتُ والسعادة تغمرني. لا يعني ذلك أن لدي أيَّ توقعات بشأن ما يمكن أن نتعلمه من عملية التفتيش، ولكن هناك شيئًا في طريقة ثورندايك أعطاني انطباعًا بأنه استخلص من حديثي بعض المعلومات المهمة التي قد أغفل عنها.

المنزل الريفي مبنيٌّ على رقعة أرض وَعِرَة خلف الحاجز البحري الذي مشينا بطوله باتجاه المنزل من وايتستيبول ومررنا في طريقنا بمرفأ لصناعة السفن ورصيف إنزال نُقل إليه قارب شراع يعمل بالفحم لإجراء بعض أعمال الصيانة. كان يوجد منزل أو منزلان ريفيان آخران متاخمان، ولكن يفصل بينهما مسافةٌ كبيرة ونظرنا إليهما لما كنا نقترب لقراءة الأسماء المطبوعة على البوابات.

ثورندايك: «الأرجح أن هذا هو المنزل.» كان يُشير إلى مبنًى صغير محاط بسور خشبي ومزود بكوخ استحمام مثل المنازل الأخرى قبل علامة مدِّ مياه البحر. موقع المنزل المنعزل والمهجور والستائر المنسدلة أيَّدتْ رأيه، وعندما وصلنا إلى البوابة، اسم «ميدلويك» المكتوب عليها حسم المسألة.

قلتُ: «السؤال التالي هو كيف سندخل إلى المنزل؟ البوابة مقفلة ولا يوجد جرس. هل يستحق الأمر أن نقفز من أعلى السور؟»

ثورندايك: «ما كنت لأفعل ذلك. من المؤكد أنه لا يوجد أحد في المنزل وإلا فلن تجد البوابة مقفلة. سنتسلَّق السور ما لم تكن هناك بوابة خلفية غير مقفلة، ومن الأفضل ألا نُحدثَ جلبة كثيرة.»

مشينا حول السور ولكن لم نجد بوابة أخرى ولم تكن هناك شجرةٌ أو غطاء آخر للتمويه على أفعالنا التي تُثير الشكوك.

ثورندايك: «لا مناص لنا من الأمر يا جاردين، لنقفز إذن.»

وضع حقيبة أمتعته الخضراء المصنوعة من القماش على الأرض وأمسك بأعلى السور بكلتا يديه وقفز وكأنه مهرج. أخذت الحقيبة وناولتُها له ونظرتُ من حولي نظرة خاطفة وتبعت قائدي.

قلت: «ها نحن بالداخل. والآن، كيف سندخل إلى المنزل؟»

«سنضطر إلى فتح القفل من دون مفتاح إذا لم نجد بابًا مفتوحًا أو ندخل من إحدى النوافذ. لنلقِ نظرة سريعة.» مشينا حول المنزل إلى الباب الخلفي ولم نجده مقفلًا بالقفل فحسب، بل بمزلاج من الأعلى والأسفل، وهذا ما تأكد منه ثورندايك بنصل سكينه. كانت النوافذ كلها ذات مفصلاتٍ رأسيةٍ وكلها محكمة الغلق بالسقاطات.

ثورندايك: «الباب الأمامي هو الخيار الأفضل. لا يمكن قفله بالمزلاج إلا إذا خرج من المدخنة، وأعتقد أن «أدوات الغليون» لديَّ ستتمكن من فتح قفل هذا الباب. من الواضح أنه قفل مبنًى عادي.»

لما كنا نتحدث، رجعنا إلى الجزء الأمامي من المنزل وأخرج أدوات الغليون من جيبه (لا أعرف أنواع الأدوات التي كانت تصمَّم كي يسهل حملها). بات واضحًا أن مسألة القفل سهلة، ففي المحاولة الثانية أرجعت أدوات الغليون المزلاج إلى الخلف، وانفتح الباب عندما لفف المقبض. وللاحتياط، ناديتُ للسؤال هل يوجد أحد في المنزل أم لا ولما لم أجد إجابة، دخلنا ومشينا مباشرة إلى غرفة المعيشة ولم يكن هناك صالة أو رواق.

توقفنا بعد خطوتين من العتبة لنستكشف الغرفة، وقد انتابني شعورٌ غامض بعدم الارتياح من شكل المكان. على الرغم من أن الوقت كان بعد الظهيرة والنهار مضيء، كانت الغرفة مظلمة بالكامل تقريبًا لأنه لم يكن الشيش مقفلًا فحسب، بل كانت الستائر مبسوطة كذلك.

أخذتُ أجول بنظري في الشقة المظلمة والمعتمة بعين لا تكاد ترى من أشعة الشمس، قلت: «يبدو أنه ذهب في الليل. فهو لا يبسط الستائر في وقت النهار.»

ثورندايك: «ربما كان الأمر كذلك، ولكن هذه ليست قاعدة.»

مشى إلى النافذة الأمامية وسحب الستائر وفتح الشيش، مما كشف عن نصف ستارة من نسيج السيرج الأخضر فوق الجزء السفلي من النافذة. لما غمر ضوء النهار الغرفة، وقف وظهره باتجاه النافذة وأخذ ينظر باهتمام عميق؛ إذ كان يجول بعينيه ببطء على الجدران والأثاث وخاصةً الأرضية. بعد برهة انحنى كي يلتقطَ طرف عود ثقاب قصير من تحت الطاولة المقابلة للباب ولما نظر إليه متأملًا، أشار إلى بقعتَيْ شمعٍ على مشمعٍ بالقرب من الطاولة. بعد ذلك نظر إلى رف الموقد ومنه إلى طفاية سجائر على الطاولة.

قال: «لا توجد سوى اختلافاتٍ طفيفة، ولكنها جديرة بالتفكير في شأنها.» تابع مستجيبًا لنظرة التساؤل في عيني: «أنت ترى مدى الزخرفة والترتيب في هذه الغرفة. كل شيء يبدو أنه في مكانه. علبة الثقاب على سبيل المثال موضوعة في خزانتها مقفلة فوق

رف الموقد، وتوجد طفاية للثقاب التي سبق إشعالُها، كما أنها تُستخدم بانتظامٍ حسبما تدل محتوياتها، ولكن يوجد عود محترق ملقًى على الأرض على الرغم من أن الطفاية في مكان يسهل الوصول إليه على الطاولة. وكما تلاحظ، فالثقاب ليس من نوع العلبة نفسه الموضوعة فوق رف الموقد — وهذه العلبة من نوع براينت آند ماي — وليس من نوع الثقاب المحترق في الطفاية؛ لأنه من الواضح أنه مأخوذ من العلبة فوق الرف.» رفع الطفاية وقال: «ولكن إذا نظرت في الطفاية، فسترى عودَيْن محترقَيْن من هذا النوع نفسه، ولا يخفى أنها من نوع براينت آند ماي ولكن بحجم أصغر، عود محترق بالكامل وآخر محترق حتى النصف فقط. الدلالة واضحة نوعًا ما ولكنَّ هناك اختلافًا طفيفًا كما قلت.»

قلت: «لا أعرف إن كانت الدلالة أو الاختلاف واضحًا لي أم لا.»

مشى إلى رف الموقد وأخذ علبة الثقاب من الخزانة.

فتحها وقال: «ترى أن هذه العلبة ممتلئة تقريبًا. لها مكان محدد ووجدناها في ذلك المكان. وجدنا عود ثقاب محترق بالخارج تحت الطاولة المقابلة للباب وعودين آخرين في الطفاية تحت المصباح المعلق. ثمة استنتاج منطقي وهو أن شخصًا ما دخل في الظلام وأشعل عود الثقاب لما دخل. لا بد أن هذا العود أتى من علبة يحملها معه في جيبه. احترق العود وأشعل واحدًا آخر واحترق لما كان يرفع مظلة المصباح، ثم أشعل الثالث كي يضيء المصباح، ولكن إذا كان هذا الرجل هو كروفتون، فلماذا احتاج إلى إشعال نور الغرفة على الرغم من أن علبة الثقاب في مكانها المعتاد؛ ولماذا رمى طرف العود على الأرض؟»

«تقصد أن هذه الدلائل تشير إلى أن الشخص لم يكن كروفتون؛ وأعتقد أنك محقٌّ. كروفتون لا يحمل ثقابًا في جيبه. إنه يستخدم ثقابًا من الشمع ويحملها في علبة فضية.»

ثورندايك: «ربما كان الشخص هو أمبروز.»

قلت: «لا أظن، يستخدم أمبروز ولاعة بنزين.»

هزَّ ثورندايك رأسه قائلًا: «قد لا يدل الأمر على شيء، ولكنه اقتراح مطروح. هل سنطلع على بقية المنزل؟»

توقف دقيقة ينظر إلى لوحة مفاتيح صغيرة على الحائط معلق فيها مفتاح أو مفتاحان، وكل مفتاح مميز بميدالية من العاج وباسم مكتوب تحت الشماعة؛ ثم فتح الباب في زاوية الغرفة. لما وجدت الباب يؤدي إلى المطبخ، أغلقتُه وفتحت الباب المجاور له الذي يؤدي إلى غرفة النوم.

لما دخلنا، قال: «ربما هذه غرفة النوم الإضافية. الشيش لم تُنزل ستائره، والجو العام للديكورات في الغرفة يوحي بترتيب غرفة غير مشغولة. ومظهر الفراش كأنه لم يستخدمه أحد.»

بعد جولة فاحصة في الغرفة، رجع إلى غرفة المعيشة وعبر إلى الباب المتبقي. لما فتح الباب، وجدنا الغرفة مظلمة تقريبًا؛ إذ كانت النافذتان كلتاهما تعلوهما ستائرُ سميكة من نسيج السيرج.

لما أزاح الستائر ورفع الشيش، قال: «هذا الفراش لم يتمَّ ترتيبه بعناية، كما أن البطانية تخرج عن الملاءة.»

ألقى نظرة ناقدة في أرجاء الغرفة وخاصة على الطاولة بجانب الفراش.

قال: «ها هي المزيد من الاختلافات. يوجد اثنان من الشمعدان ويحتوي واحدٌ منهما على شمعة احترقت حتى النهاية تاركة جزءًا من الفتيل. يحتوي أيضًا على خمسة أعواد ثقاب، عودين كبيرين من العلبة التي بجانب الشمعدان وثلاثة أعواد صغيرة، اثنان منهما عبارة عن رءوس فقط. لم تتآكل أجزاء الشمعة الثانية بالتساوي، وأعتقد …» رفعها من تجويفها وقال: «نعم، لقد استُخدمت خارج الشمعدان. ترى أن الشمع المذاب سال إلى نهاية الشمعة وتوجد بصمة واضحة لإصبع الإبهام — من الواضح أنه الإبهام الأيسر — تُركت لما كان الشمع لا يزال ساخنًا. ثم تلاحظ علامة السائل على منضدة الكئوس وهذا السائل ليس مياهًا، كما أن الكأس غير موجودة، ولكن ربما كانت علامةً قديمة على الرغم من أن مظهرها حديث.»

قلت: «نادرًا ما يترك كروفتون علامة قديمة على الطاولة، فهو كان يعمل في خدمات التنظيف المنتظمة. من الأفضل أن نرى إن كانت الكأس في المطبخ.»

ثورندايك موافقًا: «نعم، ولكني أتساءل ما الذي كان يفعله بتلك الشمعة. من الواضح أنه أخذها خارج الغرفة لأنه توجد بقعة على الأرض في غرفة المعيشة؛ وترى بقعة أو اثنتين على الأرض في هذه الغرفة.» مشى إلى الخزانة ذات الأدراج بالقرب من الباب وكان ينظر في الدرج المسحوب الذي رأيتُه ممتلئًا بالملابس عندما لاحظت ابتسامة خفية مرسومة على وجهه. قال بصوت منخفض: «تعالَ إلى هنا يا جاردين، وانظر إلى الشق في الباب.»

مشيتُ إلى هناك وصوبت نظري تجاه الشق وشقَّ نظري غرفة المعيشة إلى النافذة الأخيرة. فوق الستارة النصفية، استطعتُ أن أتعرف من دون خطأ على خوذة من الجزء العلوي فيها إذ يرتديها رجال الشرطة.

ثورندايك: «اسمع، إنه يعمل في الشرطة.»

لما كان يتحدث، سمعنا صوتَ كشط يتسلل من ناحية المطبخ، ويوحي الصوتُ بأن سكين جيب يحاول فتح سقاطة النافذة. بعد الصوت سمعنا النافذة تنفتح ثم دخول شخص خلسة. وفي النهاية، فُتح باب المطبخ بهدوء وعبر أحدٌ ما غرفة المعيشة على أطراف أصابعه وظهر رقيب شرطة ضخم الجثة عند باب غرفة النوم.

ثورندايك بابتسامة لطيفة: «مساء الخير أيها الرقيب.»

رد: «نعم، كل شيء على ما يرام، ولكن السؤال هو: من أنتما وما الذي تفعلانه في هذا المنزل؟»

شرح ثورندايك ما نفعله باختصارٍ ولما قدمنا بطاقتَي الهوية والإذن المكتوب من زوجة السيد كروفتون، تلاشت خشونة التعامل المهنية من الرقيب مثل السحر.

صاح على تابع غير مرئي وقال: «الأمور على ما يرام يا تومكينز. يفضَّل أن تُغلِقَ النافذة وتخرج من الباب الأمامي. إني أعتذر منكما أيها السيدان، ولكن مستأجر المنزل المجاور أتى إلينا وقدم بلاغًا. الرجل شاهدكما من النافذة ورآكما وأنتما تفتحان قفل الباب الأمامي من دون مفتاح. بدا الأمر غريبًا بعض الشيء، وهذا لا يخفى عليكما.»

أكَّد ثورندايك على كلامه بابتسامة وعبرنا من غرفة المعيشة إلى المطبخ. بدا أن وجود الرقيب يمنع الحديث ولكني لاحظتُ أن صديقي يُلقي نظرة متمعنة على مقلاة كانت موضوعة على موقد بريموس. أوحت الدهون الملتصقة بها بوجود اختلاف آخر؛ لأنني لا أكاد أتخيل أن كروفتون المدقق في أموره سيرحل ويترك المقلاة بتلك الحالة.

بعدما لاحظتُ وجود كأس غير مغسولة في مكان ظاهر، تبعتُ صديقي إلى غرفة المعيشة مرة أخرى حيث توقف وعينُه على لوحة المفاتيح.

قال الرقيب: «لو كان أتى إلى هنا، فمن الواضح تمامًا أنه ليس هنا الآن. أظن أنكما مشَّطتما المبنى بالكامل، أليس كذلك؟»

ثورندايك: «المبنى كلُّه ما عدا كوخ الاستحمام.» ولما كان يتحدث، أخذ المفتاح المكتوب عليه هذا الاسم من شماعته.

ابتسم الرقيب ابتسامة خفيفة. قال: «من غير المحتمل أنه اتخذ مسكنًا هناك، ولكن لا يوجد أفضل من أن يكون المرء دقيقًا في كل شيء، ولكنك تلاحظ أن مفتاح الباب الأمامي وتلك البوابة أُخذا من هنا؛ وبالتالي ربما رحل من هنا.»

ثورندايك: «هذا استنتاج منطقي، ولكن يمكن أن نُكمل عملية المسح للمنزل.»

بذلك اتخذ طريقه عبر الحديقة إلى البوابة، لم يستنكف أن يخرج أداة تسليك الغليون وأدخل سنَّه في ثقب المفتاح.

لما سمع الرقيب نقرة القفل وفُتح الباب، قال متعجبًا: «إنني متأكد! هذه أداة مسلية، ويبدو أنك تستخدمها بسهولة تامة أيضًا. هلا أريتني إياها؟»

ظل ينظر إليها باهتمام لمدة طويلة عندما ناولها له ثورندايك لدرجة أنني شككتُ أنه ينوي أخذها منه. لما انتهى من فحصه، كنا وصلنا إلى نهاية الضفة قبل الحاجز البحري وأدخل ثورندايك المفتاح في قفل كوخ الاستحمام. لما أرجع الرقيب أداة تسليك الغليون لثورندايك، أدخلها في جيبه ثم لف المفتاح ودفع الباب كي يفتحه؛ ثم أطلق الشرطي صرخة ذهول.

لما نظرنا بالداخل، لا شك في أن المشهد كان مروعًا. كان الكوخ مبنًى صغيرًا على مساحة ست أقدام وخاليًا من أي أثاث أو تجهيزات فيما عدا شماعة أو اثنتين في أعلى الحائط. كانت النافذة الوحيدة غير المزججة محكمة الإغلاق، وعلى الأرض العارية في الركن البعيد جلس رجل يتكئ بظهره في الركن ورأسه ساقط على صدره. لا شك أن الرجل هو آرثر كروفتون. أقول هذا يقينًا على الرغم من التغييرات المرعبة التي أحدثها الموتُ ومرور الأيام. لما تعرفتُ على الجثة، قلت: «أجزم أنه مات منذ أكثر من أسبوعين. لا بد أنه مات بعدما عاد من مارجيت مباشرةً. وربما هذه هي الكأس المفقودة.» اختتمتُ حديثي وأنا أشير إلى كأس على الأرض بالقرب من الجانب الأيمن للجثة.

ثورندايك وهو شارد الذهن: «لا شك في ذلك.» ظل ينظر بعين ناقدة في أرجاء الكوخ، ثم قال: «أتساءل لماذا لم يُطلق الرصاص على نفسه بدلًا من حبس نفسه؛ وما الذي آل إليه أمرُ المفتاح؟ لا بد أنه أخرجه من القفل ووضعه في جيبه.»

نظر إلى الرقيب متسائلًا، وما كان من الرقيب إلا أن يفهم الإشارة ومن ثَم تقدم وتعبيرات الاشمئزاز الممتزج بالرعب بادية عليه وبدأ في تفتيش ملابس الرجل الميت وهو يتوخى الحذر.

بعد مدة قال متعجبًا: «آه! ها هو المفتاح.» أخرج من جيب الصدرية مفتاحًا بميدالية صغيرة من العاج مرفقة فيه. «نعم، هذا هو. كما ترى، عليه ميدالية مكتوب عليها «كوخ الاستحمام».»

سلَّم المفتاح إلى ثورندايك ومن ثَم بدا اهتمامه في النظر إليه حتى إن الدهشة كانت بادية عليه، ثم أخرج قلم رصاص غير قابل للمحو من جيبه وكتب على الميدالية «عُثر عليه مع الجثة؟»

قال: «أول ما يجب فعله هو التأكد من أن المفتاح هو مفتاح القفل.»

الرقيب: «لا بد أنه هو إذا كان قد قفل على نفسه باستخدام هذا المفتاح.»

ثورندايك موافقًا: «لا شك في ذلك، ولكن هذا هو مربط الفرس. يبدو أنه مختلف عن المفتاح الآخر.»

أخرج المفتاح الذي أحضرناه من المنزل وأعطاه لي كي أحمله. ثم جرَّب المفتاح الذي كنا قد أخرجناه من جيب الرجل الميت، لكن المفتاح لم يكن مناسبًا، بل ولم يدخل حتى في ثقب القفل.

تلاشى عدمُ الاكتراث المتشكك فجأة من وجه الرقيب. أخذ المفتاح من ثورندايك وجربه ولكن لم تتغير النتيجة؛ ومن ثم وقف وأخذ يحملق في زميلي بعينين متسعتين.

قال متعجبًا: «حسنًا! سنواجه مشكلة! المفتاح ليس مفتاح القفل!»

ثورندايك: «ربما يوجد مفتاح آخر في ملابس الميت. هذا غير محتمل ولكن من الأفضل أن نتأكد.»

لم يُبدِ الرقيب ترددًا هذه المرة. بحث في جيوب الميت جيدًا وأخرج حفنة من المفاتيح، ولكنها كلها مفاتيح صغيرة للغاية، ولا يوجد مفتاح منها يشبه مفتاح باب الكوخ بأي شكلٍ من الأشكال. ولاحظت أنها لا تتضمَّن مفاتيح باب المنزل ذي الطابق الواحد أو بوابة الحديقة. انتصب الشرطي واقفًا مرة أخرى وحدق في ثورندايك.

قال: «بدأت الشكوك تساورني بشأن هذه المسألة.»

ثورندايك موافقًا: «كلامك صحيح. تأكدنا من أن الباب كان مقفلًا ولما لم يكن مقفلًا من الداخل، فلا بد أنه أُغلق من الخارج. ثم هذا المفتاح — المفتاح الخطأ — ربما وضعه شخص آخر في جيب الميت. وهناك بعض الوقائع التي تُثير الشكوك. اختفت الكأس من المنضدة التي بجانب الفراش وتوجد كأس هنا. ترى بقعة أو بقعتَيْن من شحم الشمع على الأرض هنا وتبدو وكأن الشمعة وُضعت في تلك الزاوية بالقرب من الباب. لا توجد شمعةٌ هنا الآن، ولكن توجد واحدة في غرفة النوم وهذه الشمعة حملها أحدٌ ما من دون الشمعدان، وهذه الشمعة — بالمناسبة — تحمل بصمة إبهام واضحة. أول شيء نفعله هو أخذ بصمات المتوفَّى. هلَّا أحضرت لي حقيبتي من غرفة النوم يا جاردين؟»

عدتُ مهرولًا إلى المنزل (ولم أتخفَّ من الرجل في المنزل المجاور) وأخذتُ الحقيبة وحملتها إلى الكوخ. عندما وصلت، وجدت ثورندايك يُمسك الكأس بدقة في اليد اليسرى التي يرتدي فيها القفاز وكان يتفحصها في الضوء باستخدام عدسته. سلَّمني العدسة وراقبني.

«إذا نظرتَ إلى هذه يا جاردين، فسترى شيئًا مثيرًا للاهتمام. توجد بصمتان لإبهامين مختلفين، كلاهما الإبهام الأيسر؛ وبالتالي فهما لشخصَين مختلفين. ستتذكر أن الكأس كانت موضوعةً على الجانب الأيمن من الجثة وبأن المنضدة التي تحمل أثر الكأس توجد على الجانب الأيسر من الفراش.»

لما فحصتُ بصمتَي الإبهام، وضع الكأس بحرص على الأرض وفتح «حقيبة الأدوات البحثية» التي يمكن اعتبارُها مختبرًا متنقلًا. أخرج من الحقيبة صندوقًا نحاسيًّا صغيرًا يحتوي على أنبوب حبر ومسطرة صغيرة وبعض البطاقات الصغيرة وباستخدام غطاء الصندوق وكأنه لوحة تحبير، بدأ في أخذ بصمات أصابع الميت بطريقة منهجية وكتب الخصائص على كل بطاقة.

قلت: «لا أفهم ما الذي تريده من بصمات أصابع كروفتون. بصمات الرجل الآخر أهم.»

ثورندايك: «بلا شك، ولكن ينبغي أن نُثبتَ أنها بصمات رجل آخر، أي أنها ليست بصمات كروفتون. بالإضافة إلى أن الشمعة عليها بصمة. هذه النقطة يجب البتُّ فيها؛ وبما أننا انتهينا من عملنا هنا، فمن الأفضل أن نعود ونأخذ البصمة على الفور.»

أغلق حقيبته ولما أخذ الكأس في يده التي بها القفاز، سلك طريقه عائدًا إلى المنزل وتبعنا الرقيب عندما أقفل الباب. تقدمنا إلى غرفة النوم مباشرة حيث أخذ ثورندايك الشمعة من الشمعدان وكان حريصًا في مقارنة البصمة التي عليها ببصمتَي الإبهام على البطاقة باستخدام العدسة ثم فعل الشيء نفسَه مع الكأس.

قال: «الأمر واضح وضوح الشمس. هذه بصمة الإبهام الأيسر. إنها لا تُشبه بصمة كروفتون على الإطلاق ويبدو أنها متطابقة مع بصمة إبهام الرجل الغريب على الكأس. ومن هذا، يتبين أن الغريب أخذ الشمعة من هذه الغرفة إلى الكوخ ثم أعادها مرة أخرى، ولكن ربما انطفأت قبل مغادرة المنزل وأشعلها مرة أخرى في الكوخ.»

فحصتُ أنا والرقيب البطاقات والشمعة والكأس ثم سأل الرقيب: «أظن أنه لا فكرة لديك عن صاحب بصمة الإبهام، أليس كذلك؟ على سبيل المثال، ألا تعرف من الذي قد يكون لديه الدافع للتخلص من السيد كروفتون؟»

ثورندايك: «هذا السؤال ينبغي طرحُه على هيئة المحلفين الكبرى.»

الرقيب: «أتفق معك في هذا، ولكن لن تُثارَ الكثير من الأسئلة بشأن الحكم الذي ستصدره؛ فالقضية واضح أنها قضية قتل مع سبق الإصرار.»

لم يردَّ ثورندايك على ذلك ولكنه أعطى بعض التوجيهات بشأن طريقة الحفظ الآمنة للشمعة والكأس؛ ومن ثَم أصبحت عطلة التنزه المقترحة مستحيلة الآن، أخذنا إذن المغادرة من الرقيب — الذي أخذ بطاقاتنا من قبل — وطوينا الطريق إلى المحطة.

قلتُ: «أعتقد أننا سنضطر إلى إبلاغ زوجة السيد كروفتون.»

رد: «لا شأن لنا بهذا. يمكن أن نترك رسالة مع المحامي أو أمبروز. إذا كنتَ تعرف عنوان المحامي، فيمكن أن تُرسل له تلغرافًا تطلب منه تحديد موعد الليلة الساعة الثامنة. لا تذكر أيَّ تفاصيل. لا تقل سوى «عُثر على كروفتون» ولكن اكتب على التلغراف أنه «عاجل» وبالتالي سيحرص على الموعد.»

عند الوصول إلى المحطة، أرسلت تلغرافًا وظهرت إشارة القطار المتجه إلى لندن بعد فترة وجيزة. تبيَّن أنه قطار بطيء مما أعطانا وقتًا كافيًا لمناقشة القضية ووقتًا كافيًا لي كي أفكر فيها. في الحقيقة، فكرتُ كثيرًا؛ ومن ثَم طرأ سؤال آخر في عقلي لا يبعث على الارتياح وهو السؤال الذي أثاره الرقيبُ وتهرَّب ثورندايك من الإجابة عليه. هل يوجد أحدٌ قد يكون لديه الدافع للتخلص من السيد كروفتون؟ تتضح غرابة السؤال عندما يتذكر المرء الميراثَ الكبير الذي حظيَ به والبنود التي نصت عليها وصية السيدة شولر؛ إذ نصت الوصية على أنه في حال موت كروفتون قبل زوجته، فسينتقل الميراث إليها. أمبروز هو أخو الزوجة، وكان أمبروز في المنزل الريفي بمفرده مع كروفتون ولم يُعرف أن أحدًا آخر كان هناك على الإطلاق. تأملت في هذه الوقائع وبالي غير مرتاح؛ ومن ثَم أحببت أن أضع القضية بين يدي ثورندايك، ولكن تحفظه وتهربه من الإجابة على سؤال الرقيب وقراره بالتواصل مع المحامي بدلًا من العائلة، كل ذلك أظهر ما كان يجول في عقله وأنه لم يرغب في مناقشة المسألة.

في تمام الساعة الثامنة وبعد تناول العشاء في المطبخ، ذهبنا إلى منزل المحامي وأُدخلنا إلى غرفة المكتب حيث وجدنا السيد جوبسون جالسًا على طاولة كتابة. نظر إلى ثورندايك وتفاجأ بعض الشيء، وبعد التعارف، قال بنبرة بها شيء من الغلظة: «هل يمكنني القول بأن الدكتور ثورندايك له شأن بعملنا السري؟»

رددت: «بالتأكيد، ولهذا السبب هو هنا.»

أومأ جوبسون وسأل قائلًا: «وكيف حال كروفتون؟ وأين وجدتماه؟»

رددت: «يؤسفني أن أخبرك بأنه توفي. إنها مسألة مروعة. وجدنا جثته محبوسة في كوخ الاستحمام. كان يجلس في الزاوية وكأس على الأرض بجانبه.»

المحامي متعجبًا: «يا للهول! يا للهول! ما كان ينبغي أن يذهب إلى هناك بمفرده مطلقًا. لقد قلتُ ذلك وقتها. وأكثر ما يؤسف في هذا الأمر هو حساب التأمين، على الرغم من أنه ليس مبلغًا كبيرًا، لكن بند الانتحار، كما تعرف ...»

ثورندايك: «أشك في أن التأمين سيتأثر بالحادث. المرجح أن هيئة المحلفين ستحكم بأن الحادث عملية قتل مع سبق الإصرار.»

صُعق جوبسون. وفي لحظة استشاط غضبًا وحملق في ثورندايك ووجهه يفضح تعبيراتِ الذهول الناجمة عن الرعب.

كرر وهو لا يكاد يصدق: «قتل! ولكنك تقول بأنه كان محبوسًا في الكوخ. وبالتأكيد هذا دليل واضح على انتحاره.»

«هو لم يحبس نفسه بالتأكيد. لم يكن هناك مفتاح بالداخل.»

«آه!» تنفس المحامي الصعداء. «ولكن ربما ... هل فتشت في جيوبه؟»

«نعم، ووجدنا مفتاحًا به ميدالية مكتوب عليها «كوخ الاستحمام» ولكنه كان المفتاح الخطأ؛ فالمفتاح لم يدخل في القفل. ولا شك على الإطلاق بأن الباب أُغلق من الخارج.»

جوبسون متعجبًا وبصوت خافت: «يا إلهي! الأمر يُثير الريبة، ولكن على الرغم من ذلك، أنا لا أصدق، الأمر كله لا يصدَّق.»

ثورندايك: «ربما، ولكن الأمور كلها واضحة ولا لبس فيها. توجد أدلة على دخول غريب إلى المنزل الريفي في الليل وأن القتل ارتُكب في غرفة النوم. ومن غرفة النوم، حمل الغريب الجثة إلى الكوخ وأيضًا أخذ كأسًا وشمعة من فوق المنضدة التي بجانب الفراش. وعلى ضوء الشمعة — التي أوقفها على أرضية الكوخ في الزاوية — وضع الجثة ووضع في جيب الرجل مفتاحًا من اللوحة الموجودة في غرفة المعيشة. ثم أقفل الكوخ وعاد إلى المنزل ووضع المفتاح على شماعته والشمعة في الشمعدان. ثم أقفل المنزل وبوابة الحديقة وأخذ المفاتيح معه.»

استمع المحامي إلى هذه القصة في ذهول أسكته عن الكلام. وفي النهاية سأل: «منذ متى تفترض حدوث هذا الأمر؟»

رد: «من الواضح أنه كان في الخامس عشر من هذا الشهر.»

جوبسون معترضًا: «ولكنه أرسل خطابًا إلى المنزل في السادس عشر.»

ثورندايك: «كتب الخطاب في اليوم السادس. شخص ما كتب الرقم واحدًا أمام الرقم ستة وأرسل الخطاب من مارجيت في السادس عشر. سأُثبت هذا عمليًّا في الاستجواب.»

انتابتني بعضُ الحيرة. أسلوب ثورندايك الخشن والعابس — المختلف تمامًا عن دماثته المعتادة — والهياج غير الضروري من جانب المحامي ربما ينمَّان عن شيء غير ما يبدو عليه في الظاهر. شاهدتُ جوبسون وهو يُشعل السيجارة — بعود ثقاب صغير من نوع راينت آند ماي الذي رماه على الأرض — وانتظرتُ سؤالَه التالي مترقبًا. وفي النهاية سأل وهو يتلعثم: «هل يوجد أيُّ طرف خيط يدل على هذا الغريب المحتمل؟»

«هل تقصد مَن ستوجَّه إليه تهمة القتل؟ أوه، نعم. الشرطة لديها وسائل التعرف عليه من دون أدنى شك.»

جوبسون: «هذا إن وجدوه.»

«هذا طبيعي، ولكن عند كشف جميع الأدلة اللافتة للنظر وقت الاستجواب، فربما يُعرف هذا الشخص ويظهر في المشهد.»

استمر جوبسون في تدخين السيجارة والهياج بادٍ عليه دون أن يرفع عينيه عن الأرض، وكأنه غارق في التفكير. سأل بعد برهة وهو على حالته: «لنفترض أنهم توصلوا إلى هذا الشخص، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ما الدليل على أنه قاتل كروفتون؟»

ثورندايك: «هل تقصد الأدلة المباشرة؟ لا أستطيع الجزمَ لأنني لم أفحص الجثة، ولكن الأدلة الظرفية التي ذكرتها ستكون كافية للإدانة ما لم تكن هناك بعضُ التفسيرات المقنعة التي تدحض الإدانة بالقتل. ويمكنني القولُ بأنه إذا كان لدى المشتبه به تفسيرٌ منطقي يقدِّمه، فالأفضل أن يعرضه قبل اتهامه؛ فالحديث طواعية له ثقل أكثر من حديث المسجون ردًّا على اتهام موجه له.»

عمَّت فترةُ صمتٍ انتابتني فيها الحيرةُ مع الانتقال بعيني من مظهر ثورندايك الصارم إلى وجه المحامي الشاحب. نهض المحامي فجأة وبعد التجول لبعض الوقت في الغرفة، توقَّف بجانب المدفأة وهو لا يزال يتحاشى النظر إلى عين ثورندايك، ثم قال بنبرة تعتريها الفظاظةُ بعض الشيء على الرغم من الصوت المنخفض الأجش: «سأُخبرك كيف قُتل. ذهبت إلى سيسولتر في ليلة الخامس عشر كما قلتَ بحثًا عن كروفتون في المنزل الريفي. أردتُ أن أخبره عن موت السيدة شولر وعن البنود التي وردت في وصيتها.»

ثورندايك: «هل أفترضُ أن لديك بعضَ المعلومات المتعلقة بهذا الشأن؟»

«نعم، ابن عمي كان محاميها وأخبرني عن الوصية.»

«وماذا عن حالتها الصحية؟»

«نعم، عندما وصلتُ إلى المنزل الريفي، وجدت الظلام يخيم على المكان. كانت البوابة والباب الأمامي مفتوحين؛ ومن ثَمَّ دخلتُ وبدأت أنادي على كروفتون. لمَّا لم يرد أحد،

أشعلتُ عود ثقاب وأضأت المصباح. ثم ذهبتُ إلى غرفة النوم وأشعلت عود الثقاب هناك؛ وعلى ضوء الثقاب، استطعت أن أرى كروفتون وهو ممدَّد على الفراش في سكون تام. تحدثتُ إليه ولكنه لم يُجِب ولم يتحرك. ثم أشعلت الشمعة على المنضدة؛ ومن ثَم بتُّ أرى ما خمنتُه بالفعل وهو أنه كان ميتًا، بل ميتًا منذ وقتٍ، ربما منذ أكثر من أسبوع.

رؤيةُ رجل ميت في هذا المنزل المنعزل أصابتني بصدمة روَّعتني، وأول ما خطر ببالي هو الإسراع بالخروج والإبلاغ عن الأمر، ولكن لما ذهبتُ إلى غرفة المعيشة، تصادف أن رأيتُ خطابًا على طاولة الكتابة ولاحظتُ أنه مكتوب بخط يده وموجه إلى زوجته. لسوء الحظ تملكني الفضول ومن ثَمَّ أخرجته من المغلف غير الملصق وقرأتُه. كان مؤرخًا بيوم السادس ومذكورًا فيه أنه ينوي الذهاب إلى مارجيت لبعض الوقت ثم سيعود إلى المنزل الريفي.

أغواني عقلي بعد الاطلاع على الرسالة؛ ومن ثَم دفعني إلى كتابة الرقم واحد أمام الرقم ستة ومن ثَمَّ تحويل التاريخ من السادس إلى السادس عشر وإرسال الخطاب من مارجيت، فكرتُ في أني سأكسب ثلاثين ألف جنيه. لمعتِ الفكرة في بالي في لمحة، ولكني لم أقرِّر القيام بذلك على الفور. قفلتُ الشيش وبسطت الستائر وقفلت المنزل وأنا أفكر في الأمر. بدا أنه لا توجد خطورة فعلية، إلا لو أتى شخص ما إلى المنزل ولاحظ أن حالة الجثة لا تتوافق مع التاريخ الذي تغيَّر على الخطاب. عدتُ ونظرت إلى الرجل الميت. كانت هناك شمعةٌ مشتعلة بجانبه وكأسٌ تحتوي على بقايا جافة لسائل بنِّيٍّ. اتضح أنه سمَّم نفسه. ثم خطر ببالي أنه إذا وُضعت الجثة والكأس في مكان آخر لا يُحتمل وجودهما فيه لبعض الوقت، فربما لا يلاحَظ الفارق بين حالة الجثة وتاريخ الخطاب.

ظللتُ أفكر بعض الوقت ولا أتذكر مكانًا مناسبًا، ولكن في النهاية تذكرت كوخ الاستحمام. فلا أحد سيبحث عنه فيه. إذا أتى أحد ما إلى المنزل وبحث عن الرجل ولم يجده، فربما لا يفهم سوى أنه لم يَعُد من مارجيت. أخذت الشمعة والمفتاح من لوحة المفاتيح ونزلتُ إلى الكوخ، ولكني وجدت مفتاحًا في الباب بالفعل وعليه أعدتُ المفتاح الآخر ووضعته في جيب كروفتون، ولم أفكر مطلقًا في أنه قد لا يكون نسخة من المفتاح. بالطبع كان ينبغي أن أجربه في الباب.

بعد ذلك، أنت تعرف الباقي. أنزلت الجثة في حوالي الساعة الثانية صباحًا وحبستُها في الكوخ وأخذت المفتاح وعلقته في اللوحة ورفعت الملاءة عن الفراش لأنه كان عليها بعض الآثار وأعدت ترتيب الفراش ببطانية كانت بالخارج. في الصباح، أخذت القطار إلى

مارجيت وأرسلت الخطاب بعد تغيير التاريخ ورميتُ مفتاح البوابة ومفتاح الباب الأمامي في البحر.

هذا ما حدث في الحقيقة. ربما لا تصدقني، ولكن أعتقد أنك حسبما رأيت ستُدرك أنه لا مصلحة لديَّ في قتل كروفتون قبل الخامس عشر، وقد اتضح أن كروفتون مات قبل ذلك التاريخ.»

ثورندايك: «ما كنتُ لأقول، إن هذا جليٌّ، ولكن نظرًا إلى أن تاريخ موته نقطة حيوية في دفاعك؛ فالمحكمة تقتضي إخطار هيئة المحلفين بأهمية هذه المسألة.»

قضيتُ هذه الليلة مع ثورندايك وفي طريق عودتنا إلى المنزل، قلت: «أنا لا أفهم هذه القضية. بدا أنك شككتَ في الأمر منذ البداية، ولا أفهم كيف عرفت أنه جوبسون؛ فهذا لغز بالنسبة إليَّ.»

ردَّ قائلًا: «لم يكن ليغيبَ عنك هذا لو كنتَ محاميًا. الاشتباه في جوبسون تضمنه حديثُك معي في أول حوار. وأنت بنفسك علقت على خصوصية الوصية التي صاغها من أجل كروفتون. عزم كروفتون على ترك جميع ممتلكاته لزوجته، ولكن بدلًا من قول ذلك، نصت الوصية على كل عنصر من ممتلكاته على حدة وسمَّى الوارث لباقي التركة وهو جوبسون نفسه. بدا أن الأمر مجرد صياغة قانونية، ولكن عند الإعلان عن تركة السيدة شولر، اتخذت الصفقة منحنى آخر مختلفًا؛ لأن هذه التركة لم ينَص عليها في الوصية؛ ومن ثَمَّ لم تنتقل إلى زوجة السيد كروفتون. ستدخل ضمن التركة الباقية ومن ثم ستئول إلى الوارث لباقي التركة.»

قلت متعجبًا: «يا له من تفكير شيطاني!»

«بالتأكيد، إلى أن ألغى كروفتون وصيته أو صاغ وصية جديدة. هذا أثار الشبهات. أشار إلى أن جوبسون لديه معلومات خاصة بشأن وصية السيدة شولر وصاغ وصية كروفتون بما يتفق معها؛ ولما ماتت بمرض خبيث، فلا بد أن طبيبها قد عرف لبعض الوقت أنها كانت تحتضر ويبدو أن جوبسون كان لديه معلومات عن هذا الأمر أيضًا. أصبح موقف الأمور التي ذكرتها كالتالي:

اختفى كروفتون ولم يكتب وصية جديدة وربما انتحر.

ماتت السيدة شولر في الثالث عشر وتركت ثلاثين ألف جنيه من أجل كروفتون إذا عاش بعدها؛ وإذا لم يَعِش، فستنتقل إلى زوجته. كان السؤال المهم وقتئذٍ هو: هل كروفتون حي أم ميت؟ وإذا كان ميتًا، فهل مات قبل الثالث عشر أم بعده. لو مات قبل

الثالث عشر، فستئول التركة إلى زوجته، ولكن لو مات بعد ذلك التاريخ فستئول التركة إلى جوبسون.

ثم أريتني ذلك الخطاب الذي دُوِّن في التاريخ المناسب تمامًا، الذي وافق اليوم السادس عشر من الشهر. ولما رأيت أن ذلك التاريخ سيؤهل جوبسون للحصول على ثلاثين ألف جنيه، بالطبع دققت في فحص الخطاب. كُتب الخطاب بحبر عادي ذي لون أسود مائل إلى الزرقة، ولكن هذا الحبر يستغرق أسبوعين حتى يتحول إلى اللون الأسود بالكامل، حتى لو تُرك في مظروف مفتوح. أما في المظروف المغلق، فإنه يستغرق مدة أطول بكثير. عند فحص ذلك التاريخ باستخدام العدسة، وجدت أن زرقة الرقم واحد أشد من الرقم ستة بشكل ملحوظ؛ ومن ثَم لا بد أنه أضيف بعد مدة، ولكن ما الدافع وراء إضافته؟ ومن أضافه؟

السبب الوحيد هو أن كروفتون ميت وأنه مات قبل الثالث عشر. الشخص الوحيد الذي لديه الدافع لإجراء هذا التعديل هو جوبسون؛ وعليه عندما انطلقنا إلى سيسولتر، شعرت قبلها أن كروفتون كان ميتًا وأن الخطاب أرسله جوبسون من مارجيت. كذلك لم يكن لديَّ شكٌّ في أن جثة كروفتون مخفية في مكان ما في المنزل الريفي. وكل ما فعلته كان من أجل التأكد من تلك الاستنتاجات.»

«إذن، هل تظن أن جوبسون أخبرنا الحقيقة؟»

«نعم، ولكني أشكُّ أنه ذهب إلى هناك عاقدًا العزم على التخلص من كروفتون قبل أن يكتب وصيته الجديدة. لا بد أن العثور على جثة كروفتون أصابه بإحباط مرعب، ولكن يجب أن أعترف بأنه أظهر دهاءً كبيرًا في التعامل مع الموقف، ولم يخنْه الحظُّ إلا بأقل قدر. أظن أن دفاعه بشأن تهمة القتل سيُقبَل، ولكن بالطبع سيتضمن الإقرار بتهمة التزوير في مسألة الميراث.»

تبيَّن أن تنبؤ ثورندايك صحيح. تبرَّأ جوبسون من تهمة قتل آرثر كروفتون، ولكنه الآن محبوس على خلفية التزوير في الخطاب وبقية مخططه العبقري أكثر من اللازم.

هنداوي